الأستاذ بوعافية محمد عبد الرزاق

البلاغة العربيّة والبلاغات الجديدة

قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة

منشورات اقرا
راس الجبل حسين

البلاغة العربيّة والبلاغات الجديدة

قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة

الأستاذ : بوعافية محمّد عبد الرزاق

البلاغة العربيّة والبلاغات الجديدة

قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة

العنوان: البلاغة العربية والبلاغات الجديدة قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة.

المؤلف:بوعافية محمد عبد الرزاق.

الحجم: 24/16سم.

عدد الصفحات: 236 صفحة.

الناشر : مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع.

حي فيلالي عمارة ب رقم3 قسنطينة- الجزائر.

هاتف|فاكس: 031925165 جوال: 0797964157

البريد الإلكتروني: E-mail :hoikraa@gmail.com

ردمك: 978-9931-515-44-9

الإيداع القانوني: **السداسي الأول، 2018.**

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسّلام على محمّد إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطيّبين الطّاهرين وجمع صحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين .

الحمد لله الذي أعان عبده ... وما توفيقي إلّا بالله ... أرجو من الله أن يتقبّل منّي عملي في سبيل لغة كتابه العظيم ... ودعائي بكل طيّب وجميل لكلّ العلماء والفقهاء وأهل المعرفة والعرفان الذين قرأت لهم وتعلّمت منهم الأموات منهم قبل الأحياء ...

شكرا لأمّي التي تحمّلت السنين معي ...سهرا .. وخدمة ... أسأل الله لها دوام الصحّة والعافية ... أمّي تلك القسنطينيّة التي علّمتني معنى أن أكون قسنطينيّا...

شكر خاص لأستاذي والمشرف على بحوثي الأكاديميّة (ماجستير ودكتوراه في جامعة سطيف 2) الأستاذ الدكتور " عبد الغني بـــارة " الذي لا يبخل بالنّصيحة ... مثال وقدوة لكل باحث نزيه ... يبتغي الحقيقة ..ويسلك مسالكها ...

مقدّمة :

كانت الدراسات الأدبية والنقدية تتوزع عبر أقاليم عديدة من خريطة المناهج والعلوم، تتزاحم فيما بينها، وكل إقليم يدعي الشرعية أمام الآخر، ولكن المقاصد المشتركة لهذه الدراسات كانت تنطق بلسان الحقيقة ؛أن هذه الأقاليم كانت لمملكة واحدة، تناساها الدارسون، وغابت معالمها عنهم بفعل الزمن والظروف، وفي الفترة الأخيرة، وبعد تحقيق في مساءلات الدراسات النقدية والأدبية ؛من أين وإلى أين تسير ركابها ؟ وأين تصب روافدها ؟ ظهرت معالم المملكة القديمة من جديد بفضل أعمال التنقيب والحفر عن تاريخ طبقاتها، والبحث عن أساساتها، واتضح أن الاتجاهات المتنازِعة حول حمى النص والخطاب، لا تكتسب شرعيتها إلا من خلال ضبط أصولها وتصحيح علاقاتها مع الإمبراطورية الأم التي ما ثبتت وعادت إلا وفي نفسها أمرُ، لقد عادت البلاغة، ليس من أجل أن تقصي الممالك المتعددة التي قامت نيابة عنها في زمن تهميشها، إنما من أجل استعادة هذه الأقاليم، وتصحيح إجراءاتها وضبط علاقاتها وحدودها، إننا في عصر البلاغة ؛حيث تهيمن بسلطانها على الخطاب وجودا وإنشاء، وعلى قراءته تلقيا .

وهذا البحث يستظل بالدراسات التي تريد أن تعطي للبلاغة مستحقها خاصة في لغتنا العربية، فالدراسات الغربية سارت شوطا بعيدا في توسيع حدود بلاغتها بين الشعري والإقناعي والسردي، وغيرها من الخطابات التي أصبح لها بلاغتها الخاصة بها، وتنضوي جميعها تحت بلاغة عامة ؛تحتضن الأنواع، وتبني شبكتها على فعاليات اللغة في الحياة الإنسانية تخييلا وتداولا، ولم تصل الدراسات الغربية إلى هذا الوعي، إلا بعد التنقيب عن البلاغة القديمة، وإعادة قراءتها، وفهم جزئياتها والمراحل التي

مرت بها، والتفاعلات التي خاضت غمارها، وهذا ما صنع نجاح الدرس النقدي الغربي أمام حالة التبعية الشكلية التي يعاني منها جزء لا يستهان به من الدرس النقدي العربي، فإذا تمكنا من قراءة ماضينا الثقافي والبلاغي، بالتنقيب عن خلفياته، والكشف عن أنساقه، ومحاولة إجراء قراءة داخلية ؛حيث يفهم السابق في ضوء اللاحق، ويطرح سؤال التلقي وبناء العلاقات، عندها يمكن النهوض بالدرس النقدي والبلاغي، ويتمكن حينها من محاورة الآخر، والاستفادة منه، ولم لا إفادته .

إن البلاغة العربية لا تزال ترقص في الأغلال، خاصة في المناهج التعليمية، ومازال الأساتذة في ربوع الوطن العربي يتّخذون من " إني أرى رؤوسا قد أينعت ..." نموذجا ليشرحوا به الاستعارة وكأنّ العربية بأساليبها وقف بها الزمن وعقمت ليبقى فيها شاهد وحيد على أحد أكبر أفنانها وهي سلطنة الاستعارة، أمّا الإجراءات التطبيقية التي تتخذ مقولات البلاغة وأبوابها محورا للتطبيق على النصوص والخطابات فهي مهزلة من طراز رفيع المستوى خاصة عندما نجد دراسات يبحث أصحابها في ظواهر بلاغية ضمن خطابات معيّنة ولا نجد في نهاية الدراسة مبرّرا لتتبّعها، وكذلك لا نجد هدفا من دراستها ناهيك عن إهمال الأصول النظرية التي تقف خلف الفروع التطبيقية، ونجد اتجاهات البلاغة العربية الفاعلة عبر تاريخها ما تزال مغيبة، وغير مفهومة، ولم يكشف عن كثير من مكوناتها، ومقاصدها التي تسير تبعا لها، وقد تصدت في العقود الأخيرة دراسات جادة تأخذ من الغرب، وتعمل على كشف التراث ومحاورته في قراءة متفاعلة لا تتحيز لطرف على حساب الآخر، وتعمل على احترام الجديد الوافد بفهم أصوله وتبين خلفياته وتمحيص النظر في مقاصد أصحابه، ولا تقف أمام طود التراث الشامخ لتؤدي الدعوات لأصحابه، إنما لتؤدي

واجب الفهم كما أمرنا في ديننا ومناهج علومنا والبحث عن أجوبة ما يزال الواقع والخطاب ينتظرانها، ولتقيم حوارا بين الوافد الجديد والقديم العتيد، هكذا تتبين للقارئ أعمال جادة في الساحة النقدية والبلاغية العربية ؛مثل أعمال عبد الله صولة، وحمادي صمود، ومحمد مفتاح، ومحمد مشبال، ومحمد العمري، وغيرهم ممن أخلص للبحث والتنقيب ومتابعة التطور الذي شهده الدرس البلاغي العربي بمكوناته الغنية، هذه الدراسات التي أخذت على عاتقها مهمة تعد الخطوة الأساسية في بناء صرح الفهم والبيان وتأسيس المعرفة التي تتناسب مع هويتنا ومنطلقاتنا.

وكان اختيار الموضوع مؤسسا على متابعة حركة البحث التي تتسارع حاليا في مجال الدراسات البلاغية، تحقيقا، ودراسة، وكشفا للأنساق، واختبارا للإمكانات التطبيقية، فالبلاغة العربية في أمس الحاجة إلى إعادة قراءة تاريخها من النشأة إلى العصر الحالي، ولسنا في حاجة لمن يكرّر ما قاله السابقون، ويعيد على مسامع القرّاء وأذهانهم حكاية اجتهد في تحصيل بعض من أطرافها الأستاذ شوقي ضيف أو الأستاذ المراغي أو بدوي طبانه أو غيرهم من رواد البحث التاريخي للدرس البلاغي، فأولئك قد قاموا بواجبهم بما كان متوفرا تحت أيديهم، وبما كان مهيّأ ليفهموا من خلاله أنساق الدرس البلاغي، وعلينا اليوم أن نزيد عليهم، ونمحّص فيما أطلقوه من أحكام إن صوابا أمسكناه وإن خطأ نبّهنا عليه وأصلحنا خلله.

والتنقيب في أصول الدرس البلاغي عند العرب تتطلّب الرّجوع إلى البدايات التي غالبا ما ننساها في حديثنا عن البلاغة وهي الأصل الذي نبعت منه، ولا يكفي الوقوف عند تراثنا البلاغي، بل يجب الحديث عن اتجاهاته وخاصة منها تلك التي عاشت على الهامش وأساءت إليها القراءات بما توصلت إليه من نتائج، وتتالت عليها

التراكمات الأكاديميّة لتتحوّل إلى أحكام جاهزة عنها، لانكتفي بهذا بل نطمح إلى دراسة نماذج من المشاريع البلاغية المعاصرة، ووجدنا مشروع محمّد العمري من أبرز المشاريع التي تتّضح من خلالها معالم رؤية عميقة من مستويين ؛ التراثي القديم، وكذلك المعاصر من خلال منجزات البلاغة الجديدة ، وتتبّعنا خطوات مشروع الرّجل ودرسنا أهمّ معالمه .

إنّ هذا العمل لا يدّعي الشمول والكمال من كل جانب، ولكن حسبه أنّه جمع بين التنقيب عن أصول البلاغة العربيّة وتطوّر أنساقها وتابع أحد أكبر مشاريعها في الفترة المعاصرة آخذا بالتراث العربي الإسلامي من جهة ومستعينا بما صلح وتناسب مع علومنا ولغتنا وعلومها وآدابها الجليلة لكي لا نكون ممّن يحمّلون التراث ما لا يتحمّله أو ندّعي إفلاسه في جانب من الجوانب اتّباعا فقط لآراء الغرب وتقديسا لهم، إنّ بلاغتنا العربيّة هي المفتاح الذي مكّن علماؤنا الأجلّاء من فهم القرآن الكريم واستنباط أحكامه، لقد كانت البلاغة مملكة ترتبط بها كافة العلوم الشرعية باعتبارها قمّة العلوم اللغويّة والأدبية، نريد لها أن ترجع إلى هذه المكانة، لأنّ مناهج النقد المعاصر للأسف الشّديد تبيّن للذين هلّلوا لها أنّها مؤسّسة على نصوص إبداعيّة غربيّة غريبة عن نظام لغتنا العربيّة الجليلة، فمثلا من أين لجُنيت ببلاغة السّرد لولا استنباطه لآلياتها من نص مارسيل بروست، ومن أين للشكلانيين الروس أن يخرجوا على العالم بمفاهيم المهيمنة والأسلوب والتغريب لولا نصوص الشعراء المستقبليين في روسيا ؟ إنّ مناهج النقد المعاصر مؤسّسة إجرائيا على نصوص غربية، ولأهلها الحق في ذلك فهم يسعون لدراسة لغاتهم، ومؤسّسة نظريا على رؤية فلسفية ودينية غربية إمّا يهوديّة وإمّا مسيحيّة أو حتى إلحادية، كيف ينجح النقد العربي في اتخاذ هذه المناهج سبلا

للكشف عن جماليات أدب يختلف سياقه عن سياقها وتختلف عقيدته عن عقيدة أهلها، إنّ المناهج الحقيقة بدراسة أدبنا العربي والكشف عنه هي تلك التي تستقي منه وترجع إليه وتفهم الآخر وتستفيد منه بقدر ما تسمح لها هذه اللغة وهذا الأدب .

ما زالت كلمات الأستاذ أحمد حسن الزيات فيما قاله عن البلاغة في كتابه المميّز " دفاع عن البلاغة " تراود فكري وتدخل شغاف القلب منّي، خاصّة لّما قال:"و الجدل عصب البلاغة " وقوله :" فالبلاغة إذن توجّه إلى العقل أو إلى القلب أو إليهما معا " (دفاع عن البلاغة ص20/ 21)، ما الفرق بين ما قاله الزيات رحمه الله وبين ما ينشره العرب اليوم عن شاييم بيرلمان ( ) من دراسات وتطبيقات على المدونات النثرية والشعرية حول الحجاج وآلياته، إنّ البلاغة العربيّة تحوي ما هو إقناعي وما هو جمالي شعري وتمزج بينهما حسب مقتضيات الأحوال مثلما عبّر عن ذلك فطاحلة الدّرس البلاغي في تراثنا العربي الإسلامي العتيد .

في هذا العمل يروم الباحث الكشف عن هذه الأصول الإقناعية / التواصلية والشعرية الجمالية في البلاغة العربيّة، والبحث عن حقيقة وظيفة البلاغة، ودراسة نموذج معاصر قرأ البلاغة حسب معطيات الدرس الجديد وهو مشروع العمري الذي أقل ما يقال عنه أنّه أوّل قراءة عربيّة نقدية جادّة للمنجز البلاغي العربي، ولا نجد الدارس فيها مغمورا بالنظريات الغربية بقدر ما هو قارئ ممحّص لها، اختمرت الحقائق في عقله ردحا من الزمن لتتجلى على رؤيته وإجراءاته .

أ. بوعافية محمّد عبد الرزاق

قسنطينة

المدخل :

قراءة البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة سؤال في النشأة والمفهوم

1-بلاغة جديدة أم بلاغات نوعية ؟سؤال في جديد البلاغة .

2 -تاريخ البلاغة العربية ومساءلات الراهن للقديم.

3-مقومات البلاغة العربية نشأة وتطورا وامتدادا:

أ/ نشأة البلاغة العربية بين الإقناع والإمتاع .

ب/ البيان القرآني والمساءلات البلاغية الأولى

ج/ تطور البلاغة العربية والانتقال من الملكة الفطرية إلى العلم الواصف:

1. الخلافات العقدية والجدل الكلامي.
2. تطور البحث اللغوي وتأسيس النظرية اللغوية العربية .
3. فهم القرآن الكريم وأسئلة الإعجاز .
4. الحركة الشعرية ومذاهب الفن .
5. الوافد الأجنبي وفهم العرب للبلاغات الأخرى .

4-مفهوم البلاغة بحث في المشترك وتبين للفروق بين الموروث والوافد الجديد.

نقف على أرض مملكة البلاغة العربية المترامية الأطراف، نجوب مسالكها، ودروبها، في رحلة تبدأ ولا تنتهي ؛لاكتشاف المجهول والمغمور من مدائنها، وإعادة التحقق مما تعرّف عليه الدارسون منها، متخذين مطايا البحث العلمي الذي تحدوه الخلفية المعرفية التراثية حارسا وضابطا، وتشرف على سلامة ما يجنيه قراءة عمادها النظريات البلاغية الجديدة، التي دخلت الدرس البلاغي المعاصر، رغبة منها في إعادة تأريخ، وقراءة، وتنظير البلاغة العربية للوقوف على إمكانياتها الفذّة إجرائيا.

وليس من الغريب أن تعود الدراسات المعاصرة إلى الميدان البلاغي، لأنه كان غائبا حاضرا، فالآليات التي اهتمت بها الاتجاهات النقدية المعاصرة، كانت تنتمي بشكل أو بآخر إلى جزء من جزئيات الدرس البلاغي، وتقع ضمن اهتمامه، ونجد ذلك عند الغرب كما نجده عند العرب، فالبلاغة الأرسطية أعيد اكتشاف متنها من جديد، ورجع الدارسون إليها، ليتبيّنوا المرجعية الشاملة لتطبيقاتهم وبحوثهم الشعرية، والتداولية، أما الجانب العربي فقد كانت البلاغة مخزنا تؤخذ منه الإجراءات التطبيقية وتنتزع منه الأفكار والمنطلقات، تؤخذ جزئيات منه دون مراعاة انتمائها إلى نسق بعينه يوجب التعامل معها بخصوصيات نابعة منه، ومع التناسي أو الجهل بخلفياته ومقاصده، تُخلط المفاهيم وتتضارب المشاريع البلاغية، ويضاف إليها مزج غريب مع المناهج النقدية المعاصرة، هذه الظواهر استدعت الدراسات العربية البلاغية المعاصرة، والتي تنحو نحو الدراسات الغربية في إعادة استكشاف المجهول والمغيب من بلاغتنا ، دون أن تكون نسخة طبق الأصل عن آراء الغرب، أو تطبيقاته،

أو أحكامه على تاريخ البلاغة أو ظواهرها، فلكل فريق لغته ونصوصه النابعة من أصول ثقافية، ومرجعيات تتكاثف عديد الروافد لبنائها .

1. بلاغة جديدة أم بلاغات نوعية ؟سؤال في جديد البلاغة :

ومن المهم أن نشير في بداية بحثنا إلى أن البلاغة الجديدة (La nouvelle rhétorique)، أو الدرس البلاغي الجديد قد مر بمراحل منذ دخوله إلى البحوث العربية المهتمة بهذا الشأن، إذ نجد جماعة من النقاد المعاصرين وعلى رأسهم عبد السلام المسدي الذي اعتبر الأسلوبية (stylistique) وريثة للبلاغة التي ماتت أو رحلت، وأصبحت مفاهيمها لا تصلح لمقاربة الخطابات بلهجة تتجنّى على البلاغة أو تستحضر البلاغة الغربية وتقصي الجانب العربي مطلقا، وفي ذلك يقول : "وإذا تبينا مسلمات الباحثين والمنظرين وجدناها تقرر أن الأسلوبية وليدة البلاغة، ووريثتها المباشرة، معنى ذلك أن الأسلوبية قامت بديلا عن البلاغة "[1]

كما هو واضح من كلام المسدي، فإن البلاغة لا تضطلع سوى بدور تاريخي في تأصيل الأسلوبية، ومعرفة أصلها، ونلمس من عباراته تلميحا خفيا بأن الأسلوبية بلاغة جديدة ؛باعتبار أنها وريثتها، أو بديل عنها، وهذه المرحلة التي نجد فيها الدارسين العرب يقدمون الأسلوبية ؛باعتبارها بديلا عن البلاغة، أو بشكل ضمني بلاغة جديدة، وهذا ما نلمسه عند محمد عبد المطلب إذ يقول: "...البلاغة لم تعد

---

[1] عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب ليبيا تونس، 1977 ص: 48.

قادرة على الاحتفاظ بكل حقوقها القديمة التي كانت تناسب فترة معينة من ماضينا، والتي يجب على الباحث في الأسلوبية وضعها في اعتباره "[1]

وهذه العبارات فيما بعد تداولتها الدراسات التمهيدية التي هللت للأسلوبية؛باعتبارها بلاغة جديدة تقوم مقام البلاغة القديمة، وهذه المرحلة تميزت باتساع التناول الأسلوبي للنصوص تحت تأثير اتجاهات البحث ضمن هذا الميدان، **ونحن لن نعتمد هذا المفهوم للبلاغة الجديدة** لأنه مفهوم ضيق إن لم يكن مجحفا في حق البلاغة، بل ولا تؤيده مؤهلات الأسلوبية هذا ما يقوله محمد العمري : "وقد اعتقد بعض الباحثين، إلى حين، أن الأسلوبية يمكن أن تقدم بديلا حديثا للبلاغة ...غير أن الأسلوبية ما إن حاولت تثبيت كرسيها على الدكة التي كانت تستقر فيها البلاغة باطمئنان حتى اهتز من تحتها ومال على جانبه لانكسار إحدى قوائمه المتمثلة في البعد التداولي "[2]

إنّ البعد التداولي حاضر بقوّة في البلاغة العربيّة، فهل تستطيع الأسلوبيّة أن تكون بديلا عن هذا الدّر العتيد، وهي التي لم تتمكّن من ترقيع هذا الجانب إلا في دراسة هنريش بليث التي تعدّ يتيمة، ولا يمكن أخذها كقاعدة نبني عليها اعتماد الأسلوبية بديلا عن البلاغة .

---

[1] محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت لبنان، ط1، 1994، ص:354.

[2] محمد العمري، الحجاج مبحث بلاغي فما البلاغة ؟، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، عالم الكتب الحديث إربد الأردن 2010، ط1، ص : 21.

ونحن إذ نحقق مفهوم البلاغة الجديدة ونرصد تطوره التاريخي نريد من خلال ذلك تحديد المفاهيم، والخلفيات النظرية ، والآليات التطبيقية، والمقاصد التي حركت الدراسات المعاصرة وجعلتها تعيد النظر في البلاغة العربية .

إذن فالأسلوبية لن تكون البلاغة الجديدة التي في ضوئها تم النظر إلى الموروث البلاغي العربي وإن كنا لا ننكر أعمال الدارسين الأسلوبيين في الكشف عن جوانب من الدرس القديم، بل واعتماد المفاهيم الأسلوبية كطرف مهم في التناول البلاغي الجديد وهذا ما نجده في مقولة العمري حول صنيع هنريش بليث(Heinrich plett)، إذ يقول معلقا على الاتجاه البلاغي الذي يرمي إلى اصطناع بلاغة عامة، تهتم بما هو تخييلي، وتداولي معا :"وقد تدعم هذا المنحى بدراسات قيمة من قبيل دراسة لهنريش بليث بعنوان :البلاغة والأسلوبية[1]، أعاد فيها إلى الواجهة البعد التداولي الحجاجي للبلاغة القديمة، هذا البعد الذي تفتقده الأسلوبية الحديثة "[2].

وهذا ما نجده مع التيار الجديد الذي يهدف إلى الاستفادة من الأسلوبية والشعرية مع التداولية ومباحث الحجاج لمقاربة الخطاب وتحليله .

ثم جاءت مرحلة كانت الدراسات العربية المعاصرة على اتصال بالتيار التداولي ودخل مفهوم الحجاج والإقناع والخطاب التأثيري وغيرها من المفاهيم التي ترتد جميعها إلى الحقل التداولي الغربي خاصة مع مدارس الحجاج ويقف العمري على

---

[1] هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، تر محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب / بيروت لبنان، 1999م.

[2] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، المغرب الدار البيضاء، ط1 2013، ص:31.

رأس الدارسين الذين استفادوا من الكتاب الرئيسي : مصنف في الحجاج (البلاغة الجديدة) traité de l'argumentation la nouvelle rhétorique

هذه العبارة الأخيرة التي انتشرت بين الدارسين، وسارعوا مثل الغرب إلى اعتبار نظرية الحجاج (L'argumentation) بلاغة جديدة، وهناك من قصر تسمية البلاغة الجديدة عليها من قبيل ما صنعه عبد الله صولة في دراسة قدمها، ضمن كتاب:الحجاج مفهومه ومجالاته ونستطيع أن نقرأ قوله في هذا الصدد : "البلاغة الجديدة في العصر الحديث بلاغات كما يقول روبول .لكن يمكن أن نعتبر البلاغة التي جاء بها بيرلمان وتيتيكا هي هذه البلاغة الجديدة "[1]

فعبد الله صولة (ت1430هـ) يعترف بأن البلاغة الجديدة بلاغات وهذا ما نريد نحن دراسته وبيان طاقات وإمكانيات البلاغة العربية في ضوئه ؛ لأن اعتبار البلاغة الجديدة محصورة في الحجاج يحد من فعاليات أقطاب كثيرة كالفعالية التأويلية والشعرية كذلك، بل إن ما ستفصح عنه دراستنا في هذا المدخل هو كشف عن هذه الفعاليات في الدرس البلاغي العربي القديم، ورؤية لمباحث البلاغة الجديدة، ليس للمقارنة وإنّما للإفادة والتقريب والتأصيل .

واعتبارنا البلاغة الجديدة بلاغات متعددة لا يعني تنازعها، أو تنافر أقطابها، بل على العكس من ذلك، نجد تداخلا وتعاضدا بين هذه البلاغات لتأسيس صرح بلاغة عامة مؤهلة لتشكل الخلفية النظرية، والعدة التطبيقية لتزود الدراسة النقدية بما تحتاج إليه لمقاربة الخطاب التداولي والتخييلي، ويذكر محمد مشبال بأن المنجزات

---

[1] عبد الله صولة، البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة (أو الحجاج)، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2010، ط1، ص:28.

الشكلانية والدراسات الأسلوبية لا يمكن أن تحل محل البلاغة بل تعتبر داخلة في دائرة البلاغات المتشكلة على مدى تاريخ الانسانية [1].

بل ويزيد على ذلك قائلا :"فالبلاغة –كما يرى معظم المفكرين البلاغيين المعاصرين – ماثلة في كل النصوص، بل إنها مكون طبيعي في أشكال التواصل الإنساني ... هذا هو موضوع البلاغة، الذي قد يتجسد أحيانا في مجموعة من البنيات الإقناعية (البلاغة الحجاجية)، وأحيانا في مجموعة من الصور والوجوه الأسلوبية ذات الوظيفة التحسينية (بلاغة المحسنات)وأحيانا أخرى قد يتجسد في مجموعة من الصيغ التعبيرية والتصويرية التي تفرزها مختلف الأجناس والأنواع والأشكال والنصوص الأدبية ...(البلاغة الأدبية)."[2]

وعلى هذا المثال نجد في الدراسات المعاصرة المتأخرة منها عناية بالبلاغات الخاصة مثل بلاغة الرواية وبلاغة المسرح مثلما قدمه محمد مشبال عن بلاغة النادرة، باعتبارها نوعا سرديا قديما، لم تكشف عنه نظرية البلاغة العربية، لكن يمكن استنطاق الكامن من خلال النصوص الواردة وسياقاتها التي جاءت فيها[3]، ووجود هذه البلاغات النوعية تحت مسمى البلاغة الجديدة ضروري لألا يحصر معناها، ومفهومها في مجال يضيق الخناق على الآفاق التي تريد اكتساحها، وبناء بلاغة عامة ترجع إليها البلاغات الخاصة، وتستمد منها مبادئها النظرية، وتمدها كذلك بالخصائص النوعية المشتركة، والتي تسهم في بناء كليات البلاغة كعلم كلي شامل يمس علوم الإنسان

---

[1] ينظر : محمد مشبال، البلاغة والأصول، أفريبا الشرق، المغرب، 2007، ص7.

[2] المرجع نفسه، ص: 8.

[3] ينظر :محمد مشبال، بلاغة النادرة، أفريقيا الشرق المغرب، 2006.

واللسان، وقد نبهت جماعة مو (Groupe MU)إلى هذا الأمر، إذ اعتبرت مؤلفها البلاغة العامة غزوا لمناطق غير مكتشفة وجديدة تدخلها بلاغة تطبق على كل أصناف العبارة .[1]

ولهذا أردنا أن نضبط مفهوم البلاغة الجديدة ؛ باعتباره مصطلحا يجمع عديد البلاغات، مثلما سبق وأن أشرنا، لكننا سنركز على الفروع الأكثر نضجا ووضوحا كبلاغة الحجاج وبلاغة الصور أو بلاغة الشعر، وبلاغة التلقي، وفي ضوئها سنبين مؤهلات درسنا البلاغي القديم، وإمكاناته النظرية التطبيقية وخصائصه المميزة له عن النظرية الغربية، والتي تمكّنه من بناء صرح تأسيسي لمناهج النقد المعاصر، ونتخذ نموذج دراسات العمري كمثال تطبيقي للدراسات العربية المعاصرة التي وسعت مفهوم البلاغة لتتناول شتى أصناف الخطاب، وتعيد قراءة الموروث البلاغي في ضوء الوافد الجديد، وهذا النوع من الدراسة يستهدف قراءة المشاريع، لا علاقة له بتقييمها، والمفاضلة بينها وبين المشاريع الأخرى، لكن قراءة المشروع من ورائها تحقيق في النتائج المتوصل إليها، وتحقق من الدرس البلاغي، وتوسيع لنقاط مهد لها المشروع قيد الدراسة .

2. تاريخ البلاغة العربية ومساءلات الراهن للقديم:

كانت عملية التنقيب عن التراث العلمي، والأدبي العربي قد بدأت منذ عصر النهضة والإحياء، لكن المتتبع لهذه الحركة، يرى بأن من وقف على إحياء التراث نشره وتحقيقه، ما كان بإمكانه أن يتجاوز هاتين العمليتين؛ بسبب الظروف المحيطة به، ونجد في أحسن الأحوال دروسا وشروحا لكتب بلاغية بعينها مثل التلخيص وعقود

---

[1] ينظر : Groupe Mu ,Rhétorique générale, Édition du seuil, paris ,1982,p:158.

الجمان والإيضاح ...إلخ، مع غياب النظرة الشمولية التي تتناول تاريخ الدرس البلاغي عند العرب، وكذلك غياب للتحليل المعمق الذي يربط بين الاهتمام البلاغي، وبقية الانشغالات والمجالات العلمية، والمعرفية القديمة، ناهيك عن الحديثة، أما التنبه لبلاغة الغرب في هذه الفترة (عصر النهضة والإحياء) فإننا نجد أثره عند الطهطاوي(ت1290هـ) في تخليص الإبريز [1]، الذي بين اهتمام الغرب بالبلاغة وأن لها اسما هو :الريثوريقي، وهذه الفترة لم تؤرخ للدرس البلاغي العربي إلا في نهاياتها، ونجد ذلك مع ما كتبه المراغي رحمه الله (ت1370هـ) في علوم البلاغة[2] وتأريخه لعلومها في مصنّف آخر، وغيره ممن أولوا بعض العناية التاريخية بالبلاغة العربية مع الاهتمام بالخط الذي ينطلق من الجاحظ مرورا بالبديع وصولا عند الجرجاني ثم المفتاح وما يعقبه من تلخيص وشروح، وعملية التأريخ تكتسي أهميّة ذلك أنّها تعمل على اكتشاف الأنساق التي تتحكم في المدارس البلاغية وامتداد كل مدرسة وطريقة تطبيقها وتناولها للنص، وهذه الفترة كشفت جزءا ضئيلا من التاريخ البلاغي، بل وساهمت في ترسيخ نموذج واحد هو نموذج القزويني(ت739هـ) ومن تابعوه بالشروح والحواشي ؛على أهميتها إلا أن تناولها باعتبارها نموذجا أوحد للبلاغة، جعل هذه الأخيرة، تتصف بصفة الجمود متنا، وشرحا، وشاهدا .

---

[1] ينظر :الطهطاوي، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص:359.

[2] أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 2005م.

ثم جاء مؤلف الدكتور شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ الذي يعلن من خلال مقدمته أن ما سيقدمه هو استعراض لحياة البلاغة على منازل التاريخ في درس منظم بحيث تتضح معالم تطورها في كل منزلة من جيل إلى جيل .[1]

وكذلك كان الكتاب إذ نلمس فيه جدية العمل، والرغبة في المسح التاريخي، ودراسة المؤلفات البلاغية، وتصنيف تياراتها، وتحديد منشأ البلاغة العربية، والعوامل المساعدة على ذلك ضمنيا .والعمل الذي قام به شوقي ضيف، جاء من توجه إليه برؤية جدلية بين التراث والمعاصرة وهو الأستاذ حمادي صمود في مؤلفه: التفكير البلاغي عند العرب، وصاحب هذا المشروع يقر بأسبقية غيره لكنه ينتقد طريقتهم بالقصور "وسبب هذا القصور يعود، من وجهة نظرنا، إلى غياب جدلية التراث والحداثة في هذه المؤلفات وتصديها لدراسة التفكير البلاغي، في الغالب، من منظور أحادي البعد "[2]

وقد جعل حمادي صمود من الجاحظ مركزا يرصد من خلاله الدرس البلاغي قبله وبعده، باعتباره شخصية معلمية تأثرت وأثرت في هذه البلاغة .

إن عملية تأريخ الدرس البلاغي تكشف عن الاتجاهات الكبرى التي ميزته وأثرت فيه، كذلك تفتح المجال أمام دارسي الخطاب لمعرفة نوافذ أخرى لمفاهيم بلاغية ؛ إن تناولناها من وجهة واحدة أصابها الجمود والتكلس مثلما ما حدث للبيان والبديع والمعاني، هذا التقسيم الذي جنى على نظرية البلاغة العربية، وسد الآفاق،

---

[1] ينظر : شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة مصر، ط13، دت، ص: 5.

[2] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010، بيروت لبنان، ط3ص:12.

وحجب وجهات نظر قدمت تقسيمات أخرى انعكست على ممارسات تحليل الخطاب بالإيجاب، ولهذه الاعتبارات وغيرها نرى ضرورة إعادة قراءة البلاغة العربية دون تهميش أو استثناء تيار من تياراتها، خاصة إذا كانت هذه القراءة تعتمد مفاهيم مستقاة تارة من البلاغة الجديدة التي تتوافق مع الرؤية البلاغية العربيّة التي سبق وأن أعلن أصحابها عن تعدد وجهاتها وتارة من التراث العربي الذي تعدّدت آفاقه، بل إن هذه القراءة يجب أن تراعي المهد التاريخي الذي نشأت فيه هذه البلاغة، والسياق الحضاري الذي ترعرعت فيه، وظل يرافقها كالظل، لكن كثيرا من الدارسين لم يتنبهوا إليه، وسنعود إلى هذا خاصة في قضية الإعجاز والبحث في المفاهيم الحقيقية لهذا المصطلح، هذا العمل يجعلنا نجابه عديدا من الإشكالات والتساؤلات منها:

ما أصول البلاغة العربية ؟ وما هي كلياتها النظرية ؟كيف سترتسم أمامنا صورة البلاغة العربية إذا حاولنا اكتشاف أبعادها المترامية باعتماد الدرس الجديد ؟هل حقيقة ترجع البلاغة العربية إلى علوم ثلاث (معاني، بيان وبديع) ؟ من أين جاءت هذه المصطلحات ؟ وما علاقتها بالخطاب الإنساني والقرآني؟ هل تم بالفعل تقييم كل الأعمال البلاغية بما يتناسب مع مقاصد أصحابها ومشاربهم وسياقهم التاريخي ؟ ألم تهمل مؤلفات بأكملها في التأريخ البلاغي، بدعوى أنها ليست من البلاغة في شيء؟ أليس من الغريب اليوم أن نجد الاختيارات الشعرية مثل: الحماسة، والمفضّليات، والتشبيهات تمثل اتجاها بلاغيا له مقوماته، وأسسه النظرية الكامنة والمعلنة ؟

هذه التساؤلات نجدها بدأت تتنامى في العقود الثلاث الأخيرة، ومن بين الأعمال المهمة ما قدمه محمد العمري في كتابه : البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، هذا العمل الذي رصد من خلاله ما استطاع من المشاريع البلاغية، محللا ومعتمدا

مفاهيم بنيوية كالنسق ومفاهيم نظريّة التلقي Théorie de la réception، وسنعود في الفصلين القادمين لتعميق الرؤية في كامل مشروع العمري، باعتباره يمثّل رؤية بلاغيّة عربيّة معاصرة، ليكون مؤلّفنا هذا جامعا بين القديم والرؤية المعاصرة، كذلك نجد محمد مفتاح في كتابيه مجهول البيان والتلقي والتأويل[1] قد تعرض للكشف عن اتجاهات بلاغية تناساها الدرس البلاغي العربي ؛ كالمدرسة المغاربية التي نجد ضمنها أسماء مثل السجلماسي (ت ق 8هـ) والقرطاجني(ت684هـ) وابن خلدون(ت808هـ) وابن البنّاء المراكشي العددي ... .

وفي مدخلنا هذا سنحاول قراءة أصول البلاغة العربية، محاولين بذلك إضاءة أجزاء من المنجز البلاغي العربي وتصحيح الرؤية – اجتهادا منا – في بعض المواقع التي رأينا إجحاف الدارسين في أحكامهم على مراحل بلاغية بعينها، هذا ما سيدخلنا في خلاف مع دارسين آخرين سبقونا إلى هذا الميدان لكن عمادنا في هذا العمل هو قول الإمام أبي حنيفة : "هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحدا عليه، ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية " ونحسب أن الدارسين السابقين يسيرون على هذا النهج العلمي في الانفتاح، وقبول الرأي الآخر المؤسس على دعائم علمية .

---

[1] ينظر : مجهول البيان والتلقي والتأويل خاصة في ربط محمد مفتاح الآليات البلاغية بالمفاهيم المنطقية وكذلك علاقة التراث البلاغي في تياراته المغاربية بالرياضيات ومفهوم البيان والبلاغة ومقاصد التأويل وامتدادات مشاريع البلاغيين نحو غايات شرعية وسياسية وكذلك كونية إنسانية .

3. مقومات البلاغة العربية نشأة وتطورا وامتدادا :

أ/ نشأة البلاغة العربية بين الإقناع والإمتاع :

لا نريد أن يكون تتبعنا لنشأة البلاغة العربية من منظور ظهور الإسلام وتأثر العرب به، إنما نريد أن ننقب عن الأصول الأولى محترمين ملابسات الفترة التاريخية، والملاحظ أن البلاغة كغيرها من العلوم اللسانية والإنسانية لم تكن مقننة وموضوعة في زمن الجاهلية، لكن العرب كانت تمتلك هذه المعرفة اللغوية، كقدرة كامنة ضمنية يتوارثونها جيلا عن جيل ؛ مثلما يقول ابن خلدون :"...فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ؛كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها ؛فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك [...]إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم "[1]

ويسبق كلامَه هذا حديثُه عن البلاغة وأنها بلوغ المتكلم الغاية من إفادة مقصوده للسامع حيث يقول:" اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها. وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب. فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة، للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة

[1] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق سوريا، ط1، 2012، ص:622.

مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة"[1]، فالقدرة اللغوية هي التي تمكن الإنسان من التعبير عن المعاني، وهذا الأمر لا يتعلق بالمفردات، وهنا نلاحظ شيوع فكرة أن البلاغة لا تتعلق بالمفردات لوحدها، فالتركيب الذي يراعي قوانين التأليف، الذي بدوره يعمل على اتباع قاعدة المقاصد وتطبيق الكلام على مقتضى الحال ؛أي مراعاة المناسبة التداولية، إذا توفرت كل هذه المواصفات تم معنى البلاغة، وانكشفت حقيقتها.

وملاحظات ابن خلدون تسلط الضوء على العصر الجاهلي باعتبار البلاغة ملكة فطرية تنشأ بالسماع فطرة ثم النسج على منوالها، وتكرار استعمالها ؛هكذا كانت البلاغة عند العرب قبل الإسلام هي ملكة للتواصل ؛لأنها ارتبطت بمفهوم الوصول والإيصال وهذا ما نجده عند صاحب اللسان إذ يقول :"بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا:وصل وانتهى ؛وأبلغه هو إبلاغا وبلغه تبليغا، وقول أبي قيس بن الأسلت السلمي :

قالت ولم تقصد لقيل الخنى : مهلا فقد أبلغت أسماعي "[2]

ويقول في موضع آخر :"وتقول :له في هذا بلاغ وبلغة وتبلغ أي كفاية .وبلغت الرسالة ."[3]

فالبلاغة والبلاغ والجذر اللغوي لهذه الكلمة تجتمع فيه خصائص الإيصال وبلوغ النهاية والكفاية في الكلام وغيره، ومن هنا ندرك حقيقة العلاقة بين مفهوم

---

[1] المرجع نفسه، ص:622.

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة مصر، د ت، مادة (بلغ) .

[3] ابن منظور، لسان العرب، مادة (بلغ)

البلاغة وبين بقية العلوم اللسانية وهي حقيقة التواصل إذ نجد عنصر التركيز على الإيصال وتحقيق الكفاية فيه ، وليست أمرا يأتي بعد إنشاء الرسالة اللغوية، إنما هي أصل هذه الرسالة إنشاء ومقصدا ولا تهتم فقط بالوظيفة التزيينية أو الجمالية كما هو شائع عند الكثير .

ولا نزال مع أصل نشأة البلاغة، هذا الأصل الذي نلتمسه من المعجم الذي جمع عن الفترة الجاهلية لأننا ننطلق منها وهو أول مرجع ينبغي المرور به لتحقيق جذور هذه النشأة التي سنراها تتواشج مع الروافد التي ستحملها مستقبلا، هذا ما لا نجده واضحا في البلاغة الغربية، وسنشير إلى ذلك في موضعه، والعرب في زمن الجاهلية أخص ميزة وسمتهم هي ألسنتهم وإجادتهم فنون القول والخطاب، فكان الشعر ديوانهم والخطابة ميدانهم، حتى ليصل أحد علماء اللغة وهو ابن فارس ليقول:"الشعر شعر العرب ديوانهم وحافظ مآثرهم "[1].

وهو هنا يريد الإشارة إلى اختصاص العرب بالقول الجميل وصناعته، وأن بقية الأمم ليست هذه ميزتها، بل نجد في العديد من النصوص التراثية كلاما عن اختصاص العرب بالشعر وملازمته لها، ونحن ما يهمنا هو علاقة هذا الخطاب بفعالية البلاغة التي عرفها العرب في الجاهلية ؛ باعتبارها ملكة فطرية عمودها التواصل وبلوغ الكفاية في القول، والشعر أحد مسالك التعبير التي اتضحت فيها هذه البلاغة وقد أكسب لهذه البلاغة العديد من الخصائص ستظهر في العصور اللاحقة .

[1] أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2، 2007، ص:43

ونجد عبد الكريم النهشلي(ت ق5هـ) يورد نصوصا في مقام الشعر عند العرب:"..وقال الحجاج لمساور بن هند :لِمَ تقول الشعر ؟قال: أسقي به الماء، وأرعى به الكلأ وأقضي الحاجة فإن كفيتني ذلك تركته "(1)، فالشعر يدخل في جزئيات الحياة عند العربي في الجاهلية، والبلاغة كما بيناها في هذا العصر كانت قدرة كامنة فطرية عندهم ملازمة للتواصل، والشعر شكل من أشكال هذا التواصل، سواء كان خاضعا للتداول اليومي أم كان متعديا نحو أغراض أخرى، مثلما نجد عديدا من القصائد تبدأ مطالعها بكلمة تتفق في جذرها اللغوي مع البلاغة كقصيدة اللقيط بن يعمر :

أبلغ إيادا وخلل في سراتهم إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا (2)

أو قصيدة ريطة أخت عمرو ذي الكلب :

أبلغ هذيلا وأبلغ من يبلغها عني رسولا وبعض القول تكذيب (3)

فالشعر كان الشكل الأبرز للتواصل من خلال هذه القدرة والملكة الفطرية وهي ملكة البلاغة.

ونجد عند أبي حيان التوحيدي(ت400هـ) كلاما ينقله عن ابن المقفع حول المعرفة الفطرية عند العرب ومن ضمنها فطرية الإجادة في الكلام :"...حتى إن

(1) عبد الكريم النهشلي القيرواني، الممتع في صنعة الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 1983م، ص:20.

(2) أبو الحسن البصري، الحماسة البصرية، تح عادل سليمان جمال، الخانجي، القاهرة مصر، ط1، 1999م، ص:280.

(3) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط 1، دت، ج 22، ص:507.

الرجل منهم وهو في فج من الأرض يصف المكارم فما يبقي من نعتها شيئا، ويسرف في ذم المساوئ فلا يقصر، ليس لهم كلام إلا وهم يتحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد، كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته وفكرته فلا يتعلمون ولا يتأدبون، بل نحائز مؤدبة وعقول عارفة"[1] فأغراض الكلام ومقاصده يبلغ فيها العربي الكفاية والنهاية فلا يقصر وهذا معنى كون البلاغة هي الكفاية وبلوغ المنتهى، وهذه الملكة فطرية يستخرجها فطنة دون تعلم وتكلف، ومن الواجب أن نشير إلى أنّ العرب لم يكونوا ذوي علم نظري وهندسة وكيمياء ... إنّما كانت عندهم المعرفة الفطريّة (ليست بدائيّة كما يصفها أصحاب الدراسات الحاقدة على العرب والإسلام) التي تجلّت في المعرفة اللسانيّة والملكة البلاغيّة الفذّة، وإنّ اتّساع معرفتهم باللغة ومقاصد الكلام وصوره جعلهم يبلغون رتبة عقليّة تضاهي فلاسفة اليونان وبالأخص شعراء العرب الذين كانوا في مرتبة أهل العلم والمشورة ؛ لأنّ الشّعر هو العلم، إنّ اللغة التي تجسّد المعرفة حقّا، ولا معرفة دون تجليها لغويا، ملّكها الله للعرب، وأعطاهم ناصيتها، ولما قامت حضارتهم كانت اللغة هي المساند القوي في بناء العلوم، وكانت البلاغة قمّة النتاج اللغوي النظري والإجرائي عند العرب، نتاجا متوافقا مع أصالة الفطرة العربيّة النقيّة، بعيدة عن رطانات العجم، وقريبة من دين الفطرة ديننا الإسلامي .

إذن في العصر الجاهلي كانت البلاغة ملكة ملازمة للتواصل لكننا نجدها تكتسب مواصفات أخرى منها الإمتاع بالقول والدفع نحو الفعل .

---

[1] أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط 1 2004، ص47.

نجد الإمتاع في نوادي الشعر عند العرب، وطربها لسماعه، وتغنيها به، وتسمية الأعشى بصنّاجة العرب، وقول حسان بن ثابت :

تغنّ بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار [1]

وليس من الغريب أن نجد ابن رشيق يخصص بابا للإنشاد، والحديث عن غناء العرب في جاهليتها ومرافقة الشعر له، بل وتأصيل الشعر منه، وما للغناء من أثر على فعل الإنسان وانفعاله .[2]

ونجد الدفع نحو الفعل في قصيدة اللقيط بن يعمر الإيادي –وليست الوحيدة إنما مثال عن غيرها- والتي دفع بها قومه لمجابهة كسرى وإبلاغهم ودفعهم نحو الفعل، وغيرها كثير كقصيدة عمر بن الكلثوم التي يقول عنها بعض الشعراء :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كـلثـــــوم

يروونها أبدا مذ كان أولهـــم يالـلــــرجـــــال لشعر غير مسؤوم[3]

ولم يكن الشعر لوحده دافعا نحو الفعل بل كانت الخطابة كذلك حاضرة، تمثل مجاري الإقناع في ملكة البلاغة والتواصل عند العرب، فقد وجدت الخطابة التي زاحمته وخالطته فأعطته من خصائصها الإقناعية وأخذت منه الطاقات التخييلية في سبيل الاستهواء، ونجد نصا جديرا بالاهتمام في البيان والتبيين يخص الشعر والخطابة

---

[1] ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تح محمد عبد الحميد محيي الدين، دار الطلائع، القاهرة، 2009، ج2، ص:272.

[2] ينظر :المرجع السابق، ص ص :270، 273.

[3] أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ج11، ص:36.

على السواء؛ إذ يذكر الجاحظ (ت255هـ):"وقال أبو عمرو بن العلاء :كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم .فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة، وتسرعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر ."[1]

هذا النص يبين وظيفة كلا الطرفين لكنه يخص الخطيب في التقدم لما ضاعت مصداقية الشاعر، وتفوق الشاعر على الخطيب يرجع إلى أسباب عديدة إذ كانت من لوازم السيادة والرئاسة وطريق لإقناع القوم وحملهم على الفعل أو تركه .

هكذا تتضح صورة البلاغة في الجاهلية باعتبارها ملكة فطرية لصيقة بالتواصل الذي أخذ شكلين : الإمتاع والإقناع، وهذان الشكلان بمقوماتها سيبرزان في الفترات اللاحقة وتخصص لكل منهم اتجاه، مع العلم بأنها قد يتداخلان كما نجد في عبارة صاحب الأغاني لما يذكر معلقة عمرو بن الكلثوم إذ يقول :"وكان قام بها خطيبا بسوق عكاظ، وقام بها في موسم مكة "[2]

---

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1 2010، ص:175.

[2] أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، إعداد مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان، ج11، ص:36.

وسنرى في مراحل قادمة للبلاغة تداخل الخطابي مع ما هو شعري لتصل إلى حد اعتماد أحدهما على الآخر ضرورة .

من جانب آخر نرى بأن البلاغة الغربية لا تبتعد كثيرا عن البلاغة العربية مع اختلاف الملابسات فإذا كانت ملكة البلاغة عند العرب تطورت من التواصل إلى الإمتاع والإقناع، وهذا ما يؤهل مكوناتها لاحتضان الأنواع، فإن البلاغة الغربية نشأت إقناعية محضة، ولا يعرف عما قبل الفترة الكوراكسية إلا شذرات حول الأصل اللغوي اليوناني لكلمة ريطوريق (Rhétoriké)يقول في هذا الصدد أوليفيي روبول Olivier Reboule:"البلاغة كما يؤكد ذلك رولان بارت نشأت من قضايا الملكية ونستطيع القول كذلك بأنها نشأت من الحرية "[1]

فالصراعات التي نشأت حول الملكية التي خلفها الغزو في صقلية هي التي دفعت كوراكس(Corax) وتيسياس(Tisias) إلى إيجاد طريقة تعليمية في أساليب المرافعة لاسترجاع الحقوق، في حين نجد البلاغة العربية تتأصل في فرعين (إن لم تكن هناك فروع أخرى ستظهر تباعا) شعري وخطابي منذ البداية، والبلاغة الغربية تأخرت دعوات إدماج الشعري والخطابي إلى فترات متأخرة من عهود البلاغة، بالإضافة إلى أن البلاغة الغربية نشأت خطابة والبلاغة العربية نشأت باعتبارها ملكة للتواصل إمتاعا وإقناعا وتشارك في الحياة العامة والخاصة، لسنا هنا في صدد المقارنة التي اعتاد عليها بعض الدارسين ليبينوا فضل ما هو عربي وسبقه بل نريد القول بأن ظروف النشأة تحمل جذور الاخلاف بين البلاغتين، مما يتيح للبلاغة العربية إمكانيات لا توجد في البلاغة الغربية، وهذا لا يزري بهذه الأخيرة ولا يحط من

---

(1) Olivier reboule ,la rhétorique ,puf paris france,1er edition 1986,p:9 .

قدرها، فمثلا كانت الأسس الإقناعية والشعرية في بلاغتنا العربية فطرية ضمنية في المرحلة الأولى (الجاهلية خاصة)، في حين نجد البلاغة الغربية تحظى بالتأسيس والتقنين منذ أول مرحلة لها، أما ما يذكر عن الفترة السوفسطائية فلا تعدو كونها رافدا أو عاملا في هذه البلاغة، وليس أصلا للنشأة، أو صورة نبني عليها تصولا للدرس البلاغي والأكيد أن الصراع الفلسفي / السفسطائي جعل من البلاغة الغربية إقناعية حجاجية[1]، ومن المبكر التطرق لهذه القضايا لأننا لم نلج بعد قضية الحجاج والتخييل في البلاغة العربية .

وقضية كون بدايات البلاغة العربية كانت معرفة فطرية كامنة عند العرب في إنشاء الكلام هو مفهوم بلاغي ينبغي استثماره لفهم جذور بلاغتنا فمحمد العمري يشير إلى أن البلاغة بلاغتان ؛ إذ يجعل المفهوم الأول خاصا بالبلاغة باعتبارها كفاءة تعبيرية، والمفهوم الثاني باعتبارها علما واصفا لهذه الكفاءة .[2]

ونحن نقف مع محمد العمري في هذا التقسيم ونشدد على أهميته لكننا نأخذ به في رصد تاريخ البلاغة العربية وعدم جعل المفهوم الأول موضوعا للثاني وحسب بل وأصلا له ستتحدد أهم معالم الثاني من خلاله .

---

[1] ينظر :هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، كلية الآداب منوبة من ص:49 إلى ص:89.

[2] ينظر محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2013، ص:18.

ب-البيان القرآني والمساءلات البلاغية الأولى :

بعد أن بينا جذور البلاغة العربية وأصولها في الجاهلية، نقف الآن على عتبة مهمة في التاريخ العربي، وتاريخ العربية ؛ تتمثل في ظهور الإسلام، ونزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا البيان القرآني الذي وصل إلى أسماع العرب، فأدركت بسليقتها، وفطرتها اللغوية والبلاغية أنه خارج عن مستوى نظمهم؛لا يشابهه، ولا يستطيعون له نظيرا، وقد تحداهم إلى ذلك فلم يأتوا بالبينة وذهبوا إلى سبيل الحرب والمقاطعة .

قال الله تعالى : ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾[البقرة، الآية:23-24]

فالرّيب الذي وقع فيه العرب المشركون، وتشكيكهم في نبوّة الرّسول صلى الله عليه وسلّم، لا يدفعه سوى هذا التّحدّي الصّريح بالإتيان بسورة من مثله في مستوى نظمه وعبارات وتآلف وتلاؤم حروفه وكذا الحقائق التي يعرضها في خطابه، فكان العجز منهم، ليس لأنّه استخدم مفردات غير مفرداتهم أو تراكيب على غير ما عهدوه، بل لمزايا وخصائص أخرى، وكما بقول الخطّابي :" واعلم أنّ القرآن إنّما صار معجزا لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمّنا أصحّ المعاني "[1]

وهذا التّحدّي يستدل على عجز العرب أمامه بأنّهم لجؤوا إلى السلاح والمقاطعة وسفك الدّماء وطرق هي أشق عليهم مما لو قدروا على معارضته لأبطلوا حجّة صاحبه وأنهوا دعوته .

[1] الخطابي، بيان إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة – مصر، ص : 27.

وقال كذلك : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّـهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّـهِ وَأَن لَّا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[هود، الآية :13-14]

فالمشركون من قريش لما سمعوا القرآن الكريم كانت لديهم معايير بلاغية فطرية يعرفون من خلالها محل الجودة والجمال والبلاغة في القول ومن البلاغة ما يكون دليلا على صدق صاحبه، ونجد في الأثر ما يدل على ذلك فنجد عند الباقلاني "ما روي في الحديث أن جبير بن مطعم ورد على النبي صلى الله عليه وسلم في معنى حليف له، أراد أن يفاديه، فدخل والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴾[الطور، الآية :1-2] في صلاة الفجر، قال فلما انتهى إلى قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾[الطور، الآية :7-8]، قال:خشيت أن يدركني العذاب .فأسلم .وفي حديث آخر :أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع سورة طه فأسلم "[1]

من خلال تعريجنا على هذا النص، وعلى موقف العرب من القرآن الكريم، وهو موقف الانبهار وكذلك موقف يكشف عن معرفة العرب بأنه نص خارج عن نطاق قدرتهم، رغم أنه يلتقي مع أساليبهم، لكنه يفوقها، ونحن نريد الفحص عن المعيار الذي احتكموا إليه للوصول إلى هذه النتيجة التي نجدها معبرا عنها فيما نقل إلينا من مواقفهم، وهذا المعيار لا شك أنه ذو علاقة وشيجة بالملكة التي تحدثنا عنها، لكن في هذا المنعرج هي ملكة فاحصة، ووصفية للكلام المنتج، وليست ملكة لإنتاج الكلام إقناعا وإمتاعا، هذه القدرة النقدية الواصفة مارستها العرب في الموازنات

[1] الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة مصر، ط 7، 2009، ص :27.

الشعرية التي كانت تجري بعكاظ تحت إشراف النابغة، وأخبار حكومته بين الشعراء ذائع صيتها، لكن ههنا نجد الأحكام الواصفة للغة، وأساليبها ليست بين شاعرين[1]، بل بين نصين من مصدرين مختلفين، ويسعى المتلقي للفحص عن أسباب جودة الثاني وتفوقه على الأول .

إن الأسئلة التي طرحت ضمنيا في قرارات العرب الذين سمعوا القرآن الكريم، تتوزع بين أسئلة عقائدية، ومعرفية، لكن أهم سؤال هو السؤال البياني، والأجوبة التي تحصل عليها العرب تمكننا من الكشف عن المعيار الذي احتكموا إليه في تبيان علو القرآن الكريم وتفوقه على ما ألفه العرب من شعر، وخطب، وسجع كهان، وهذا المعيار الذي نتكلم عنه هو أول خطوة في الوعي بالبلاغة باعتبارها معرفة فاحصة وعلما وصفيا من شأنه التأطير النظري للملفوظ تخييلا وتداولا، ففي الفترة الجاهلية كانت البلاغة ملكة إنشائية منتجة للكلام المخيل أو المقنع، لكن مع نزول القرآن الكريم، ومساءلة العرب، واحتكامهم ضمنيا إلى معيار معين، نجد أن هناك جانبا آخر من البلاغة نشأ وهو جانب البلاغة باعتبارها علما واصفا .

وفيما يخص المعيار الذي تكلمنا عنه، فهو مركب من معطيات المعرفة اللغوية، والأدبية للعرب، ونستطيع العثور على هذا الأمر في أقوال العرب، وموقفهم من القرآن الكريم، ونحن مصرون على النظر في نشأة البلاغة من صميم المحيط الذي نمت فيه، بعيدا عن تأثيرات العصور الموالية ؛لأننا ألفنا الرأي القائل بأن الدرس

---

[1] نجد محمد العمري يجعل من النقد أحد الروافد التي ساهمت في بناء الدرس البلاغي العربي ويجعل الوعي بالخصوصية بلاغة أما الإجراء فهو نقد، ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق .

الإعجازي، بعد ما أحدثه القرآن الكريم، هو الذي أسهم في إذكاء جذوة الدراسات البلاغية، لكننا نتناسى الأسئلة التي بنت هذا الدرس الإعجازي من أول تلقي للعرب، وسماعهم لهذا القرآن الكريم .

يمكن العثور على جوانب هذا المعيار الذي احتكموا إليه، من خلال العودة إلى النصوص الناشئة عن الفترة التي مثلت الاحتكاك الأول بين العرب، والقرآن الكريم، وحيرتهم الشديدة إزاءه .

فمن بين أهم النصوص المتداولة في حديث الإعجاز ما روي عن رأي الوليد بن المغيرة، "فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم:شاعر، وقال بعضهم كاهن، وقال بعضهم:ساحر، وقال بعضهم :مجنون، فكان يرى هذه الأقوال ويفندها ثم قال :والله إن لقوله حلاوة وأن عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يعلى عليه "[1]

إن الاضطراب الذي وقع فيه العرب لما سمعوا القرآن الكريم يكشف عن جزء من المعيار الذي تحدثنا عنه، فقد أرادوا نسبة القرآن الكريم إلى أقوال الكهان وإلى الشعر فأول ما قم به العرب البحث في الأنواع التي سبق وأن تلقوها وحكموا عليها بخصائصها، لكن يبدو أن هذه الأنواع لا يمكنها أن تحمل الخصائص الموجودة في القرآن الكريم، ولهذا يأتي رأي الوليد بن المغيرة ليحدد مواصفات النص القرآني كما تلقاه من حلاوة وطلاوة وعلو، فالخاصيتان الأولى والثانية تشتركان في ميزة الاستهواء، والجذب، والتأثير على السامع، أما الخاصية الثالثة وهي ما عبر عنه بالعلو

[1] فاضل صالح السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، عمان الأردن، ط8، 2012 .ص:8.

فهي الميزة الإقناعية التي تجعل من القرآن الكريم خطابا موجها للعقل يصارع ماضي الأفكار ويصحح الاعتقادات .

ونجد نصا آخر نلتمس من خلاله ما تبقى من المعيار الذي تلقى العرب من خلاله القرآن الكريم، ونسوق ما أورده السامرائي ناقلا إياه عن ابن كثير وابن هشام:"كان كل من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس بن شريق يأخذ نفسه خلسة لسماعه (القرآن) في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض:لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا .حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض :لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا "[1]

وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿**نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا**﴾[الإسراء، الآية :47].

فبعد أن رأينا الجزء الأول من المعيار الذي تلقى به العرب القرآن الكريم وهو عرضه على الأنواع التي سبق وأن تلقوها، نجد في هذا النص ومن خلال الإشارة القرآنية فعالية سحر البيان والاستهواء، فعجزهم ثلاث مرات عن مقاومة سماع القرآن يعد طاقة جذب غير عادي وآثرنا كلمة طاقات الجذب وسحر البيان عوض

---

[1] المرجع نفسه، ص:8.

الاستهواء لأنها لا تتلاءم مع المعجم القرآني الذي اقترنت فيه بشحنة سلبية، ونجد السيّد قطب رحمه الله قد تحدّث عن سحر البيان في القرآن خاصة في السور القلائل الأول التي نزلت في مكّة قائلا :" لا بدّ إذن أنّ تلك السّور القلائل كانت تحتوي على العنصر الذي يسحر المستمعين ويستحوذ على المؤمنين والكافرين "[1] .

وقد اختلف الجمع من العلماء والدارسين فيما بهرهم وأعجزهم ولكن الأكيد أنّ هذا أكد لهم أن القرآن الكريم له من الطاقات البيانية ما يجعل كل العرب يتبعون أمر هذا الدين والرسول صلى الله عليه وسلم ما كانت بيده معجزة أكبر من معجزة القرآن الكريم .[2]

وقد حاولت قريش أن تجابه هذه الطاقة الموجودة في القرآن الكريم بأسلوب مشابه لما هو فيه، مما يكشف عن فهم العرب للاستراتيجيات الموجودة في القرآن الكريم، والتي من خلالها يجذب أسماع المتلقين، ويتمكن من التأثير عليهم، وإذا رجعنا إلى قوله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّـهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ** ﴾[سورة لقمان، الآية :6]

فيذكر القرطبي(ت671هـ) أنه :"قيل :نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب الأعاجم:رستم واسفنديار فكان يجلس بمكة، فإذا قالت قريش إن محمدا قال

---

[1] سيّد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، ط 17، ص : 17 .

[2] نستخدم مصطلح الآية والمعجزة والتحدي دون تفصيل في الفروق أو الملابسات التاريخية حتى نصل إلى أواخر القرن الأول والقرن الثاني .

كذا ضحك منه، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ويقول حديثي هذا أحسن من حديث محمد"[1]

وهنا تظهر فعالية السرد، وقدرتها على الاستهواء، وتفطن السليقة العربية لهذا الدور الذي تؤديه، مع أنّ هناك دارسين يزعمون بأنّ العقليّة العربية لا تعرف من السّرد إلا أقلّه، ونقول نحن بأنّ السّرد فعالية ضمنية في أدبنا القدين نجدها حاضرة ولكن بلاغتنا بإيجازها تقتضب السرد وتترك للمتلقي حريّة مركزية وليست هامشية في تطوير أحداثه وهذا ما نجده في الشعر والمثل، بالإضافة إلى الشعر والخطب، فالقص بما يحتوي عليه من احتواء زمني، واستبداد بالتخييل من خلال فعاليات الوصف الغرائبي، والمعتمد على النادرة والخبر العجيب، كان في رأي المشركين، من شأنه أن يصرف أسماع العرب عن القرآن، وكانوا يعتمدون على فعاليات السرد لمجابهة النص الجديد الذي سيقلب حياة الجاهلية ونظامها، وقد تنبه الجاحظ(ت255هـ) بعد قرنين إلى تلازم الإقناع مع السرد، مما جعل محمد مشبال يتخذ في دراسته له اتجاها يقر "بأن ثمة تلازما بين التصوير والحجاج ليس في أدب الجاحظ فقط ولكن في مطلق النصوص الأدبية "[2] .

ما نلاحظه كذلك، هو العنصر الإقناعي الذي يحويه النص القرآني، وهو ما جعل مشركي العرب في صراع مع استدلالاته، وحججه الساطعة البراهين؛إذ يطالبهم في كل مرة بالبرهان، هذا ما سيدفع بالخطابة العربية، وكذلك الشعر إلى اتخاذ

---

[1] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، المكتبة التوفيقية، القاهرة مصر، ط10، 2012، ج 14، ص:38.

[2] محمد مشبال، البلاغة والسرد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان المغرب، 2010، ص:6.

وسائل الحجاج مطية للدفاع عن المواقف.ولنا عودة إلى الحديث عن الحجاج والإعجاز القرآني لما ستحتضن الدراسات الإعجازية درس البلاغة العربية .

من خلال ما سبق، نرى بأن البلاغة تشكلت عند العرب في العصر الجاهلي؛باعتبارها ملكة فطرية متصلة بفعالية الاتصال، فكانت ملكة تظهر في إنتاج الكلام إمتاعا وإقناعا، ولما ظهر الإسلام، ونزل القرآن الكريم تحولت هذه الملكة إلى وظيفة الوصف، بالاعتماد على النصوص السابقة، ومقارنة النص القرآني بها، وكذلك محاولة مجابهة القرآن الكريم بعد أن أدرك العرب قدرة كامنة فيه لها طاقة الجذب واستلاب السامع نحوه .

هذه الفترة الممتدة من الجاهلية إلى نزول الوحي، فترة مهمة في التأريخ لبلاغة العربية؛ لأنها لم تأت من عدم، وأصول الحجاج والشعرية وحتى السرد موجودة في أصل الملكة الفطرية المنتجة، والواصفة وهذا ما ستعمل العصور القادمة على اكتشافه وتنميته وإخراجه في شكل نظرية بلاغية متعددة المشارب والاتجاهات.

والفترة التي تلي نزول الوحي مما يصطلح عليه بصدر الإسلام نجد مع كل خليفة وصحابي موقفا بلاغيا في فهم القرآن الكريم، وفي إسلام من يتعرض لسماع كلام الله تعالى، بل إن هذه الفترة كانت ميدانا لتطور الجانب الإقناعي في الخطابة العربية مما سيمد الدرس البلاغي المعتني بهذا الجانب بمادة تمكنه من استنباط خصائص الحجاج في الخطابة العربية، وما سيأتي من صراعات في عهد عثمان، واختلافات حول فهم النص القرآني، والخلافات السياسية، والعقدية في العصر الأموي، سيذكي نيران المساءلات البلاغية، ويدفع نحو التأسيس للعلوم اللغوية

العربية، ومن بينها البلاغة، لتظهر مع مصطلحات أخرى بتعريفات متنوعة غير محددة، شأنها في ذلك شأن العلوم الحادثة في بداية نشأتها الأولى .

ج-تطور البلاغة العربية والانتقال من الملكة الفطرية إلى العلم الواصف :

خلال العصر الأموي نمت مؤهلات البلاغة العربية وكذلك توسعت طاقات اللغة العربية جراء الحوادث الطارئة، ونحن نسلط الضوء على الصراعات السياسية التي برزت في العصر الأموي وكانت السبب الرئيس في بروز الخطابة كفن للتوجيه والإقناع يتمسك كل طرف بحججه ويدافع عن موقفه السياسي هذه المادة الخطابية التي سيستثمرها بلاغيو القرن الثالث لتأسيس اتجاه بلاغي ترك بصمته في بلاغتنا .

ومحمد العمري لما خصص الفصل الثاني من مؤلفه في بلاغة الخطاب الإقناعي لدراسة مقام الخطاب في القرن الأول الهجري تحدث عن مقامات وأحوال الخطب بين الوعظ والسياسة، واستنتج في مقامات الخطابة السياسية نوعين أحدهما الخطب المتعلقة ببناء الدولة وإرساء أركانها وخطب الصراع حول الحكم [1].

ويصنف الخطابة السياسية إلى نوعين حسب نوعية العلاقة بين المتحاورين :

- حوار بين الأنداد .
- حوار ين الراعي والرعية .

---

[1] ينظر :محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء، ط2، 2002، ص ص :50، 57

والملاحظات التي أوردها العمري في غاية من الأهمية لأن الظروف التي أحاطت بفن القول عموما هي التي أعطته القالب الإقناعي والجدلي الذي نراه بارزا في الخطابة ومقنعا بالتخييل في الشعر السياسي مفعما بالعصبية والشعبية في النقائض .

إن النص في العصر الأموي هو الذي حمل الخصائص التي ستؤهل الدرس البلاغي العربي لبناء أصوله النظرية إقناعا وتخييلا، لأننا نجد بلاغيي العصر العباسي يعتمدون على الميراث الأموي خاصة الاتجاه الذي اهتم بفعاليات الخطاب الإقناعي فأغلب معتمداته النصية مبنية على العصر الأموي، وهكذا نجد بأن هذا العصر له أثر بارز على أحد أهم اتجاهات البلاغة العربية، ولما يشارف العصر الأموي على الانتهاء يكون أمامنا مجموعة من الحوادث والتغيرات البارزة على المستوى العقائدي والمعرفي واللغوي ستؤثر في ظهور اتجاهات الدرس البلاغي العربي وتخطط معالم وجهه .

وسنحاول تلخيص هذه الظروف والعوامل التي أحاطت بالدرس البلاغي وأثرت في نشأته مع بدايات العصر العباسي .

1- الخلافات العقدية والجدل الكلامي:

نجد نصا مميزا عند البغدادي(ت429هـ) يعرض من خلاله كيفية اختلاف الأمة، إذ يقول :"كان المسلمون عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه، غير من أظهر وفاقا وأضمر نفاقا "[1]

ثم يورد البغدادي خلافات جرت بين الصحابة رضوان الله عليهم وهذا لا يغطي الفترة التي نحن بصددها إلى أن يصل إلى قوله :"ثم اشتغلوا بعد ذلك بقتال

[1] عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، دار ابن حزم، بيروت لبنان، ط1 2005، ص:14.

الروم والعجم، وفتح الله لهم الفتوح، وهم في أثناء ذلك على كلمة واحدة، في أبواب العدل والتوحيد، والوعد والوعيد، وفي سائر أصول الدين، وإنما كانوا يختلفون في فروع الفقه [...]ثم اختلفوابعد ذلك في شأن علي وأصحاب الجمل [...] ثم حدث في زمن المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني وغيلان الدمشقي، والجعد بن درهم، وتبرأمنهم المتأخرون من الصحابة، ثم اختلفت الخوارج بعد ذلك فيما بينها [...]ثم حدث في أيام الحسن البصري خلاف واصل بن عطاء الغزال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين، وانضم إليه عمرو بن عبيد فطردهم الحسن عن مجلسه، فاعتزلا إلى سارية من سواري مسجد البصرة فقيل لهما ولأتباعهما :معتزلة " [1]

هذه الاختلافات التي عاشها الفكر الإسلامي، وعايشتها الأمة العربية الإسلامية، أثرت على اللغة العربية، وكذلك على العقلية المبدعة في هذه اللغة، ودخل تأثيرها على أحد أهم اتجاهات البلاغة العربية، وهو الاتجاه الإقناعي / البياني والاتجاه الإعجازي النصي ؛ لأن من مثل هذا الاتجاه كان في الأغلب ينتمي إلى فرقة كلامية، وعلم الكلام حجاج عن العقائد الدينية بالأدلة العقلية والمنطقية.

ليس هذا وفقط بل إن الصراعات الكلامية كانت قد اتخذت القرآن الكريم محورا تدور حوله مسائلها وهذا الجدال الدائر حول القرآن الكريم يمكن تقسيمه إلى :

- جدال حول مضامين القرآن وأحكامه .
- جدال حول القرآن الكريم باعتباره معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم .
- جدال بين القرآن الكريم والأفكار الأجنبية .

---

[1] المصدر نفسه، ص :17.

والجدال الثاني هو الذي دفع بلاغة الإعجاز، وتفرعت عنه العلوم التي تهتم بوجوه البراعة في القرآن الكريم والتفوق على ما عداه من المنجزات اللغوية، وسيتطور منه اتجاه نشأ من التنقيب والبحث في أسباب التفوق بجانب البحث عن الأسلوب والنظم ليكون بلاغة نصية، تهتم بجزئيات النص القرآني وتناسب آياته، وأسماء سوره مع مقاصد أحكامه، بل وتبحث عن الانسجام والاتساق والمناسبة بين آخر السورة، وبدايتها، بل نجد من يجعل هذا الأمر مدار البحث الإعجازي، وهذا ما يقرره السيوطي (ت911هـ)، وينقل عن غيره ما يثبت ذلك، فأبو بكر النيسابوري الذي كان كثير العلم في الشريعة والأدب، كان يزري على علماء بغداد عدم علمهم بالمناسبة، وينقل السيوطي قول "الإمام الرازي في سورة البقرة :ومن تفكر في لطاف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته"[1].

والبحث في التناسب بين سور القرآن الكريم وآياته، من ناحية اللغة والمقام الذي نزلت فيه، اهتم به أحد الروافد المهمة في نشأة الدرس البلاغي، وهو درس التفسير، وعلومه التي انصب اهتمامها على القرآن ونشأت منه، والذي يرجع إلى كتب علوم القرآن سيجد بأن أكثر من نصف هذه العلوم ترجع إلى الدرس اللغوي والبلاغي، أو في أحسن الأحوال ترجع إليهما في ضبط نتائجها وتحقيق مبادئها .

كذلك نجد علم الكلام والصراعات العقدية والسياسية التي أشار البغدادي سابقا إليها قد ساهمت في دفع اتجاه بلاغي معتبر وهو الاتجاه الإقناعي البياني، ويربط

---

(1) جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1988م، ص:44

محمد العمري بين البيئة الكلامية وتنامي مباحث الإعجاز والمجاز؛لأن كلا منهما كان يدخل ضمن الجدل القائم حول حجج النبوة وحجج القرآن وأنه مباين لكل نص بالتحدي .[1]

والمتكلمون حملوا راية الدفاع عن العقائد الإسلامية، فرجعوا إلى القرآن الكريم، وبينوا الأسس العقلية التي بني عليها هذا النص، "وستستفيد البلاغة العربية من ذلك فائدة كبرى وستكون بيئة المعتزلة خاصة والمتكلمين عامة إحدى البيئات الرئيسية التي ينشأ في ظلها التفكير البلاغي ويترعرع "[2]

لن نحاول استقصاء تاريخ علم الكلام، ولا الفرق الإسلامية، لكننا نبحث عن تأثير هذه الظروف في تدعيم البحث البلاغي، وتطويره، وسنرى بأن كل عامل من العوامل، أثر في ظهور اتجاه بلاغي معين مع وجود مناطق اشتراك في التأثير والتأثر .

وللاعتزال أثر واضح على هذا الدّرس، و" إنّ اهتمام المعتزلة بالبلاغة منبعث من طبيعة مذهبهم الذي قام في كثير من الأحيان على الكلام المتمثّل باللغة خطابة وجدلا ومناظرة "[3]

لكننا لا نستطيع أن نسلّم بأنّ المعتزلة هم من وضع أصول الدّرس البلاغي، لأنّنا نجد اتجاهات بلاغية يتضاءل فيها أثر الاعتزال ومنها بلاغة الاختيارات الشعرية

---

[1] ينظر : محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2013، ص:115.

[2] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط3، 2010، ص:35

[3] محمد هيثم غرّة، البلاغة عند المعتزلة، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط1، 2009م، ص 95.

وكذلك الشروح الشعريّة النصيّة التي لم يتناولها سوى قلة بالدّرس والاهتمام بالجوانب البلاغية التي تحويها .

2- تطور البحث اللغوي وتأسيس النظرية اللغوية العربية :

مع نهاية العصر الأموي، وبداية العصر العباسي، كانت الحاجة ملحة لجمع اللغة، ورصد الفصيح منها، وجمع الأشعار ذات العلاقة بالمفردات القرآنية، وتأسيس المعجم العربي ؛أما تقعيد اللغة فقد كان واجبا يمليه الشرع، ومن أولويات الحاكم مثلما تدل المصادر في رواية قصة نشأة النحو العربي .[1]

وازدهرت سوق اللغويين والنحاة، وبدأت تظهر معالم الاتجاهات اللغوية والنحوية، بفضل الصراعات التي كانت تحكم منطق المدارس النحوية وأعلامها، والمناهج التي اتخذوها مطية لتقعيد اللغة، لكن ما يهم هو علاقة ذلك بالدرس البلاغي، واتجاهاته التي ستثمر فيما بعد، لأننا نجد النحو باعتباره:"علما يستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب "[2] ، فإنه يهتم بمعايير الصحة، والسلامة اللغوية في مستوى التركيب، وهذا ما نجده عند سيبويه عندما يحكم بالاستحالة على

---

[1] ينظر :محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط1، 2005، ص ص:13، 14.

[2] محمد بن الطيب الفاسي، فيض نشر الإنشراح من روض طي الإقتراح وفي أعلاه الإقتراح في أصول النحو وجدله للسيوطي، تح محمد يوسف فجال، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي الإمارات العربية المتحدة، ط2، 2002، ص:237.

كلام منافٍ لمرجعية الواقع، في قوله :"أما المحال الكذب فأن تقول :سوف أشرب ماء البحر أمس"[1]

هذا الاهتمام الذي أولاه علماء النحو للدلالة نجده في عديد من المواضع، وهذا ما جعل أصول البلاغة تتماس مع مباحث النحو وتأخذ بطرف منها، والنحويون كما هو معلوم اتخذوا من بين ما اتخذوه، المدونة الشعرية نصا لأصل سماعهم الذي وثقوا به قواعد العربية، و"في الشعر تصبح الكلمات غاية في ذاتها، ولأجل ذلك كان التركيز فيه على النسيج اللفظي الذي يملك نوعا من السحر أو الإشعاع "[2]

ولذلك يقوم الشعر باختراق قواعد يهتم النحو بترسيخها فإذا كان النحو العربي يؤسس قواعده على أصل السماع أولا –وليس آخرا– ويمثل الشعر في هذا الأصل حصة لا يستهان بها فكيف تعامل النحاة مع انحراف الشعر عن هذه المعايير؟

ههنا نكتشف السؤال البلاغي الذي أسهم النحاة واللغويون، من خلاله، في تنمية جزء لا يستهان به من أجزاء اتجاه بلاغي عريق الصلة بالفن الشعري، "ولا شك في أن إدراجهم القرآن والشعر في عداد المصادر اللغوية قد نبههم إلى بعض خصائصهما النوعية ودفعهم، في نطاق مشاغلهم النحوية، إلى جملة من الملاحظات

---

[1] سيبويه، الكتاب، تح عبد السلام هارون، دار التاريخ بيروت لبنان، ص:49.

[2] محمد مشبال، البلاغة والأصول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2007، ص:30.

البلاغية المفيدة خاصة وأنها يخرجان عن معهود الكلام ويستعملان اللغة استعمالا خاصا لمقاصد فنية واضحة "[1] .

إذ نجد علماء النحو واللغة أرجعوا كل مالا يتوافق مع القوانين النحوية المستنبطة من استقراء كلام العرب (المنثور والشعري)، إلى أمرين هما :التوسع والضرورة، وما سمي عند البعض الآخر بالمجاز، لأنهم كانوا مضطرين إلى مجابهة مسألة كانوا على وعي كبير بها ؛ فالشعر كلام مباين للكلام العادي على المستوى الأسلوبي، وهي الحقيقة التي عبر عنها كوهن بقوله :"سوف نعتبر إذن اللغة الشعرية ظاهرة أسلوبية بالمعنى العام للمصطلح، القاعدة العامة التي سيبنى عليها هذا التحليل هي أن الشاعر لا يتحدث كما يتحدث كل الناس وأن لغته غير عادية "[2]

ويقول محمد العمري في هذا الصدد :"وبذلك قبل النحاة مقاسمة المكان مع البلاغة حيث خرج أول جيل بلاغي من صفوف اللغويين .فكان من أوائل الأماكن التي احتلتها البلاغة سكنا مؤقتا :مجاز القرآن وضرورة الشعر [...] وهذه أول لبنة قوية نظرية في البلاغة العربية، بلاغة الشعر، أو الشعرية "[3]

ولو رجعنا إلى النصوص الأصلية، لوجدنا الخبر يقينا، فسيبوية يقول في باب خصصه لحالة الشعر تحت مسمى :"هذا باب ما يحتمل الشعر " إذ يقول :

---

[1] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط3، 2010، ص:47.

[2] جون كوين، بناء لغة الشعر، ت أحمد درويش، دار المعارف القاهرة، ط3، 1993، ص:24.

[3] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2013، ص:113.

"اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، يشبهونه بما ينصرف من الأسماء، لأنها أسماء كما أنها أسماء "[1]

إذن، فللشعر قوانينه، والواجب على النحو أن يأخذها بعين الإعتبار، هذا الأمر جعل المباحث البلاغية تتنامى عند النحويين ومن أمثلة ذلك ما نجده في الكتاب:"هذا باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام، والإيجاز والاختصار :[...]، ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى جده : ﴿**وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ [2][يوسف، الآية :82]، إنما يريد أهل القرية فاختصر وعمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان هنا ومثله ﴿**مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**﴾، إنما المعنى :بل مكرهم في الليل والنهار "[3]

وتوجد نماذج أخرى، توضع تحت باب الاتساع والضرورة، وهو المجال الذي فتح للشعراء وللغتهم التي تعدل عن القاعدة المتداولة لتأسس لنفسها اتجاها جديدا يضطر النحو/ القاعدة الصناعية، أن تأخذه بعين الاعتبار، ونجد مصطلحا آخر، نما عند اللغويين الذين اشتغلوا بالقرآن الكريم، ثم أخذ هذا المصطلح طريقا آخر مع الدراسات الإعجازية وهو مصطلح المجاز .

3- فهم القرآن الكريم وأسئلة الإعجاز:

تتفق المصادر على أن القرآن الكريم لما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، وتلقاه أهل ذلك العصر، فهموه دون اللجوء إلى قواعد، ونظريات وآليات مكتسبة

---

[1] سيبويه، الكتاب، ج 1، تح عبد السلام هارون، دار التاريخ، بيروت لبنان، ص:49.

[2] يوسف :82.

[3] سيبويه، الكتاب، ج1، تح عبد السلام هارون، دار التاريخ، بيروت لبنان، ص : 194.

؛لأن الفطرة كانت سليمة حينئذ، يقول محمد سعيد رمضان البوطي :"مزيتان اتصف بهما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم اختفتا تدريجا من العصور التالية، [...] هما اللتان أغنتا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا سيما في الصدر الأول، عن الاحتكام إلى أي منهج علمي يتبع [...]، هاتان المزيتان هما :

أولا – السليقة العربية الخالصة عن شوائب العجمة .

ثانيا – الفطرة الإسلامية النقية، الداعية إلى التسليم ."[1]

هذه المعطيات تغيرت مع تقدم العهد خاصة وأن المسلمين (العلماء منهم) وجدوا أنفسهم في مواجهة عقائد وحوادث متجددة توجب عليهم النظر في القرآن الكريم نظرة استنباط واجتهاد ونظرة تبرير ودفاع .

وهذا العامل من العوامل في نشأة الدرس البلاغي العربي، يبين فعالية الفهم، والإفهام، والإقناع باعتبارها أجزاء قارة في البلاغة العربية، لأننا عندما نقرأ مشاريع كل من الجاحظ (ت255هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت466هـ) والقرطاجني (ت684هـ)، وغيرهم ستواجهنا قضايا تمتد جذورها إلى هذه العوامل التي كانت في القرن الأول والثاني الهجريين، ونجد علماء المسلمين بدأت تتنامى عندهم ملكة الاستنباط، وممارسة عملية الفهم على النصوص القرآنية، بالاستعانة بالإستراتيجيات

[1] محمد سعيد رمضان البوطي، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق سوريا، ط 12، 2014، ص:37.

اللغوية كما هو الحال عند الشافعي(ت204هـ) في الرسالة، لما يتحدث عن البيان وأصنافه. [1]

وأصبح التفسير تتنازعه الأهواء والنحل، فنجد ابن عباس يرجع إلى ديوان العرب، لمعرفة المقاصد، والمعاني، وتابعه في ذلك الفراء، فلا يحقق معنى من المعاني إلا وأورد عليه بيتا من أشعار العرب، يستشهد به ويتخذه عمدة في إصدار تفسيره والإعلان عن رأيه إزاء آية قرآنية .

هذا العمل له أهميته من وجهة نظر بلاغية، فالنص يتعانق مع نصوص سابقة، وتحدد معانيه بالرجوع إليها ؛ لأنها ذخيرة اللغة، وإذا قيل لغة العرب، فالمقصود كذلك شعرها، ولفهم القرآن واستنباط الأحكام منه، ينبغي معرفة خصائص هذا اللسان الذي يأخذ منه الشعر مكانة مميزة صبغت خصائص هذه اللغة، والأصوليون الأوائل تنبهوا لهذا الأمر، يقول الشافعي :"وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره :لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرقها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها .[...]فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يراد به العام الظاهر ويستغني بأول هذا منه عن آخره وعاما ظاهرا يراد به العام ويدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه وعاما ظاهرا يراد به الخاص وظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به غير ظاهره فكل هذا موجود

---

[1] ينظر : الشافعي محمد بن إدريس، الرسالة، تح أحمد محمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة مصر، ط3، 2005، ص:111.

علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره [...] وتسمي الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة وتسمي بالاسم الواحد المعاني الكثرة هذه الوجوه التي وصفت اجتماعها في معرفة أهل العلم منها به وإن اختلفت أسباب معرفتها معرفة واضحة"(1)

فما نجده عند الشافعي، هو كلام عن خصائص هذه اللغة، وهي خصائص غير اعتيادية، لا يمكن أن توجد في الكلام العادي، ووجودها في كلام العرب دليل على شدة ارتباط التداول بالتخييل، وهذه مسألة نناقشها في الحديث عن كليات البلاغة العربية، كذلك بحث الشافعي في هذه الخصائص النوعية (الأسلوبية)للعربية ضرورة لا مفر منها لفهم القرآن الكريم، ولهذا كان وضعها واحتسابها ضمن العوامل المهمة في نشأة الدرس البلاغي، والتأثير في تياراته، يكتسي أهمية مضافة .

وظهر مصطلح المجاز عند أبي عبيدة(ت209هـ) لكنه يحمل مفهوم التوسع وطرق الخطاب أو كما قال فؤاد سزكين محقق الكتاب :"كلمة المجاز عنده عبارة عن الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته، وهذا المعنى أعم بطبيعة الحال من المعنى الذي حدده علماء البلاغة لكلمة المجاز فيما بعد"(2) فلا نجده يحمل المفاهيم التي سنجدها عند اللاحقين، فالمجاز عنده أقرب لمسالك الخطاب، وطرق تأدية المعنى من اختصار، وحذف وغيرها، وقد علق العمري على عمل أبي عبيدة قائلا:"بعد عملية استقصاء للأمثلة الدالة، (بغض النظر عن الشروح المعجمية عن طريق المرادف أوالتفسير)بدا لنا أن إشكالات المجاز عند أبي عبيدة تندرج في الخانات التالية :

---

(1) الشافعي محمد بن إدريس، الرسالة، تح أحمد محمد شاكر، مكتبة دار التراث، القاهرة مصر، ط3، 2005، ص ص:134 135.

(2) محمد فؤاد سزكين، مقدمة تحقيق مجاز القرآن لأبي عبيدة، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ص:19.

1- تداخل الضمائر وتبادلها المواقع

2- اختلاف أوجه الإعراب والقراءات

3- استعمال اللفظ في غير موقعه المتوقع ومخالفة ظاهر القول .

4- الزيادة والنقصان في تركيب الكلام .

5- النقل والإلحاق الدلالي .[1]

ومع أهمية العمل الذي قدمه أبو عبيدة خاصة من الوجهة الأسلوبية في رصد أشكال العدول التي تميز القرآن الكريم ؛ إذ حاول الرجل تقديم تفسير لقرآن الكريم، وفهما مغايرا لطبيعة تفاسير عصره، والدليل على ذلك سخط غيره من العلماء عليه، وعدم رضاهم على صنيعه، وليس ذلك إلا لأن الإمكانات اللغوية جعلت أبا عبيدة يتلقى القرآن الكريم، ويفسره بحسب معطيات اللغة، والسنن التي تجري عليها .

لكن العمل الأبرز أثرا والذي كان لديه صلة وثيقة بالدرس البلاغي هو البحث عن إعجاز القرآن، والدفاع عن القرآن الكريم، ورد مطاعن الزاعمين، ونجد أوضح صورة لهذا الأمر مع ابن قتيبة(ت276هـ) في كتابه تأويل مشكل القرآن، وكذلك مع البحث في أصول الدرس الإعجازي .

فابن قتيبة يضع كتابه في الرد على الطاعنين في القرآن الكريم والمنكرين لإعجازه والمدعين بوجود الخلل في نظمه دون برهان أو دليل أو بتدليس وجهل منهم .

لكن ابن قتيبة يجعل المتلقي للقرآن الكريم متلقيا خاصا لديه معرفة سابقة بالنصوص الإبداعية السابقة للقرآن الكريم وله دراية بالتقاليد الأدبية لهذه النصوص

[1] محمد العمري، البلاغة أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2010، ص97.

وهذا مانجده في بلاغة التلقي عند ياوس Hans Robert Jaussعندما يتحدث عن أفق التوقع ومكوناته خاصة خبرة الجمهور المسبقة بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه الأثر وشكل ومحتوىٰ آثار سابقة يفترض معرفتها ففي الأثر الجديد خاصة عندما يصرح قائلا :"فالتجربة الأدبية الجديدة التي يزودنا بها أثر لم يكن معروفا قبل الآن تتضمن، مثلها في ذلك مثل أي تجربة معاصرة معرفة مسبقة vorzissen تنتمي إلى التجربة ذاتها بدونها لا يمكن للجدة التي نتعرف عليها في هذا الأثر أن تصبح موضوعا للتجربة "[1]

ونجد ابن قتيبة يقرر بأن معرفة فضل القرآن أي بدائعه، وتفوقه على ما سبقه من النصوص، إنما يكون بمعرفة السابق من بديع الكلام عند العرب، وفهم طرقهم وأساليبهم، يقول :"وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب وما خص به لغتها دون جميع اللغات "[2]

فمن أجل بيان فضيلة كلام ما ينبغي النظر إلى ماسبقه وخبرة المتلقي تلعب دورا مهما، وهذا ما سنجده مع اتجاه بلاغي عريق في المغرب العربي .

كذلك ضمن هذا العامل المهم في دفع الدرس البلاغي يمكننا تتبع خطوات ابن قتيبة في الدفاع عن القرآن الكريم، فقد رد شبه المنكرين لانسجام القرآن الكريم

---

[1] هانس روبرت ياوس، نحو جمالية للتلقي، ترجمة وتقديم محمد مساعدي، منشورات الكلية جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة الأفق فاس، المملكة المغربية، ص:60.

[2] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق سوريا، ط1، 2011، ص:39.

فبين مواضع الاتصال بين آياته، والفوارق الدقيقة بين معانيه وتحدث عن مفهوم المجاز وعرفه بقوله :"وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه"[1]

ثم اعتمد عليها في بيان فضل القرآن على سائر الكلام، وقد خطا خطوة مهمة في الرد على الطاعنين على القرآن بالمجاز بقوله :"وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز فإنهم زعموا أنه كذب ؛لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تقصم .وهذا من أشنع جهالاتهم، وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم، ولو كان المجاز كذبا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا، كان أكثر كلامنا فاسدا "[2]

وهذه خطوة في تبرير ضرورة المجاز سنجد أثرها في المشاريع البلاغية اللاحقة، فابن قتيبة يصرح بضرورة التفريق بين المجاز والكذب، لأن معيار الكذب والصدق، معيار الواقع ومطابقته، أما المجاز فهو عدول في اللغة ليس بالضرورة أن ينتهك حرمة الحقيقة في الواقع .

لكن البيئة التي احتضنت أكبر قدر من الاهتمام بالسؤال الإعجازي هي بيئة المتكلمين، التي بدورها ستولد اتجاها بلاغيا نصيا، يعتمد على مفهوم الإعجاز، ومقارنة النص القرآني بالنصوص الأخرى، لأن رؤوس الاعتزال ربطوا بين الآية، والمعجزة، ليصلوا إلى وصف موقف مركب، يعبر عن التحدي، والعجز هو كنه

---

[1] المصدر نفسه، ص :49.

[2] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق سوريا، ط1، 2011، ص:145.

الإعجاز عندهم، ثم سعى رؤوس المعتزلة، والأشاعرة في تبرير وجوه هذا الإعجاز، وتوسعوا في باب بيانه، وبلاغته لأنه تحدى العرب في الخاصية التي برعوا فيها .[1]

هذه المباحث دفعت بالسؤال البلاغي بعيدا وأثرت عليه، بل وساهمت في تطور اتجاهاته .

فقد طرحت أسئلة من قبيل :كيف يكون القرآن الكريم معجزة ؟ وأين يكمن إعجازه؟ والعديد من الأسئلة التي سنحاول الكشف عنها في تبيان أحد أهم التيارات البلاغية، ولتفسير القرآن الكريم بمختلف اتجاهاته أثر عميق على الدرس البلاغي، ولا نبتعد عن الحقيقة إذا قررنا بأن للبلاغة كذلك أثرها الملموس على فعاليات التفسير وتطور اتجاهاته، والزمخشري (ت538هـ) من أبرز النماذج الممثلة لهذا الأمر، من خلال تفسيره الكشاف، "إذ استطاع أن يقدم فيه صورة رائعة لتفسير القرآن، تعينه في ذلك بصيرة نافذة تتغلغل في مسالك التنزيل وتكشف عن خفاياه ودقائقه، كما يعينه ذوق أدبي مرهف يقيس الجمال البلاغي قياسا دقيقا وما يطوى فيه من جمال وجلال."[2]

فالزمخشري معتزلي، يعرف ذلك القاصي والداني، وتتبع مؤلفي الجرجاني(ت471هـ)، الدلائل والأسرار، مطبقا نتائج الجرجاني في علمي المعاني والبيان على القرآن الكريم، والملاحظ أن الجرجاني أشعري، والزمخشري نظر إلى القرآن بعيون تأويل اعتزالية، مما يوحي بمفارقة استطاع الرجل تجاوزها لأن الجرجاني

---

[1] ينظر :محمود محمد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط1، 2002.

[2] شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ص:219.

بنى نموذج الدلائل على تلقي معاكس للفكر الاعتزالي، وصاحب الكشاف التقى مع الجرجاني في مسألة ترابط النظرية النحوية وقواعدها مع المقاصد البلاغية، فتفسيره مثلا لقوله تعالى:﴿**أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[البقرة، الآية:5]، يراعي فيه مسألة الفصل بالضمير المنفصل عند النحاة، ويجعل له غرضا ومقصدا، لأن " فائدته الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة، والتوكيد وإيجاب أن فائدة المسند ثابتة للمسند إليه دون غيره [..] ومعنى التعريف في المفلحون الدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة [...]، وتعريف المفلحين، وتوسيط الفصل بينه وبين أولئك؛ ليبصرك مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا، وينشطك لتقديم ما قدموا، ويثبطك عن الطمع الفارغ والرجاء الكاذب والتمني على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته ."[1]

وكلامه عن مقاصد التعريف، والفصل بالضمير هو تطبيق لما هو موجود عند الجرجاني، مما يبين أن الرجل تمثل نظرية الدلائل، وأحاط بكلياتها وجزئياتها معطيا الأولوية للنظر اللغوي والبلاغي، مخلصا آراء الجرجاني من الحمولة المذهبية التي بنيت عليها، مكسبا لها بعدا يحكم اللغة ومقاصد الخطاب على مستوى المنجز اللغوي، مع أن الزمخشري قد تدخل على مستوى النص التفسيري، محملا إياه بالنظرة الاعتزالية التي ظل محافظا عليها، ومفتخرا بها طيلة حياته .

[1] الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط3، 2009، ص:40.

4- الحركة الشعرية ومذاهب الفن :

ننتقل إلى أحد العوامل المهمة التي تركت بصمتها على نشأة البلاغة، إنها مذاهب القول الجميل أو مذاهب الفن في الشعر والنثر، فالمضطلع على كتاب البديع لابن المعتز يدرك بأن الرجل يتكلم عن مذهب محدث في الشعر يعتمد مقومات فنية خاصة، ففي أواخر العصر الأموي ظهرت بوادر اتجاه شعري جديد يعتمد خصائص شعرية جديدة يستغربها رواة الجاهلي القديم وفي هذا الصدد يقول البهبيتي عن الحركة الشعرية الجديدة التي بدأت تظهر أواخر العصر الأموي وبداية العصر العباسي، وكان قد حمل لواءها أهل الصبوة كما سناهم مطيع بن إياس :"أن هذه الصبوة كان من رأي أصحابها الاتصال بالحياة اتصالا مباشرا، وجعل الشعر أداة للتعبير عن الحياة الجديدة، والبعد به عن الأساليب التقليدية التي انتزعت أصولها من جزيرة العرب "[1]

فمذاهب الشعر الجديدة، وخاصة مدرسة البديع جعلت الوعي البلاغي ينفتح على نصوص جديدة تتطلب قراءة، وتصنيفا بلاغيا خاصا، ونجد في ما نقله الآمدي من رأي أهل الصنعة والبلاغة حول مذهب أبي تمام دليلا عاضدا لهذا الأمر إذ يقول: "إن أهل الصنعة يفضلون كل ما قاله أبوتمام [...] والمطبوعون وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والإغراق في الوصف وإنما يكون الفضل عندهم في الإلمام بالمعاني، وأخذ العفو منها، كما كانت الأوائل تفعل، مع جودة السبك، وقرب المأتى "[2]

---

[1] نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي، دار الفكر، بيروت لبنان، ط4، 1970، ص:320.

[2] الآمدي، الموازنة، تح السيد أحمد صقر، دار المعارف القاهرة مصر، ط5، 2006، ج1، ص:524.

ومجموع الخصائص الشعرية الجديدة هي التي شكلت أحد المنابع التي استقىٰ منها الدرس البلاغي العربي، ويسمي أدونيس هذا المذهب الفني الجديد بشعرية الكتابة، لأنها مخالفة للشفوية الجاهلية، ويقول ملخصا رأي الصولي(ت335هـ) في طريقة أبي تمام :

"تتمثل خصوصية الطريقة المحدثة في ابتكار معان لم تعرفها الشفوية الجاهلية، وتتمثل هذه الخصوصية كذلك في ابتكار لغة شعرية جديدة "[1].

ظهور الجديد علىٰ مستوىٰ النص الشعري يجعل الآلة البلاغية تعيد النظر في معاييرها وآلياتها التي سيستفيد منها العمل النقدي في التقييم بالجودة أو بالرداءة .

لكن ابن المعتز(ت296هـ) يقف ليبين أن ما سمي جديدا ومحدثا علىٰ مستوىٰ اللغة والأسلوب قد سبق وجوده في كلام العرب والقرآن والحديث يقول :" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلىٰ الله عليه وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلىٰ هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتىٰ سمىٰ بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه."[2]

هذه المحاولة في رصد وجوه البديع واستخدامات اللغة في مستواها الأدبي حققت لابن المعتز سبقا بلاغيا لكنها لم تؤثر علىٰ مستوىٰ الحركة الشعرية والجديد الذي أحدثته .

---

[1] أدونيس، الشعرية العربية، دار الآداب بيروت لبنان، ط2، 1989، ص:43.

[2] عبد الله بن المعتز، البديع، تح سمير شمس الدين، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 2013، ص:17.

وليس من الغريب أن تقف الحركة الشعرية الجديدة وراء تطور الدرس البلاغي، فإذا اعتبرنا منجزات الشكلانيين بلاغة ترمي إلى وصف الخطاب مثلما يقول محمد مشبال :"فالدراسات الأسلوبية والشكلانية التي تبلورت في بداية القرن العشرين لا يمكن إخراجها من دائرة البلاغات المتشكلة على مدى تاريخ الانسانية"(1)

ومثلما نعلم فإن منطلق الدراسات الشكلانية، كانت نصوص الحركة المستقبلية في الشعر، والتي اعتمدها الشكلانيون لدراسة، وتطبيق آلياتهم الجديدة، وهذا عينه ما حدث مع هذا العامل المهم في نشأة بلاغتنا العربية .

5/ الوافد الأجنبي وفهم العرب للبلاغات الأخرى :

كانت حركة الترجمة التي ازدهرت في العصر العباسي، عاملا مهما في دخول كم معرفي بلاغي لا يستهان به إلى الدرس العربي، وقد أسهم هذا الوافد الجديد في معرفة جزئيات جديدة، ونجد على رأس الوافد البلاغة اليونانية والهندية، وللأولى الحظ الأوفر من التأثير، ويلاحظ حمادي صمود أن الدرس البلاغي العربي في نشأته، بين أواخر القرن الثاني الهجري، وأوائل القرن الرابع الهجري، صادف حركة نشطة للترجمة عن اليونانية "زد على ذلك أن التراجمة وقعوا على كتب لها علاقة مباشرة بمشاغل البلاغة وهما كتابا الخطابة والشعر لأرسطو، وقد لقي هذان المؤلفان رواجا كبيرا آنذاك وعكف العرب على ترجمتها وشرحها وتلخيصها ."(2)

---

(1) محمد مشبال، البلاغة والأصول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2007، ص:7.

(2) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط3، 2010، ص:59.

ونجد الأمر واضحا عند الشيخ الرئيس ابن سينا والفارابي، خاصة الأول الذي نجد عنده كتاب الشعر والخطابة يدخلان ضمن الموسوعة التي تضم معارف العصر وهو كتابه الشفاء أين يخصص جزءا للخطابة والشعر .

أما ابن رشد(ت595هـ) فقد مثل تلخيصه للشعر والخطابة فهما عربيا خاصا وخالصا لنظرية الشعر والمحاكاة عند أرسطو، وليس بالضرورة أن تكون مطابقة لما هو يوناني بل هي بعقليّة عربيّة، حيث نقل المحاكاة من الفعل الدرامي التمثيلي إلى الفعل اللغوي على مستوى العبارة .

أما ما نراه من تأثير كتب اليونانيين في صنعة البلاغة والشعر فنجده عند قدامة بن جعفر وحازم القرطاجني وقبلهما الجاحظ .

ففي البيان والتبيين نجد مواصفات الخطيب ومواصفات الخطبة والتعامل مع المستمعين مما يحيلنا على قضية الإيطوسات عند أرسطو. [1]

وقضية الإقناع عند الجاحظ تحتل مركزا مهما في مشروعه، ولا نجد فرقا كبيرا بين ما يعرضه الجاحظ مشتتا حول إقناعية الخطيب وحجاجية قوله وأساليبه وبين ما يقوله بيريلمان وتيتيكا حول مشروعه في الحجاج باعتباره :"مصنفنا لا يهتم سوى بالآليات الخطابية التي تنتج الإقناع في النفوس، ووحدها التقنيات التي تستخدم اللغة للإقناع والإقتناع هي التي ستحظى بدراستنا "[2]

---

[1] ينظر :الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط 1، 2010، ص :96.

[2] Chaim perelman,Olbrechts-tyteca,traite de l'argumentation,editin de l'université de bruxelles,5Ed,200,p:10

وهذا ما نلاحظه على ما جاء به الجاحظ عندما يتكلم عن مواصفات كلام الخطيب، ومراعاته للمقامات في لغته فلا يكلم الخاصة بكلام السوقة ولا العامة بكلام الخاصة، بل إن الجاحظ يتجاوز اللغة إلى المظاهر النفسية للمتلقي والخطيب وكذلك المظاهر الخارجية والمحيطة بالخطباء .

وسنرى في قراءة العمري لمشروع الجاحظ الجوانب الجديدة ضمنه وسنحاول توسيع قراءة هذا المشروع بامتدادات أخرى .

ونجد قدامة بن جعفر يطبق الكليات النظرية الموجودة عند أرسطو على بلاغة الشعر العربي ويحاول حصر الجزئيات المكونة للنص الشعري وإرجاعها إلى مبادئ عامة يمكن تقنينها يقول جابر عصفور في هذا الصدد :"إن قدامة ناقد شكلي يرد على الجمال في الشعر إلى ما ينطوي عليه الشعر من تجانس بين العناصر والأجزاء، وهو يحاول –بالتركيز على الصياغة – تبرير قيمة الشعر ؛تلك القيمة التي ترتد إلى صورة القصيدة، والتي لا يمكن أن تفهم منفصلة عن عناصرها [...] ومن المؤكد أن قدامة كان يعرف أرسطو معرفة لا بأس بها، فقد شرح بعض كتبه، وتأثر به في نقده للشعر . لقد علمه أرسطو أن أول خطوة في دراسة الشعر هي تحديد العناصر الأساسية المكونة له "[1]

وأهم ما يطلبه قدامة هو التناسب ومواجهة المعنى للغرض المقصود مع مراعاة قاعدة التوسط للحفاظ على الفضيلة، وكل هذه الأفكار ذات منبع أرسطي، وهدفه كان الوصول إلى علم يقضي على فوضى الأذواق .

---

[1] جابر عصفور، مفهوم الشعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط5، 1995، ص :101.

لا تبتعد كثيرا انشغالات قدامة عن انشغالات حازم القرطاجني الذي أعلن انتماء كتابه إلى علم البلاغة وأجزاء الكتاب توحي بالرغبة في بيان جزئيات القول البليغ خاصة منه الشعري بين ألفاظ ومعاني ومباني وأسلوب .

يقول حازم في معرض حديثه عن مقومات الشعر والخطابة :"ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني [...]لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية "[1]

قوله هذا يثبت أن حازما اطلع على أرسطو في كتابيه الشعر والخطابة، والمنهاج يعج بأدلة ذلك وحازم لم ينقل فقط، بل حاول أن يتجاوز النموذج الأرسطي، وذلك لوعيه بخصوصية النص العربي وخلفياته ومؤهلاته.

ويبدو أن كتاب حازم كان مخصصا للنظرية الشعرية عند العرب مع المحافظة على الكليات التي تجمع العمل الشعري، وقد حضرت الخطابة في الحديث عن الإقناع، وتداخل الأخير مع التخييل الشعري .

رأينا في هذا العنصر باختصار عواملا ساهمت في نشأة الاهتمام البلاغي وأطلقت العنان لمشاريع بلاغية مؤسسة ولها خلفيات ومقاصد واهتمامات تضعها ضمن نسق تأليفها، وسنرى من خلال قراءة العمري لهذه المشاريع البلاغية المتطورة عن هذه الأصول والعوامل خلفياتها النظرية وآلياتها والكليات النظرية التي تحكم إليها، وقراءتنا لمشروع العمري ستضيء جوانب هذه المشاريع من زاويتين :

---

[1](1) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط2، 1981، ص:69.

الأولى :متابعة تطور البلاغة العربية وتحولها إلى اتجاهات وامتدادات كبرى بعد أن رأينا أصولها وعوامل نشأتها .

الثانية : رصد الآليات المتبعة في قراءة الدرس البلاغي العربي في ضوء الدرس الجديد نظريا وتطبيقيا .

وقد حاولنا التوسع في نقاط وجدناها عند التوغل في مشروع العمري، لنصل هذه النتائج المتوصل إليها برؤية العمري لامتدادات البلاغة العربية الكبرى، وسنعمل على التوسع في الجزئيات التي نرى ضرورة هذا العمل فيها، أو الإشارة إلى المشاريع التي لم تحظ برؤية واضحة في مشرع العمري، كل هذا بالاستعانة باستراتيجيات الكشف الجديدة التي تتيحها البلاغة المعاصرة .

لننتقل ضمن مدخلنا هذا إلى عنصر يبحث في مفهوم البلاغة عند العرب وكيف تشكل وما مقاصده ؟ بعد أن حاولنا رصد العوامل الكامنة وراء نشأة الاهتمام البلاغي باعتباره ملكة واصفة للخطاب بعد أن كان ملكة فطرية .

4- مفهوم البلاغة بحث في المشترك وتبين للفروق بين الموروث والوافد الجديد:

إن تحديد مفهوم البلاغة خاصة بعد أن رأينا المسار الذي قطعه الوعي البلاغي باعتباره أولا :ملكة فطرية وثانيا باعتباره ملكة صناعية مكتسبة، والعوامل التي ساهمت في نشأتها، لنرى الآن تصور العقل العربي لمفهوم البلاغة وكيف خرج هذا المصطلح وبدأ انتشاره والتحولات الطارئة عليه، والسؤال حول البلاغة يطرح دائما

وأبدا وهذا نراه حتى عند رواد البلاغة الجديدة الذين يلحون عليه وما يفرضه هو سوء فهم هذا الميدان .[1]

سنستفيد من الرصد التاريخي الذي قدمه حمادي صمود حول ظهور مصطلح البلاغة العربية ومفهومها عبر خط تاريخي يبدأ من سنة 40 هـ، إذ يلاحظ صمود ورودها عن علي بن أبي طالب باعتبار البلاغة إفصاح قول عن حكمة مستغلقة وإبانة عن مشكل، ثم نجد المفهوم يتطور خاصة مع قول ابن المقفع بأنها كشف ما غمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل، ومع قول خالد بن صفوان بأنها إصابة المعنى والقصد إلى الحجة[2]، إذ نجد ههنا البلاغة تتحول إلى مواصفات واقعة في القول، أو في القائل، مع توفر عنصر الإقناع وتوجيه الرأي .

ولابن المقفع(ت145هـ)، كذلك قول في مفهوم البلاغة عنده إ؛ذ يذكره الجاحظ:" وقال إسحاق بن حسان بن قُوهيّ: لم يفسِّر البلاغَة تفسيرَ ابنِ المقفَّع أحدٌ قَطُّ، سُئِل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة، فمنها ما يكون في السُّكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سَجعًا وخُطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامّةُ ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها، والإشارةُ إلى المعنى، والإيجازُ، هو البلاغة"[3]

---

[1] ينظر: .Kibedi Varga, Rhétorique et Littérature,Diddier paris ,1970,p:19

[2] ينظر :حمادي صمود، التفكير البلاغي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط3، 2000، ص ص:101، 103.

[3] الجاحظ، البيان والتبيين تح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط 1، 2010، ص:94.

هذه الملامح التي قدمها ابن المقفع، والتي سنجد أبا هلال العسكري(ت395هـ) يشرحها، تعطي التصور الأول بوجود وجوه متعددة للبلاغة، وهذا ما سيستثمره البلاغيون في تعداد مشاريعهم وتنوعها، بين البيان اللغوي، وغير اللغوي وبين بلاغة الإقناع، وبلاغة الشعر، والأنواع الأدبية ... .

وورد قول للخليل بن أحمد(ت170هـ) في الرسالة العذراء لأبي اليسر الشيباني(ت298هـ) حول البلاغة يقول فيها :"كل ما أدىٰ إلىٰ قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإن استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا، ولتلك الحال وفقا، وآخر كلامك لأوله مشابها، وموارده لمصادره موازنا، فافعل، "[1]

إن هذا النص يجعل من البلاغة ميدانا لدينامية التداول والاستعمال والمنفعة، ثم يخصصها بالفعل اللغوي والظروف المحيطة به ويختم الأمر بالفعل وكأنها إشارة إلىٰ المتكلم والمتلقي بين الفعل والانفعال .

أمّا بشر بن المعتمر ووصيّته الموثّقة في بيان الجاحظ فإنّها قد حوت مسائل عديدة من البلاغة العربيّة، ولكننا لا نوافق من يطلق الحكم القائل بأنّه مؤسّس البلاغة العربيّة، فهذا الدّرس الكبير لا يمكن أن يقوم بعبئه رجل واحد وعقل وحيد، إنّما هي تراكمات معرفيّة تصل حدّ التّمام في مشاريع بعينها وتلحقها أخرىٰ تفنذدها أو تنقدها أو توسّعها أمّا أن يبنىٰ علم من علوم الخطاب مكتملا بحدوده من لدن عقل واحد فهذا لا يشهد له تاريخ العلوم الحقيقي وليس الأحكام الجزافية الذّوقية .

---

[1] أبو اليسر الشيباني، الرسالة العذراء في موازين البلاغة، تحقيق يوسف عبد الوهاب، دار الطلائع، القاهرة، 2005، ص:83.

وإنّ وثيقة بشر أهم ما نجده فيها هو تركيزه على مسأله مطابقة الكلام للمقام الذي يقال فيه فيقول بشر عن المتكلّم :" أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات "[1]

لا يمكن العبور على هذا النص عبورا صامتا أو أن نعلّق على مضمونه بتعليق شارح وفقط، فهو يؤسّس لجانب نظري مهم لبلاغة السكّاكي ومن جاء بعده، بل نجد بشرا يؤسس لمدرسة بلاغية يمكن أن نسمّيها بلاغة التواصل والإفهام، ونجد عنده مصطلحات بلاغيّة تواصليّة :

أقدار المعـــــاني = طبقات ورتب المعاني من بساطة وعمق وغموض ...

أقدار المستمعين = مراتبهم وطبقاتهم بحسب اختصاصاتهم ومستوياتهم العلمية ...

أقدار الحالات = المواقف الكلامية من جدال ومدح وذمّ و..و..

ولكل مقام من هذه المقامات كلام يختص به، فإذا تحقّق التطابق بين المقام (الذي يشمل الحال باعتباره ظروفا مكانية وزمانيّة والسامع) والكلام بلغ المتكلّم غايته من الإفهام وتلك البلاغة، وهذا ليس بعيدا عمّا تقرّره البلاغات الجديدة بما فيها بلاغة الحجاج، فمصطلح المستمَع (مكان + أشخاص)[2]كما يعرضه محمّد العمري هو ترجمة لمصطلح (auditoire) الذي يقسّمه شاييم بيرلمان إلى نوعين خاص = auditoire particulier وكوني = auditoire universel، وهي لا تبتعد كثيرا عن مقامات توجيه

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا ص 58.

[2] ينظر محمّد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 220 .

الخطاب عند بِشر، فإذا وجّه المتكلّم خطابه لقضيّة أو نظريّة أسّس دعائمها علماء وعارفون فهذا خطاب موجّه لمستمع كوني وعندها نكون في عمليّة تيقين conviction ولسنا في إقناع خاص عادي persuasion.[1]

وليس بعيدا عن بشر نجد الجاحظ، الذي يدخل مرحلة التأثر بالوافد اليوناني، والاستفادة من التراث الفارسي (وإن لم يكن للفرس تأثير علمي على الحضارة العربيّة إلا من جانب الحياة الاجتماعية والسياسيّة) والغريب الهندي، ونجد نصه الشهير حول البلاغة الذي يقول فيه : "خبَّرني أبو الزُّبير كاتبُ محمَّدِ بن حَسَّان، وحدّثني محمد بن أبان ولا أدري كاتب مَن كان – قالا:قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفَصْل من الوصل، وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكَلام، وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغَزارة يَوْمَ الإطالة، وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وضُوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال بعضُ أهل الهند: جِمَاع البلاغة البَصر بالحُجّة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحُجة، والمعرفِة بمواضع الفُرصة، أن تدَعَ الإفصاح بها إلى الكنايةعنها، إذا كان الإفصاحُ أوعَرَ طريقةً، وربما كان الإضرابُ عنها صفحاً أبلَغَ في الدَّرَك، وأحقَّ بالظَّفَر"[2]

هنا نلاحظ أن الخبر ينقله الجاحظ عن غيره، مما يبين أن هذه المفاهيم دخلت إلى العقلية العربية، وتماسّت مع ما يريده العرب المسلمون بالبلاغة، وستشترك هذه

---

[1] ينظر : الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدّة، 2014، ص 14 .

[2] الجاحظ، البيان والتبيين تح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط 1، 2010، ص77.

المفاهيم الأجنبية في صياغة المشروع البلاغي العربي بين بلاغة تركز على الجانب الاقناعي وأخرى تهتم بالجانب التخييلي، والأمر ههنا ليس بعيدا عن البلاغة اليونانية التي يعرفها أرسطو في كتابه الخطابة قائلا :" وإذن فلنسلم بأن الخطابة هي قوة أو ملكة نستطيع أن نكتشف بها على وجه نظري أو تأملي ما يمكن أن يكون شأنه الإقناع في كل حالة على حدة "[1] وهذا يفهم من خلال عنصر البصر بالحجة فهو تأمل في سبل الإقناع الممكنة والتي توصل المتلقي إلى الأخذ برأي الخطيب أو المناظر .وأخرى تسعى للاستهواء، وبلاغة ترى أن مدار الأمر على التأثير الجمهوري والاستهواء العاطفي .

من هذه المرحلة المهمة، نرصد التحديدات الواقعة في تاريخ بلاغتنا العربية، وهي تحديدات تسعى إلى الدقة، والضبط على عكس السابق منها ؛حيث نجد الرسم موسع ليضم غيره، أو يضع القارئ على الخيار بين المفاهيم، وسنرى مصطلحين آخرين يزاحمان البلاغة هما البيان والفصاحة .

إذا رجعنا إلى ما كتبه الرماني(ت386هـ) حول إعجاز القرآن الكريم، حيث بين وجه إعجازه من خلال بلاغته وحسن نظمه، ويعرف البلاغة قائلا :"وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة من اللفظ ."[2]

---

[1] أرسطو، الخطابة، ترجمة :عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2013، ص:15.

[2] الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط6، ص:76.

والرمّاني يضع قاعدة جليلة في تاريخ بلاغتنا الجليلة تتمثّل في عناصر الموقف البلاغي من :

- المعنىٰ = مقاصد يحكمها الموقف الخطابي
- متكلّم = يوصل المعنىٰ
- مخاطب = يصل إليه المعنىٰ (النفس)
- الخطاب = اللفظ
- الأسلوب = أحسن صورة

ونلمح اهتماما بالمتلقي، وبالصورة التي يكون عليها الخطاب، فصورة اللفظ هي كساؤه ولباسه الذي يقدّم من خلاله، ليلقىٰ القبول، والاستحسان، فيكون مقنعا أو جاذبا محرّكا للعواطف .

هذا التعريف الذي سنجده يتكرر بعبارات مختلفة عند من سيأتي بعده، خاصة عند أبي هلال العسكري:"البلاغة كل ما تبلغ به المعنىٰ قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن "[1]

والعسكري في الصناعتين شارح من طراز رفيع لكلام الجاحظ في البيان والتبيين، بل نجده يشرح كلام ابن المقفّع عن البلاغة، ويشير في شرحه لوجود بلاغة الصمت وبلاغة الإشارة، وكتاب الصناعتين يتقاسمه نسقان بلاغيّان بين بلاغة الكتابة، وبلاغة الشعريّة، وسيكون له محل في مشروع العمري، وسيوفي الكلام عليه باعتبار أنّ له محطّات تتجلىٰ فيها ملامح بلاغة عامة .

---

[1] أبو هلال العسكري، الصناعتين، تحقيق علي محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية صيدا بيروت، 2013، ص:16.

ثم فخر الدين الرازي(ت606هـ) حيث يذكر حد البلاغة في نهاية الإيجاز بقوله :"البلاغة بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المخل والإطالة المملة "[1] وليس من الغريب أن تقترن البلاغة بمهمة التواصل، وقد سبق وأن أشرنا لذلك في حديثنا عن مرحلة المعرفة الفطرية والتصاق جذرها اللغوي بالتواصل، وهذا ما يقرره كيبيدي فارغا kibedi varga إذ يقول موضحا التداخل الواقع بين ماهو تواصلي وما هو بلاغي قائلا :"في أساس كل بلاغة توجد رغبة الاتصال "[2] وينقل تعريفات للبلاغة تجمع بين فن القول الجميل والجيد وبين الإقناع، والتقاطع بين الشعري والإقناعي التداولي معهود في بلاغتنا العربيّة وليس مثلما هو الحال عند الغرب، استدعى الأمر منهم الجدال الطّويل، ونصوصنا وأنساق بلاغتنا، وأكبر وأعظم خطاب وهو القرآن الكريم كلام ربنا يجسّد الجمع بين جمال الصورة وإقناعيّة الحجّة بل وبرهانيّتها في مواقع تستدعي البرهان اليقيني على طريق المناطقة .

لسنا نبحث عن وجوه التطابق بين البلاغتين، لكن الأمر يستدعي النظر، خاصة وأن البلاغة في أيامنا هذه، أصبحت منطلقا لرؤية العالم، والإنسان، هذا الأخير الذي أعيد تعريفه باعتباره البلاغي، فإنسانيّته تتحقّق ببلاغته، والإنسانيّة فيه أفق كلّما اقترب من البلاغة أكثر كان قربه وعلاقته أمكن بالإنسان .

إذن، مفهوم البلاغة الجامع بين التواصل، وحسن صورة اللفظ، هو من بين المفاهيم التي سارت مع البلاغة، بالإضافة إلى وجود لفظ آخر، كان يسير إلى جانب

---

[1] فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت لبنان، ط 1، 2004، ص:31.

[2] Kibedi Varga ,rhétorique et littérature , Diddier paris ,1970,p:20

البلاغة، وهو الفصاحة ؛إذ نجد أبا هلال العسكري يفرق بين البلاغة والفصاحة قائلا :"ومن الدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى أن الببغاء يسمى فصيحا، ولا يسمى بليغا، إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه"[1]

وهذا الأمر نجده كذلك عند ابن سنان الخفاجي في حديثه عن الفصاحة، أما الجرجاني فالأمر عنده مختلف، فالرجل يساوي بين هذه المصطلحات ويجعل مدارها على الكشف عما في النفس وإعلام الآخرين بما يجول في خاطر المتكلم ويزيد معها البراعة، قائلا :" تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة، وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا، وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم.ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة، وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين، وآنق وأعجب، وأحق بأن تستولي على هوى النفس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب، وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد. ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته،

---

[1] أبو هلال العسكري، المرجع السابق، ص:14.

ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له، وأحرىٰ بأن يكسبه نبلاً، ويظهر فيه مزية."[1]

فالجرجاني يرفض كون الفصاحة لتآلف الحروف أو تنافرها في اللفظ بل يجب النظر كذلك للنظم، وندرك من كلامه حقيقة الواقع الذي كان عليه الدرس البلاغي وقتئذ ؛إذ كانوا يقصرون الفصاحة علىٰ اللفظ والبلاغة علىٰ اللفظ والمعنىٰ معا، أو الثاني دون الأول وهذا ما يأباه الجرجاني بل رأىٰ أن الفصاحة والبلاغة مدارهما علىٰ النظم، وهذا ما جعله لا يعترف بالخط الفاصل بينهما، بل رأىٰ أنه من الخطر أن يوضع هذا الخط في التعامل مع إعجاز القرآن الكريم .

وللبيان والبلاغة قصة مغايرة في المغرب العربي، إذ إن ابن البناء المراكشي العددي(ت721هـ) يوضح بأن علم البيان أعم من البلاغة ومن البديع، هذا الأخير الذي يرجع إلىٰ صناعة القول ودلالته علىٰ المعنىٰ المقصود ويستند إلىٰ علم البيان .[2]

أما البلاغة عنده، فهي محصورة بالأغراض، والمقاصد التي يتوخىٰ المتكلم تحقيقها، وإبلاغها للسامع، فيعرفها قائلا :"والبلاغة هي أن يعبر عن المعنىٰ المطلوب عبارة يسهل بها حصوله في النفس متمكنا من الغرض المقصود"[3]

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط3، 1992، ص:43.

[2] ينظر: ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بنشقرون، ط 1985، ص:87.

[3] المرجع نفسه، ص:87.

فتعريف ابن البناء للبلاغة، يذكرنا بتعريف فخر الدين الرازي لها، فعنصر التعبير عن المطلوب حاضر عندهما، والمطلوب إشارة من ابن البناء إلى أن الكلام البليغ ليس لغوا إنّما يأتي لحاجات في النفس يريد المتكلّم إبلاغها، هو كلام ترجى منه الإفادة، ويرجى من خلال هذا القول التأثير في الآخر، ويشترط لذلك أن يكون ملائما للمخاطَب الذي يُتوجه نحوه بالكلام والعبارة، أما التمكن من الغرض المقصود، فهو الأثر النهائي، والتوجيه الذي يريد المتكلم البليغ أن يصل إليه .

وإنّ نموذج ابن البنّاء المراكشي رحمه الله يعكس رؤية موسّعة لفعاليات البلاغة، فهي تهتم بكافة أنواع القول من برهان وجدل وخطابة وحتى السفسطة والشعر، وإن كان قد أخرجهما عن مدار الحقيقة وابتغاء الحق، إلا أنّنا نلمس في إشارته لكافّة أنواع الخطاب أنّ البلاغة تمدّ رواقها على كل هذه الخطابات، وإذا قرأنا المصطلح البلاغي عند ابن البناء نجده على غير شاكلة المشارقة فالرّجل يرى للفصاحة بعين المشاكلة بين التداول الدلالي والصوتي اليسير، وإذا اجتمعت الفصاحة بالبلاغة التي تهتم بالمقاصد والمعاني تعيّن معرفة طبقات الكلام وهذه تتبع صناعة البديع التي تعطي القوانين الكليّة الضابطة لجزئياتها وتستند صناعة البديع إلى علم البيان وهو أمر فطري يتمّ التنبيه عليه، فهو يهتم بالدّلالة والدّليل في اللغة وغيرها من الأنساق التواصليّة، فابن البنّاء يخرج الاهتمام البلاغي من نسق اللغة ليلمّح ويشير إلى اهتمامه كذلك بالأنساق غير اللغويّة، وهذا أثر من آراء الجاحظ، وكذلك حسن فهمه للأنساق الثقافية الإغريقيّة الوافدة وكذلك للعلوم الهرمسيّة التي اشتهر بها أمثال ابن البنّاء في عصره .

"وتكمن أهمية هذه البلاغة البناوية في الخروج عن التقسيم الذي سنته البلاغة المدرسية، وكذلك في عدم حصر البديع في المحسنات(اللفظية أو المعنوية)، بل الرجوع

به إلى دلالته الأولى عند العرب، حيث البديع هو البلاغة عموما "[1]، فالبديع هو أوجه الكلام، وأفناه وأساليبه التي درج العرب على استعمالها للتعبير عن معانيهم، حيث يكون المعنى اللفظ موافقا للمعنى، والمعنى مواجها للغرض المقصود .

وفي حديثنا عن المقاصد، يستدعي الأمر الحديث عن المقام الذي تحدد من خلاله هذه المقاصد، وهنا تحضرنا تعريفات السكاكي (ت622هـ) والقزويني(739هـ)، يذكر السكاكي تعريفا للبلاغة يقول فيه :" البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها، ولها أعني البلاغة طرفان أعلى وأسفل متباينان تباينا لا يتراءى له ناراهما وبينهما مراتب تكاد تفوت الحصر متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة وهو القدر الذي إذا نقص منه شيء التحق ذلك الكلام بما شبهناه به في صدر الكتاب من أصوات الحيوانات ثم تأخذ في التزايد متصاعدة على أن تبلغ حد الإعجاز وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه.واعلم أن شأن الإعجاز عجيب يدرك ولا يمكن وصفه كاستقامة الوزن يدرك ولا يمكن وصفها وكالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين"[2]

والسكاكي خلص إلى هذه النتيجة، بعد كلامه عن العلوم الأدبية التي أسس مشروعه عليها، وهذا ما سنراه في قراءة العمري للسكاكي، فالبلاغة عنده ملكة تمكن

---

[1] عمر أو كان، اللغة والخطاب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 2011م، ص:196.

[2] أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص:526.

المتكلم من تأدية المعاني، وطرق أساليب متعددة وأوجها تخدمه في بلوغ مقاصده، ثم يحول اتجاهه إلى طرفي البلاغة بين الإبانة والإفهام، وبين بلوغ حد الإعجاز الذي لا يكشف عنه إلا بخدمة هذين العلمين (التركيب والبلاغة).

أما صاحب الإيضاح، فقد اتخذ مسلكا تداوليا في تحديد معنى البلاغة، وربطها بالسياق والظروف المقامية التي ترافق إنجاز القول أو الفعل الكلامي قائلا في تعريفها ما نصه :"أما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته "(1)

وقد قسم القزويني البلاغة إلى وصف للكلام ؛أي للنص ثم للمتكلم ؛أي للمنشئ، وقد كان لرؤية القزويني ميزات، تخدم الدرس البلاغي، لو أحسن من جاء بعده استثمارها، وقراءتها وتوسيعها، خاصة كلامه عن المقام، والمقاصد، والأغراض التي تؤديها العبارة البلاغية إمتاعا وإقناعا، ولذلك ينبغي العودة للقزويني لقراءته في ضوء معطيات السكّاكي، فلانستطيع أن ندرّس بلاغة التلخيص والإيضاح وما جاء بعده عند التفتازاني والأخضري إلا بعد أن نقف على عمل السكاكي الذي أراد بناء بلاغة أدبيّة تهتم بالخطابي / الحجاجي وبالشعري / التخييلي، ومدارسنا وثانوياتنا مازالت تدرّس الأساليب البلاغيّة بعيدا عن أنساقها وسيقاتها، بل وتتجاهل تأثيرها، ونجد البلاغة في عصرنا أصبحت قوالب معادة لا تبني متكلّما بليغا، وأصبحت مستبعدة عن تحليل أجناس خطابية كثيرة أهمّها السّرد، نريد للبلاغة العربيّة أن تعود لسابق عهدها لتتربّع على عرش التحليل والتفسير، ليعود النّقد إلى مهامّه المنوط بها وتجد البلاغة ميادينها الشاملة تداولا وأدبا، فالبلاغة ليست للتزيين والتنميق فقط،

(1) جلال الدين القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 2003، ص20.

وليست خاصة بالخطاب الجميل، بل تتعدّاه للخطاب العلمي كذلك فمادام مطابقا لمقاصد صاحبه ومفهوما عند المتلقّي فهو كذلك يستحق نصيبه من البلاغة .

لنصل إلى الرؤية الشاملة مع حازم القرطاجني، في حديثه عن البلاغة؛باعتبارها علما كليا يهتم بما هو تخييلي وتداولي شعري، ثم يتقاطع كلا السبيلين ليستفيد كل من الآخر، وهنا نصبح في صميم النظرية الحجاجية المعاصرة التي تبحث عما هو حجاجي إقناعي، ضمن النص الشعري التخييلي.[1]

فكثيرا ما نجد نصوصا شعريّة تحمل في طيّاتها مقاصد حجاجيّة، فنجد النقائض ذات صبغة حجاجيّة بحتة، فمقصدها إقناع السامع بعيوب المهجو، وكذلك نجد في شعر الطوائف السياسيّة في العصر الأموي، فالهاشميات للكميت بن زيد الأسدي ليست إلا دفاعا وحجاجا عن موقف سياسي في قالب جمالي شعري، هنا يتوسّل الشاعر بالتخييل للإقناع، ونجد في الخطابة وهي محلّ الحجاج ومركزه، نجد فيها التخييل الشعري بغية الاستهواء والجذب والتّأثير، ولكن ينبغي ألّا يتجاوز الشعري الجمالي المقصد الحجاجي الإقناعي وإلا تحوّلت إلى بلاغة تزيينيّة كما حصل في العهد الروماني للبلاغة الغربيّة مع " الفيلسوف والخطيب اليوناني كاسيوس لونجينوس الذي عاش في ظل الحكم الروماني وكانت وفاته سنة 273م ولقد أنجز هذا في كتابه رسالة في التسامي "[2] Traité du sublime، فحضور المكوّن الجمالي ليس

---

[1] ينظر :حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب بن خوجة، دار الغرب الاسلامي، ط2، 1981، ص:226.

[2] محمّد الولي، مقدّمة ترجمته للاستعارة الحيّة، بول ريكور، دار الكتاب الجديد، ص : 10 .

مدعاة لخروج جنس الخطابة الإقناعي إلى غايات شعريّة صرفة بل لغايات تمتدّ إلى الحجاج العاطفي، بعد إحكام أجزاء الجدل في الخطاب .

يقول حازم القرطاجنّي رحمه الله :"قد تقدّم الكلام في أنّ التّخييل هو قوام المعاني الخطابيّة . واستعمال الإقناعات في الأقاويل الشعريّة سائغ، إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضع بعد الموضع . كما أنّ التخاييل سائغ استعمالها في الأقاويل الخطابيّة في الموضع بعد الموضع "[1]

ويشير حازم رحمه الله إلى أنّ استعمال الشعري في الخطابي أو العكس سائغ أي مسموح ويستساغ يكون مستحسنا لكن في الموضع بعد الموضع، ولا يجب أن يطغى الخطابي على الشعري فيغدو الشعر إعلانا سياسيا أو دعاية، ولا تتحوّل الخطب إلى مقامات شعريّة وقصائد يزاد لها الوزن فتقوم على شعريّتها .

ويقول حازم رحمه الله مبيّنا العلّة من وراء هذه الاستخدامات المستساغة:"وإنّما ساغ لكليهما أن يستعمل يسيرا فيما تتقوّم به الأخرى، لأنّ الغرض في الصناعتين واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحلّ القبول لتتأثّر لمقتضاه، فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتّفاق المقصد والغرض فيهما ."[2]

مقصد الكلام المقنع والتخييلي واحد وهو التأثير ولهذا جاء تعريف البلاغة بأنّها علم الخطاب الاحتمالي المؤثّر تخييلا وإقناعا، إنّ الأثر مبتغى كل من الشعر والخطابة، وأيّ اتّجاه بلاغي يبتغي هذا الأمر، ففي البلاغة العربيّة اتجاهات شعريّة الاهتمام لكن أولت عناية بالأجزاء الإقناعية لعلم أصحابها بمسألة التأثير، ونجد اتّجاهات خطابيّة لم

---

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص : 361.

[2] المرجع السابق : ص : 361.

تستبعد الجوانب الجماليّة الشعريّة لعلمها يقينا بأنّ الشعري كذلك يدخل في مركزيّة التأثير، ويشير حازم إلى إمكانيّة هذا التقاطع ولكن باحترام العمدة في كل خطاب، وهنا يأتي خطاب حازم ليتلامس مع خطاب البلاغيين الغرب الجدد الباحثين حول البلاغة العامّة La Rhétorique Générale ؛ بين من يرى مشروعيّة قيامها وبين من يعارض ذلك، ويبدو أنّ البلاغيين العرب بنوا درسهم على إمكانيّة قيامها بل ومارسوها في أولى خطواتهم البلاغيّة من لدن الجاحظ ومن جاء بعده، ويقول الفرنسي Olivier Reboule: "هل ينبغي علينا الاختيار بين بلاغة حجاجيّة L'argumentation وبين بلاغة أسلوبيّة ؟ أم هل يمكن وضعهما جنبا إلى جنب؟ نحن نتبنّى حلّا ثالثا ونبحث عن جوهر البلاغة ليس في الأسلوب وحده ولا في الحجاج لوحده ولكن في منطقة تقاطعهما، والبلاغة بالنسبة لنا تمثّل كل خطاب يجمع الحجاج مع الأسلوب "[1]

هذا ليس جديدا على بلاغتنا العربيّة، بل تتجاوز البلاغة العربيّة آفاق البلاغة الغربيّة وحدود تصوّراتها لأنّنا لم نكشف بعد عن بلاغة التفسير وبلاغة التّلقّي والاختيارات الشعريّة، وكذلك بلاغة التأويل، إنّ درسنا البلاغي يجمع الشعري والخطابي، ليس هذا وفقط، بل يفتح المجال للنسق غير اللساني ليدخل في نطاق البلاغة وحيّزها من خلال مشاريع الجاحظ وابن وهب، وكذلك تضع البلاغة العربيّة المتلقّي في أرفع مقام، وكذلك تجعل للنّص مكانة بتخصيص آليات لبنائه وتحليله وهذا ما نجده ماثلا عند المهتمّين بالتفسير والشرح .

---

(1) Olivier reboule : La rhétorique , que sais je ? puf ; paris p 32

ثم نجد اهتمام القرطاجني بمفهوم التناسب بين المسموعات والمفهومات، وأن طرق معرفة هذا التناسب هو العلم الكلي المعبر عنه بالبلاغة، يقول حازم :"ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يوصل إليه بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب والوضع "[1]

فالتناسب بين أجزاء القول الشعري ومدلولاته علة الاستحسان، والعلم الذي يضبط هذا الأمر هو علم البلاغة، وسنقف مع حازم القرطاجني ونستعرض قراءة العمري له، ومحاولته الجريئة المتمثلة في إتمام الضائع من كتابه.

هذه إطلالة بسيطة للغاية على منجز ورؤية حازم للبلاغة ندرك من خلالها وعي البلاغيين العرب بأهميّة دراسة الإقناعي والتخييلي جنبا إلى جنب .

إشارة في الرّد على مختار نويوات :

وإنّا لنتعجّب من دراسات تجعل من البلاغة العربيّة ذات بعد تزييني كما فعل مختار نويوات في سابقة يندى الجبين لها أمام دراسات تكشف عن الجوانب الحجاجيّة في البلاغة العربيّة وأخرى تكشف عن البلاغة العامة فيها، وهذا الدّارس قدّم عملا مقارنا بين البلاغتين العربيّة والفرنسيّة معتبرا الثانية بلاغة معاصرة، لاندري مدى صحّة هذا الزّعم ، والعمل الذي قدّمه يستحق التنويه من الوجهة المقارنة ويساهم في فهم المشترك والمتميّز في بلاغتنا العربيّة لكنّ حكمه على الدّرس البلاغي العربي بأنّه ذو غاية جماليّة فقط لا يعضده الدّليل العلمي الحقيقي الناشئ عن التنقيب والبحث الجاد

[1] المرجع نفسه :ص :226.

إذ نجده يقول :" وغلبت على البلاغة العربيّة نظريّة الفن للفنّ "[1] أين وجد ذلك ؟؟ هل في كتب المتأخرين والبلاغة الواضحة وبلاغة المستوى الثانوي أم أنّه أساء قراءة البديعيات ولم يضعها في نسقها الصحيح وسياقها الذي تولّدت منه ؟ وما يزيد الأمر غرابة أنّه يدرك أنّ البلاغة العربيّة مصدرها من القرآن الكريم والحديث الشريف، ويصرّ على جعلها لغاية فنيّة لا غير، وكأنّ مصادرها كذلك كانت لهذه الغاية، والدراسات تشهد أن أسمى أنواع الحجاج وجدت في القرآن الكريم، ونجد عند مختار نويوات تلميحا إلى أنّ البلاغة العربيّة لم تبن على النص كاملا إنّما بنت قواعدها على اجتزاء بيت أوبيتين وذلك في قوله :" وشواهده الآية الكريمة والحديث النبويّ الشّريف والبيت الشعري أو البيتان يقوله الشاعر فيبهر الأسماع "[2] وهذا تعميم لبلاغة المتأخّرين على كل البلاغة العربيّة، فهذا الدّارس (مع احترامنا لمقامه العلمي) لم ينظر إلى مختلف الاتجاهات البلاغية ومدارسها، بل وجّه اهتمامه نحو بلاغة التلخيص وما جاء بعدها من شروح وأخذ البديع ومصنفاته بعيدا عن أصوله التي يجب أن يقرأ فيها، ومارس حكما قاسيا جدّا على البلاغة العربيّة التي يجتمع فيها الإقناعي والتخييلي والتأويلي وكذلك السّرد والتّلقّي، والدّراسات لازالت تكشف عن ما كمن في هذه الجليلة التي مكّنت العقل العربي من الفهم والإفهام .

ألم ير مختار نويوات في شروح الشعر ؟ هل غابت عنه البلاغة فيها ؟ خاصّة إذا كان لايعتبر البلاغة إلا علوما ثلاثة تشبه ثلاثيا مرحا أصبح لا يستجيب في كثير من الأحيان لمتطلّبات تحليل الخطاب؟ ألم ينظر في شواهد العلوي صاحب الطّراز كيف يختار نصوصا شعريّة وخطبا ؟ وألم ير كذلك تمثيل حازم بمقاطع كاملة تحوي ما هو

---

[1] مختار نويوات، البلاغة العربيّة في ضوء البلاغات المعاصرة، دار هومة، الجزائر 2013، ص 18.

[2] المرجع نفسه، ص 18 .

سردي في منهاجه ؟ ولا نذهب بعيدا ونحن نجد في اهتمام المفسّرين بلاغيا بالتناسب بين آيات القرآن الكريم وبين السّور القرآنية وهذا البقاعي في كتابه الجليل " نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور " وجوهر عمله في البلاغة وهي بلاغة نصيّة تهتم بتماسك الخطاب الكامل، وليس ببعيد عنا عند الغرب اعتبروا علم النص وريثا للبلاغة وهو الذي يهتم بتماسك النص وانسجامه ومقصديّته، ونجد الشرّاح من أمثال الإفراني الذي قدّم عملا بلاغيا راقيا في شرحه لموشّح ابن سهل الأندلسي، كذلك ألم ينظر في عمل ابم مقلاش الوهراني في شرحه للبردة البوصيريّة كيف يتكلّم عن التداخل النصي بين البردة والسياق الأدبي العام ؟هذه جوانب من درسنا البلاغي غطّت عليها المدرسيّات الضّحلة التي يدرّسها أساتذة عربيّة لا يدركون ما يصنع بها تلاميذهم ولا ما يصنعون هم بها ضعف الطالب والمطلوب، إنّ بلاغتنا للفهم والإفهام لفهم كلام المولى عزّ وجلّ وإحسان العمل به.

إنّ مصطلح " البلاغة العربيّة " ليس حكرا على بلاغة التلخيص وما جاء بعدها من شروح، ولا يقصد بها فقط علوما ثلاثة (معاني / بيان / بديع) وإذا أطلقناه نحن نريد به إمبراطوريّة تجمع دراسة الخطاب والمتلقي والسياق و..و.. ، وكذلك عندما يطلق اسم البديع لا يتبادر إلى ذهن القارئ الذّكي الواعي محسّنات للتزيين بل البديع نسق بلاغي له مدرسته وأهدافه وتطبيقاته، إنّما انتكست أعلامه مع فهم ضيّق من طرف المعاصرين الذين قاسوه على بلاغة المحسنات الغربيّة، وهذا حكم قاس على درس بديع كدرس البديع .

إنّ البلاغة العربيّة عندما يتشدّق أيّ دارس للحديث عنها يجب أن يحدّد مقصوده منها : هل يقصد بها البلاغة المدرسيّة التي سطّحت العقول وذلك بسوء فهمهم لها واجتزائها من أدبيّتها وإقناعيّتها ؟ أم يقصد بها البلاغة بأنساقها المختلفة التي تهتم بالحجاج والشعر والتلقّي والتأويل والسّرد ن وهذا المبتغى الثاني هو الذي رست عليه

البلاغة العربيّة الحقّة، ونجد العقل العربي لم يخرج من البلاغة إلا لماما لأنّها عمدة تحليل الخطاب، وما الفقه إلا تحليل للخطاب وكذلك التفسير والأصول وما شئت من علوم المسلمين الشرعية ولذلك يصيح الأستاذ الجليل الدّكتور محمّد محمّد أبوموسى أستاذ ورئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر وهو يحذّر من مغبّة إقصاء العلوم العربية في فهم ديننا وتحليل أدبنا قائلا :" ذكرت الفقه والتفسير والنحو والحديث .. ولم أتكلّم عن الشّعر ... إنّما أتكلّم عن علوم هي عند الناس بعيدة عنه، وفي الحقيقة هي مغموسة فيه، ولو أنّك قلت إنّ العلوم العربيّة والإسلاميّة قائمة على تحليل النّص، لم تكن مخطئا ... أمّا علم البلاغة فإنّه أدخل كل هذه العلوم في هذا الباب لأنّ طلبته في النص "[1]

إذن تحديد مفهوم البلاغة ورصد العوامل التي أسهمت في نشأة الدرس البلاغي العربي والبحث عن جذوره الأولية يخدم قراءتنا للمشاريع البلاغية الجديدة التي تحمل عبء إعادة قراءة الموروث القديم وتدعيمه وتطويره ليقوم بمهمّاة تحليل الخطاب بعد أن طغت على هذا الميدان مناهج متضاربة لم تقدّم إجابة شافية ومشروع العمري يوضح العديد من النقاط التي سنصادفها ويبرر اختيارات مشروعه، وسعينا من خلال هذا المدخل إلى استنطاق ما رأيناه خافيا في درسنا البلاغي ووضعه مشروع العمري باعتباره أساسا يبني عليه نتائجه، ويوسع نطاق امتداداته واهتماماته لينظر في منجزات الآخر وعلى ضوئها يصوغ مباحثه.

فالمدخل يعكس رؤيتنا الخاصة لمسائل النشأة والأصول ويعزز دراستنا لمشروع العمري، ويضعنا على الطريق لنقارب منهجه والنسق الذي اعتمد عليه .

---

[1] محمد محمد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، مكتبة وهبة، ط4، 2012م، ص : 14 .

الفصل الأول

مفهوم البلاغة وخلفيات القراءة في مشروع العمري

1-المشروع البلاغي الجديد، الرحلة والمقاصد:

أ/ تحقيق في معنى المشروع .

ب/ مفهوم البلاغة والبلاغة العامة مساءلات القديم والجديد .

ج/ مراحل مشروع العمري .

د/ مقاصد المشروع .

2-مرتكزات المشروع ومقوماته :

أ/ البحث من الداخل وتوسيع شبكة العلاقات .

ب/ البحث في الخارج .

3-خلفيات القراءة وموجهاتها وسؤال المنهج :

أ/ خلفيات غربية :

أولا:بنيوية

ثانيا :تداولية / حجاجية

ثالثا :نظرية القراءة

ب/ خلفيات عربية .

لا نستطيع الخوض في إحدىٰ أهم قراءات البلاغة العربية في ضوء الدرس الجديد، دون التساؤل عن مفهوم البلاغة عند محمد العمري [1].

وإن السؤال عن ماهية البلاغة، يتكرر مع كل مشروع، ومع كل بلاغة، لأن مكونات الدرس البلاغي وموجهاته واتجاهاته تفرض مفهوما متغيرا من مشروع لآخر، لأن في المفهوم كثيرا ما تحدد المنطلقات، والخلفيات النظرية، والمقاصد ولهذا يتحتم علينا التساؤل :ما مفهوم البلاغة عند العمري ؟ وما هي الخلفيات التي تقف وراء تعامله مع التراث البلاغي العربي ؟ وما المقاصد التي يريد تحقيقها ؟.

وإذا تتبعنا رحلة العمري بلاغيا سنجد البداية مع عمله الموسوم بـ : "في بلاغة الخطاب الإقناعي"، الذي كان ثمرة ونتيجة للاحتكاك بالوافد الغربي وعمل العمري

---

[1] محمد بن عبد الله بن حمو العمري، من مواليد سنة 1945مبقرية الحارة علىٰ ضفاف وادي درعة جنوب المغرب، تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وبعض المتون علىٰ يد والده بقرية الحارة، وعند استقلال المغرب التحق بالمعهد الإسلامي بمدينة تارودانت (معهد محمد الخامس حاليا)حصل من المعهود المذكور (من سنة 1958إلىٰ سنة 1968علىٰ الشهادة الإبتدائية والثانوية والباكالوريا الأصلية بميزة حسن، في سنة 1968التحق بجامعة محمد الخامس حيث حصل علىٰ الإجازة في الأدب العربي بأربع ميزات، واشتغل بالتدريس في المدارس الثانوية من 1972إلىٰ 1981متابعا تكوينه الجامعي بموازاة التدريس، وفي سنة 1989 ناقش أطروحة دكتوراه دولة بعد دبلوم الدراسات العليا، وترقي في مناصب التدريس بالتعليم العالي، وخرج من المغرب إلىٰ جامعة الملك سعود أستاذا للنقد والبلاغة، تقاعد مبكرا في إطار المغادرة الطوعية ابتداء من أوت 2005م، له عدة أعمال بلاغية ونقدية أهمها :بلاغة الخطاب الإقناعي، تحليل الخطاب الشعري البنية الصوتية، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وترجم البلاغة والأسلوبية لهنريش بليت، وعديد الأعمال والمقالات، يعتبر العمري حاليا أحد أقطاب الدراسات البلاغية المعاصرة في العالم العربي بمشروعه (البلاغة العامة)أو قراءة البلاغة العربية في ضوء المعطيات البلاغية الجديدة .

في ترجمة بنية اللغة الشعرية مع محمد الولي [1]، والمطالع لكتابه هذا يجد رؤية جديدة لفن الخطابة العربية وتجديدا للرؤية النظرية البلاغية المؤطرة لها، وكذلك نوعا جديدا للتحليل وآلياته .

ثم توجه اهتمام العمري نحو الخطاب الشعري، الذي بدأ معه في مشروع إعادة صياغة البلاغة العربية انطلاقا من تصور لساني، في كتبه :

- تحليل الخطاب الشعري :البنية الصوتية .[2]
- اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم .
- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية .[3]

وكانت هناك أعمل تسير بالموازاة مع الاهتمام البلاغي كتحقيق التراث والترجمة والإشراف على الدوريات المختصة في تحليل الخطاب، ثم ظهر العمل الذي بين من خلاله العمري نظرته للبلاغة العربية وهو كتابه : "البلاغة العربية أصولها وامتداداتها"[4]، والذي سنتخذه عمادا لدراسة قراءة العمري للبلاغة العربية في ضوء معطيات الدرس الجديد، وما سيأتي بعده من مؤلفات كـ :البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، وكتبه الأخير :أسئلة البلاغة لا تعدو أن تكون رؤية مكملة أو

---

[1] ينظر: www.medelomeri.net

[2] محمد العمري، تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية، الدار العالمية، الدار البيضاء المغرب، 1990م.

[3] محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية، دراسات سال، الدار البيضاء، 1991م.

[4] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010م

شارحة لما وضعه في البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، لكنها ذات أهمية في تناول مشروعه ومعرفة دقائقه .

ونحن إذ نقف على أعمال العمري، نسعى لاستكشاف وجه البلاغة العربية كما تراءت في مرآة الدرس الجديد، بعد أن حاولنا توضيح الرؤية فيما يخص أصولها، فقراءتنا ذات بعدين:مباشر يسعى للبحث في أصول البلاغة العربية مستعينا بمعطيات الدرس الجديد، وغير مباشر يتلمس معالم البلاغة وطرق البحث فيها وعنها من خلال المشاريع المعاصرة ومن بينها المشروع العلمي لمحمد العمري .

1- المشروع البلاغي الجديد، الرحلة والمقاصد :

أ/ تحقيق في معنى المشروع :

إن كلمة مشروع تحمل معاني التخطيط والتحقيق وتوحي بمفهوم التكامل والتناسق خاصة إذا ما تعلق الأمر بمشروع فكري، فأعمال مفكر ما تكتسي صفة المشروع، إذا كانت بينة الأهداف تحقق التواصل بين الأعمال التي ينجزها وتسير أعماله ضمن مقصد واحد، وإن تعددت طرقه الفرعية التي ترجع دائما إلى هذا الأصل الموحد .

فالمشروع "يعني تصورا نظريا لعمل قابل للإنجاز "[1]، وهذا ما ينطبق على عمل العمري، فالرجل يقدم منذ البواكير الأولى تصورا نظريا لما يتصور عليه البلاغة، ويدعمه بالجانب التطبيقي والانجازي، ونجد عنصر النسق والتواصل موجودا بحيث لا يمكن أن نصنف عملا من أعمال العمري خارج نطاق مشروعه البلاغي،

---

[1] محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص :249.

حتى تحقيقه للمسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل للإفراني، فإن الرجل يرجعه إلى عمل بلاغي يرصده ضمن بلاغة النص التي تهتم بجزئيات التواصل والتماسك النصي وتركز على وحدة النص الكامل دون اجتزاء أو تقطيع للأوصال الجامعة للنص الواحد .

وأعمال العمري تأتي في نسق واحد، حتى أعماله في تحليل الخطاب السياسي تندرج ضمن الرؤية البلاغية الموسعة، وهذا الأمر سينعكس على رؤيتنا لمشروع الرجل، فلا يمكن أخذ عمل من أعماله بعزلة عن سابقه أو لاحقه، أو حتى بعيدا عن النسق الذي يعمل عليه الرجل، أو المقاصد التي وضعها لمنجزاته .

وتركيزنا على مفهوم المشروع وعنصر التواصل فيه والمقصدية الموحدة، يضعنا أمام نقطة مهمة وهي عدم الخلط بين آراء صاحب المشروع وآراء غيره في موضوع قد يشترك فيه معه، لأن العمري باعتباره صاحب مشروع ستكون نظرته موجهة في إطار الخلفيات والمنطلقات التي وضعها والمقاصد التي حددها .

ب/ مفهوم البلاغة والبلاغة العامة، مساءلات القديم والجديد :

اهتم العمري بتحديد مفهوم البلاغة وعرض لهذا الأمر في العديد من المواضع في مؤلفاته، فالبلاغة مفهوم تاريخي يتغير بحسب الثقافات والحقب سواء في الثقافة العربية الإسلامية أو الغربية القديمة والحديثة [1]، لكنه بعض طوافه بالنظريات

---

[1] ينظر :محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط1 2013، ص11.

الغربية والتراث العربي يقول:"أما بعد هذه التمهيدات، فمن حق من درس في جامعاتنا، من المحيط إلى الخليج، أن يسألني الآن :عن أي بلاغة تتحدث ؟"[1]

هذا السؤال الذي رأى العمري أنه من الضروري أن يكون حاضرا في الدراسات العربية لأنه محرك البحث الذي دفع الدراسات الغربية إلى البحث عن بلاغات متنوعة ومنه تطوير درسهم النقدي .

ويجيب العمري عن هذا التساؤل مقسما البلاغة إلى كفاءة تعبيرية لأن الكلام البليغ هو الكلام الفعال المعجب، وإلى العلم الذي يصف هذه الكفاءة وهذا الحسن، ويوضح بأن تركيزه سيكون على المعنى الثاني مع عدم تغييب الأول، ليصل في الأخير إلى قوله :"ومن هنا نقول :البلاغة هي علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال "[2]

والخطاب المؤثر القائم على الاحتمال يتوزع عبر نوعين :

1- الخطاب التداولي الحجاجي .

2- الخطاب التخييلي الشعري .

لكن أليس من الضروري التساؤل عن الخلفية المرجعية التي حدد من خلالها العمري مفهوم البلاغة ؟ ألم يتأثر تحديده هذا بالخلفية الأرسطية ؟ وبلاغة الحجاج ؟ وما محل التراث العربي في المفهوم الذي قدمه للبلاغة ؟

ألا نلاحظ بأن المفهوم الذي قدمه العمري يرمي إلى بناء بلاغة مغايرة للتصور القديم ؟إذا كان الأمر كذلك، فما هو التصور الذي يريد العمري ترسيخه ؟في دراسة

---

[1] المرجع نفسه :ص 17.

[2] المرجع نفسه :ص18

متأخرة منشورة له في كتاب مشترك أعده محمد مشبال يوضح العمري أن البلاغة التي يرمي إليها هي بلاغة عامة تؤسس موقعها بدراسة كلا النوعين من الخطاب : التداولي والشعري، ويناقش من خلاله عرضه هذا مسألة البلاغة والخطابة بين الوجهتين :العربية والغربية ؛ موضحا بأن مفهوم (rhétorique) عند الغربيين حديثا يطابق الرؤية العربية التراثية التي ترى بأن البلاغة هي بلاغة عامة تتناول جميع الخطابات، والبلاغات الخاصة بكل خطاب .[1]

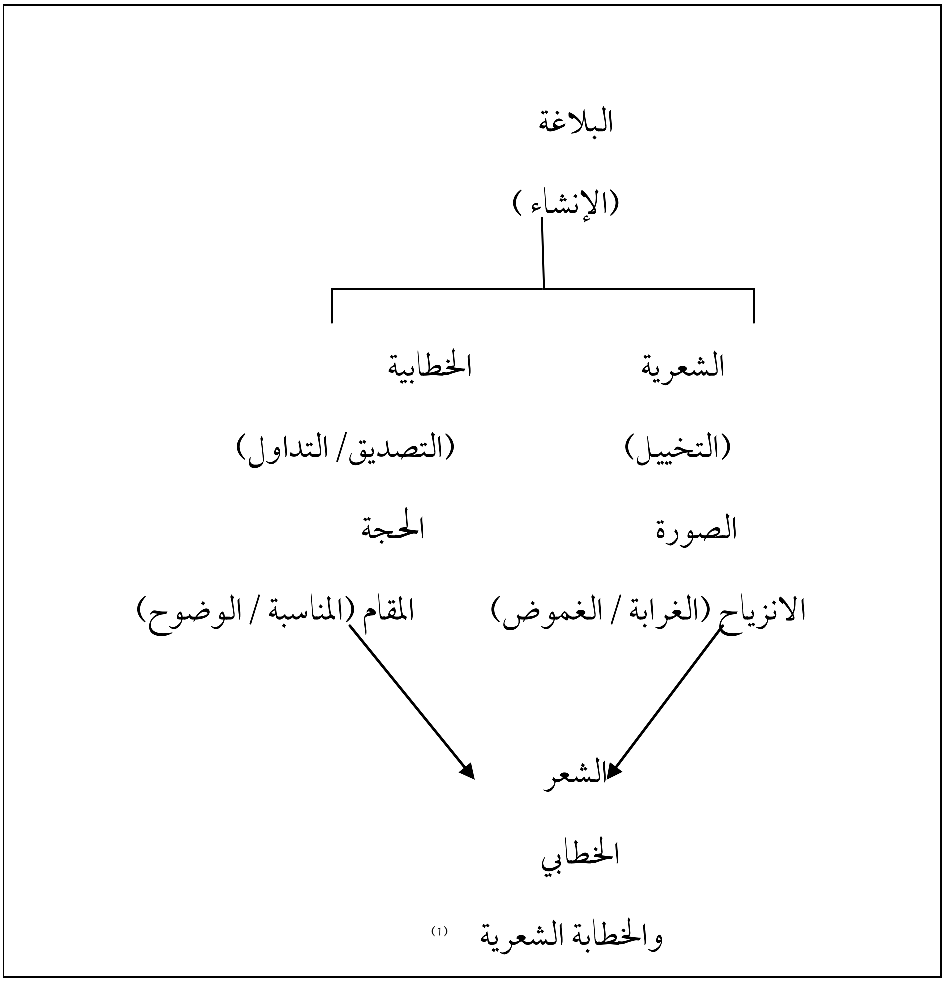
ويشرح مسألة الريطورية التي ينظر إليها باعتبارها تتناول الخطاب الإقناعي، وقد ساهمت الدراسات التداولية في إعادتها إلى الساحة تحت مسمى البلاغة الجديدة أو الحجاج، لكن الاستخدام المتكرر لكلمة بلاغة بين المعنيين السابقين خاصة في الدراسات الغربية، والترجمات العربية يحدث نوعا من الاضطراب، أبقى العمري مترددا لمدة عقدين من الزمن ليصل في النهاية إلى أن البلاغة علم يتناول الخطابين معا التخييلي والتداولي حيث يطلق على الأول الشعرية، وعلى الثاني خطابية محافظا على المفهوم الأرسطي، وكلا المنتجين يرجعان إلى إنشاء المتكلم، أما الخطابة فقد جعلها خالصة للمنتج الكلامي الذي يقصد به الإقناع والتصديق، وقد أشار إلى استيعاب التراث العربي لهذه التقسيمات، كما أن النسق الحديث يتقبل ما يقدمه من تفريعات، يقول في ذلك : " فالبلاغة باعتبارها العلم الذي يتناول الخطاب الاحتمالي المؤثر تنقسم إلى شعرية تتناول كل المخيلات، وخطابية تتناول كل المصدقات (أو التداوليات)"[2]

---

[1] ينظر :البلاغة والخطاب، محمد مشبال، دار الأمان، الرباط المغرب، ط1 2014، ص 42.

[2] المرجع نفسه :ص: 44.

ثم يقدم خطاطة تجمع رؤيته للبلاغة كما يراها بلاغة عامة تتناول بالدرس شتى أنواع الخطاب .



---

[1] البلاغة والخطاب، ص :42 .

لكن العمري لم يصل إلى نتيجة البلاغة العامة دون كفاح وأخذ ورد بين الدراسات، لأن الأمر يحتاج إلى مشروعية الوجود، ولا تنبني المفاهيم والحدود والميادين العلمية عفو الخاطر، فما هي جذور البلاغة العامة وما مشروعية وجودها ؟خاصة وأن العمري يشير إلى التداخل بين الشعري والخطابي كما نلاحظ ذلك في مخططه .

يناقش العمري مسألة البلاغة العامة ومشروعية وجودها ضمن مختلف أعماله التي تهتم بالبلاغة الجديدة والتراث العربي البلاغي، فالبلاغة العامة يتقاطع فيها التخييل والتداول، وهي عبارة عن الوصل بين الشعرية والخطابية وقد " بذل بلاغيون محدثون جهدا فلسفيا ومخبريا، إن صح التعبير، في بيان مدى صلابة الأساس العلمي لقيام بلاغة عامة . البلاغة باعتبارها "علما كليا "يستوعب ثمار علوم اللسان وعلوم الإنسان "[1]، هكذا تظهر رؤية العمري للبلاغة العامة والمرتكزات التي يريد تأسيسها ودعمها من خلالها، فهي العلم الكلي والمصطلح حازمي بحت، ثم يعتمد الأسس الحديثة ليبرر قيام هذه البلاغة .

إن مسألة قيام بلاغة عامة عند الدارسين المحدثين مثل أوليفيي روبول (Olivier reboule) أو جماعة مو (Groupe MU) تستدعي إجراءين :

1- الأخذ من المنجز اللساني والمنطقي .

2- التقريب بين التخييل والإقناع .

وفي ذلك يبين روبول(Reboule) بأن البلاغة تتقاسمها كل من نظرية الحجاج المطورة من طرف بيرلمان(Perelman) عن أرسطو والمهتمة بالحجج على حساب

---

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب، 2012، ص :21.

الصور والأسلوب خاصة منها ما لا يؤدي وظيفة حجاجية، والبلاغة الأدبية (La rhétorique littéraire) والتي تشق طريقها لتكون علما للأسلوب والصور .[1]

وهذان القسمان سيطرا على الدراسات البلاغية، إلى أن ظهر وعي بالمشترك بين المجالين اللذين تتحرك فيهما النظريتان السابقتان، هذه المنطقة التي يركز عليها العمري عمله، وسيحاول رصد معالمها – فيما بعد- في تراثنا البلاغي العربي، محاولا رصد الاهتمامات بهذه البلاغة، والتفريق بين المشاريع الجادة والمحاولات التلفيقية .

ومن الضروري ذكر التساؤل الذي أورده روبول عقب حديثه عن المجالين اللذين يسيطران على الدرس البلاغي إذ يقول :" هل يجب علينا الإختيار بين الحجاج والأسلوبية ؟ وهل يتوجب علينا إضافة أحدهما للآخر تباعا ؟

أما عن موقفنا فإننا نتبنى حلا ثالثا، ونبحث عن جوهر البلاغة ؛ليس في الأسلوبية ولا في الحجاج، ولكن في منطقة محددة هي تقاطع بينهما . بعبارة أخرى ينحو باتجاه البلاغة كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب "[2]

ويعتبر العمري هذا الطموح الذي تريد بلوغه البلاغة أمرا طبيعيا لأنها ترغب في استرجاع الأراضي التي فقدت منها، وأخذتها ميادين عاشت على ميراث البلاغة .

ثم يتجه العمري إلى التراث العربي ليبرر شرعية وجود البلاغة العامة، ويؤصلها ؛ يقول:" فللبلاغة العربية، إذن، مهدان كبيران أنتجا مسارين كبيرين :مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة، ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر

---

(1) Olivier reboule , la rhétorique ,presses universitaire de France ,1er ed ,1984,p:32.

(2) Olivier reboule , la rhétorique ,presses universitaire de France ,1er ed ,1984,p:32.

والخطابة في التراث العربي، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين رغم الجهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته."[1]

فالعمري يرى بأن البلاغة العربية تنطلق من الملاحظات الأولى حول الخصوصية الشعرية والجمالية التي لا حظها العرب، ثم قارنوا بينها وبين النص القرآني، وهذا الأمر قامت بأعبائه الدراسات البديعية، ويوجد طرف ثان كان يبحث في سبل المعرفة والإقناع ويمثله تيار البيان، من الجاحظ إلى ابن وهب الكاتب، ونلاحظ كذلك تداخل ما هو شعري مع ما هو خطابي على مستوى النص المنجز سواء كان شعريا أو نثريا، وهذا ما لفت انتباه البلاغيين، خاصة منهم من تأثروا بالتيار الأرسطي، وأهم شخصية تمت الإشارة إليها هي شخصية حازم لما يقول :" ومعرفة طرق التناسب في المسموعات والمفهومات لا يصل إليه بشيء من علوم اللسان إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة "[2]

فالبلاغة هي العلم الكلي الجامع، وما يجمعه هو صناعتي الشعر والخطابة لقوله:" لما كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع ... وكان القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده"[3]

---

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب، 2012، ص :29.

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق الحبيب بن خوجة، دار الغرب الاسلامي، ط2، 1981، ص:226.

[3] المرجع نفسه :ص :19.

فالبلاغة تجمع بين فعاليات الحجاج والتخييل إذ يبدو اللقاء بينهما على مستوى :

- المواضيع والمعاني .
- المقاصد والأغراض (التأثير)

ويفترقان في خصوصيات تحفظ لكل استراتيجياته الخطابية، في عنصري التخييل والإقناع، وسيشير القرطاجني إلى التداخل بين الأمرين، وفي ذلك يقول العمري :"فالشعر مبني على التخييل، وقد يستعمل مكونات الإقناع الخطابي ضمن هيمنة العنصر الذاتي .وعكس ذلك حال الخطابة التي تنبني على العناصر الإقناعية وتدخل العناصر التخييلية في خدمتها "[1]

وبهذا ينبني مفهوم البلاغة والبلاغة العامة عند العمري على لقاء عنصري التخييل والتداول، ويقوم ببناء شرعية وجود هذه البلاغة وأحقية تطبيقها بالحوار بين النموذج الغربي الحديث والتراث العربي، من أجل ترسيخ هذا النموذج الذي يرى فيه العمري مجالا يسمح باستعادة البلاغة لمكانتها التي كانت عليها واستعادة الأراضي التي فقدتها منذ تحنيط البلاغة .

ج/ مراحل مشروع العمري :

عندما حددنا أعمال العمري بالمشروع العلمي ذي الأهداف والمقاصد المعلنة والضمنية، وحددنا مفهوم البلاغة عنده والأس المعتمدة لبنائها، سيكون من الضروري الإلمام بمراحل هذا المشروع لمعرفة المفاصل التي تتمحور عليها قراءتنا، كذلك تحديدنا لمراحل هذا المشروع هو تحديد للمرجعيات المعتمد عليها، ومعرفة

---

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، المغرب، 2012، ص :57.

التغييرات الطارئة على النظرية النقدية والبلاغية الغربية والعربية وتفاعل العمري معها .

- **المرحلة الأولى :بلاغة الإقناع**

دخل العمري عالم الدراسات البلاغية الجديدة والنقدية من باب الإقناع ودراسة آليات الحجاج، وقد بدأنا بهذا الاهتمام متجاوزين بذلك فترة تأثره بمندور، أو دراسته له لأنه لا يدخل ضمن مشروعه البلاغي، لأن العمري قدم موضوعا للتخرج بعنوان:مندور من التأثرية إلى الواقعية الاشتراكية وقد أفاد العمري من موضوعه هذا ضرورة المعرفة الشاملة المحيطة بالمجال الأدبي والنقدي وكذا مناهج الدراسة الأدبية، لكن فيما بعد توسعت آفاق العمري بين الترجمة والكتابة والتدريس إلى أن وصل إلى البحث في البلاغة العربية، نتيجة الاحتكاك بما هو غربي واضطلاعه على التراث العربي؛ إذ يقول :"وكان من ثمرات هذا الاحتكاك كتاب :في بلاغة الخطاب الإقناعي، الذي أردت أن أنبه فيه إلى البعد الإقناعي للبلاغة العربية، هذا البعد الذي كان حاضرا، عند الجاحظ على وجه الخصوص، ثم نسي مع هيمنة صياغة السكاكي للبلاغة العربية .وقد أعجبت كثيرا في هذه المرحلة بعمل بيرلمان Perelman وتيتيكا Tyteca لعمقه وبساطته "[1]

ثم يبين العمري بأنه في هذه المرحلة اهتم بنص الخطابة العربية في كتابه:بلاغة الخطاب الإقناعي، هذا العمل الذي بدأه ببيان أهمية الجانب الإقناعي في البلاغة العربية، ومسألة إهماله من طرف البلاغيين المتأخرين، خاصة علماء الإعجاز، وإن كان هذا الأمر يحتاج إلى مناقشة لأننا نجد الرماني والباقلاني يشير كل منهما إلى قضية

---

[1] موقع العمري: www.medelomari.com

الاحتجاج، وصحة البرهان مع حسن البيان ، بل نجد الجاحظ يشير لهذا الأمر في حجج النبوة وإثباتها، والعمري في عمله هذا يتخذ من الرؤية الأرسطية إطارا يتناول من خلاله قضية الإقناع في البلاغة العربية، ويقول في ذلك:"ثم رأيت الدارسين الغربيين المحدثين الذين لهم باع في هذا المجال يستنيرون بآراء أرسطو، بل ويعتبرونها حديثة ومناسبة للمجتمعات الحالية . فزاد اقتناعي بإمكان تأطير اجتهادات البلاغيين العرب بالإطار العام للنظرية الأرسطية "[1]

ونجد العمري، في اعتماده على ما هو أرسطي في قراءة التراث البلاغي، يعتمد على القراءة الغربية لأرسطو، وبالضبط شاييم بيريلمان وتيتيكا في كتابهما:مصنف في الحجاج، ويعتبر العمري من أوائل المعتمدين على هذا المرجع الذي أشاع تسمية البلاغة الجديدة على الحجاج، والعمري أصدر دراسته هذه في سنة 1986م، "وتأتي أهميته من جهتين :

- الأولى أنه أول كتاب ينشره العمري بعد التحاقه للتدريس بالجامعة .
- الثانية أنه كتاب طموح كما يعكس ذلك عنوانه الطويل بالنظر إلى حجمه الصغير .

ومما يلفت الانتباه أن المؤلف أثبت في ذلك الوقت المبكر، ضمن قائمة المصادر والمراجع، كتابين لـ: برلمانPerelman هما مصنف في الحجاج وامبراطورية البلاغة "[2]

---

[1] محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2002، ص:9.

[2] محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب مقاربة لمشروع محمد العمري، ضمن كتاب البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1 2014، ص:251.

هذه الإشارات التي أحصاها اليملاحي فوجدها سبع مرات، والعمري بحد ذاته يبين أهمية رؤية بيرلمان للناحية الإقناعية في البلاغة ويرى ضرورة تسليط الضوء على جانب الإقناع في بلاغتنا العربية ونصوصنا، إذن المرحلة الإقناعية من المشروع البلاغي للعمري تضمنت دراسة الجانب الإقناعي في البلاغة العربية كنظرية وفي الكلام البليغ كنص متحقق بصفة الإقناعية أو الحجاج .

وعند الاطلاع على فحوى كتابه في بلاغة الخطاب الإقناعي، وعنوانه الفرعي مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، نجد حديثه في الفصل الأول عن الموضوع، والمنهج يخصص لمعنى الخطابة عند الغرب والعرب، وتفريقها عن الشعر، باعتباره معاناة فردية، واعتبار الخطابة فعالية مشتركة تأثيرية، هذا ما لا يمنع تقاطعهما.[1]

ثم يتكلم عن أسس بلاغة الخطاب الإقناعي ؛من براهين وأسلوب وترتيب أجزاء القول، ويلاحظ بأنه في كل حضارة يغلب عنصر معين من هذه العناصر، وبالنسبة للخطابة العربية، غلب عليها عنصر الأسلوب، ثم يمضي للحديث عن أنواع الحجج على طريقة أرسطو، وقراءة برلمان له، مقسما إياها إلى حجج جاهزة أو مصطنعة، ويلاحظ عليها إتباعها لثلاثية الإيطوسات الأرسطية المعروفة.[2]

وقراءة العمري لنص الخطابة العربية لم يلغ الظروف الملابسة لنشأتها أو ما سماه بالمقام، وتحديد مواضيعها؛ إذ يقسمها إلى خطابة دينية، خطابة سياسية، وخطابة

---

[1] ينظر : في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2002، ص ص:16، 19.

[2] ينظر المرجع نفسه :ص :27 .

اجتماعية، ولكل منها خصائص وأضرب تتفرع عنها ليدخل في تحديد الجزئيات التي يحلل من خلالها نص الخطبة، بين :المقام والحجج والأسلوب، وعلى ضوئها يقدم عملا تطبيقيا فذا يدرس فيه خطبا للرسول صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر والحجاج بن يوسف كاشفا عن آليات الإقناع في الخطابة العربية والتأطير النظري الذي تنبه له اتجاه البيان البلاغي فيما يخص عناصر البرهان .

وهذا الكتاب ليس نهاية عهد العمري بالإقناع فسنجد اهتمامه بالعنصر الإقناعي لكنه سيعطيه حجمه الطبيعي ضمن البلاغة العامة التي تحوي التخييل بجانب التداول والإقناع ضمن منطقة مشتركة، خاصة في كتابه البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ونجد كذلك للإقناع مكانته في البلاغة العربية أصولها وامتداداتها والذي سنركز عليه لرصد قراءة العمري للبلاغة العربية باعتباره مشروعا مهتما بهذه الرؤية .

- المرحلة الثانية : التصور اللساني البنائي لبلاغة النص الشعري.

تأتي هذه المرحلة ضمن عمل العمري على الخطاب الشعري واهتمامه بالجانب الصوتي معلنا كتابة تاريخ جديد للبلاغة العربية، يقول في ذلك :"دخلت في مشروع إعادة صياغة البلاغة العربية انطلاقا من تصور لساني بنائي يراعي البعد التاريخي، مبتدئا بالمستوى الصوتي الذي كان يعاني من الاهمال رغم كونه يفسر، في نظري، خمسا وسبعين في المائة (75%) من جمالية القصيدة العربية القديمة . وقد نشر هذا العمل الذي اقتضى انجازه أكثر من ثماني سنوات في ثلاثة كتب :

1- تحليل الخطاب الشعري :البنية الصوتية .

2- اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم .

3- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية ."[1]

هنا نلاحظ بأن النص المستهدف ليس الخطابة، بل هو نص الشعر، ويتم التركيز فيه على الجانب الصوتي الذي رأى بأنه مهمش في نظرة البلاغيين ودراساتهم .

ويقوم العمري باستثمار المعارف اللغوية خاصة منها الصوتية من تراثنا العربي، ويدخلها في حوار مع النص الشعري، لتساهم في تفسيره وتعليل اختياره، كل ذلك بالاستعانة بالرؤية البنيوية والطرح اللساني الحديث، هذا ما يفتح الباب على مصراعيه لمعرفة القدرات الوصفية التي تمتلكها البلاغة العربية والتي ينبغي تسخيرها في قراءة وتحليل الخطاب .

أما الكتاب الثاني فقد أراد له العمري "أن يكون مساهمة في تحقيق مشروع ما انفكت الحاجة إليه تتأكد :مشروع تاريخ للأشكال الأدبية .وعلامة هذا التاريخ وشرطه تقاطع البنيوي والتاريخي، وتجاوب الإبداعي (الشعري) والوصفي (البلاغي)"[2].

وهذا الأمر يضع البلاغة العربية كترسانة إجرائية تسخر لتأريخ الأشكال في الشعر العربي في مختلف العصور .

والأسئلة التي طرحها العمري كانت تصب في صميم عمل المؤرخ، لكن ليس أي مؤرخ للأدب ؛بل هو المهتم بالسؤال الرئيس حول أشكال الشعر، ثم السؤال حول اهتمامات البلاغيين بالمقوم الصوتي الإيقاعي القائم على الوزن والتوازن

---

[1] موقع محمد العمري: http://medelomari.perso.sfr.fr/entree.htm

[2] محمد العمري، الموازنات الصوتية، أفريقيا الشرق، ....، ص : 5.

والأداء.[1] لأن الاهتمام بهذه القضايا في رأي العمري هو كشف لبنية هذه البلاغة، وإشارة إلى الأجزاء الغائبة / الحاضرة فيها، والتي عاملتها القراءات التراثية المتتابعة معاملة الغائب ولم تهتم بها .

وقراءة العمري للموازنات الصوتية أعاد من خلالها الاعتبار لكتب البديع، مثل المنزع البديع للسجلماسي، وأعاد النظر في كتب، مثل سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، والملاحظ على عمله هذا، أنه كان بداية جادة للاهتمام بالاتجاهات البلاغية، خاصة في فصله :(موقع الموازنات الصوتية في الاتجاهات البلاغية)، الذي اهتم فيه باتجاه الجاحظ وابن وهب الكاتب، ثم ابن سنان الخفاجي، والجرجاني والباقلاني ليربط النتائج مع مفاهيم التخيل والمحاكاة عند الفلاسفة كابن سينا والفارابي .[2]

أما الكتاب الأخير، فقد كان توسيعا للفصل الثاني من الكتب الثاني، ويقول عنه:"أما الكتاب الثالث فيدخل في إطار قراءة جديدة لتاريخ الفكر البلاغي العربي"[3]فقد أعاد النظر في الاتجاهات المعروضة سلفا، ودعم عمله بالتطبيق على النص الشعري، من مراحل مختلفة، وأدمج عنصر الدلالة مدققا بين المصطلحات البلاغية، ومعتمدا على مفاهيم الكثافة الصوتية، الفضاء (الصوتي أو البصري) والتفاعل بين الأصوات والدلالة، معرفا الموازنات الصوتية بكونها :"تفاعل عنصرين صوتيين أو أكثر في فضاء "[4]

---

[1] المرجع نفسه :ص :09 .

[2] ينظر : محمد العمري، الموازنات الصوتية، ص ص : 47، 132.

[3] موقع محمد العمري :http://medelomari.perso.sfr.fr/entree.htm .

[4] محمد العمري، اتجاهات التوازن الصوتي في الشعر العربي، أفريقيا الشرق ....، ص :137.

هذا العمل الذي يساهم في كشف عديد من المفاهيم الصوتية، التي تشكل الدرس البلاغي العربي، وتضعه أمام استراتيجيات التطبيق بالوقوف أمام النص الشعري ومساءلة إمكاناته الصوتية المالية وعلاقتها بالدلالة، ويتم من خلال تفاعله مع بقية المستويات البنائية للنص، لأن الاهتمام بالجانب الإيقاعي يكشف عن اتجاهات الشعر العربي، بين اتجاه يعتمد على التراكم الصوتي، واتجاه يعتمد التفاعل بين الصوت والدلالة وينحو منحى تحليليا فلسفيا، ويوجد المذهب الوسط الذي يصفه بالتكامل، ويجعله للنخبة العربية غير المتفلسفة .

هذا التفكير الذي يصل بين التاريخ الشعري، والتفسير البلاغي، ويساهم من جهة في كشف المغيب من بلاغتنا العربية، هو ما سيتيح للعمري الانطلاق في مشروع إعادة قراءة البلاغة العربية في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، والذي ستتخذه عمادا في دراسة قضية رؤية البلاغة العربية بعيون البلاغة الجديدة، متخذين من مشروع العمري نموذجا لذلك، دون تضييع أو فصل الكتاب عن كامل المشروع لأن أعمال العمري لا تسمح بهذا الفصل الشنيع الذي لا يراعي مبادئ البحث العلمي في المشاريع الكبرى .

- **المرحلة الثالثة : أصول البلاغة وتأريخها بين النسق والتلقي .**

كان كتاب (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) الخلاصة التي وصل العمري إليها بعد طول بحث في البلاغة العربية، وتنقيب عن أصولها ومحاولة معرفة الخلفيات التي بنت الدرس البلاغي العربي .

وكان يرى العمري بأن عمله ضروري ؛لأن الدراسات التي كانت تمر به وهي قراءات تجزيئية للبلاغة أو اختزالية تحاول أن تختزل البلاغة في رؤية السكاكي أو في

أحيان أخرى تقتصر على قراءة القزويني للسكاكي ومن جاء بعده، مقصية الروافد والاتجاهات الأخرى، هذا الأمر دعا العمري إلى ضرورة التحرك من أجل التأريخ للبلاغة العربية، ليقوم بعمل الجمع بين ما هو نسقي بنيوي وما من صميم نظرية التلقي التاريخية عن ياوس، منطلقا بذلك إلى اكتشاف المناطق المجهولة والمنسية من بلاغتنا العربية .

يقول في ذلك محمد العمري :"كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، هو في الواقع امتداد لكتيب صغير سابق هو :الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية .والأخير جزء من المشروع العام في دراسة :البنية الصوتية في الشعر العربي فخلال انجاز الجزء التاريخي من ذلك المشروع وجدت نفسي أمام خطاطة تصنف البلاغة العربية [...] ثم جاءت ظروف محايثة رجحت التاريخ على البحث في موضوع الدلالة ذلك بعد تزايد الاهتمام بالتلقي في الثمانينات "[1]

ونجد بأن عمل العمري هذا، يتسم بقدر من الشمولية، ومحاولة الجمع قدر المستطاع، ليكون مؤلفه مسحا كليا للدرس البلاغي العربي، مما جعل مشروعه هذا يكون مؤهلا لتنطلق منه دراسات تحمل عناوين فصوله وتوسعها ضمن مشاريع بحث في الدراسات العليا .[2]

[1] محمد العمري : محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط1 2013، ص : 253.

[2] ينظر : موقع محمد العمري :http://medelomari.perso.sfr.fr/entree.htm

لن نوسع القول في هذا العمل الأخير للعمري لأننا سنركز دراستنا لرؤية العمري للبلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة على هذا المؤلف دون إهمال ما يتصل به من أعمال لأنها تنبع من منبع واحد .

د-مقاصد المشروع:

ما يرمي إليه العمري من خلال مشروعه، ليس فقط تاريخ البلاغة العربية بطريقة روتينية تتبع المحطات التاريخية، أو معرفة أهم اللحظات في درسها، بل يتجاوز هذا المقصد الداخلي الضيق ليوسعه إلى تاريخ البلاغة العالمية، ومن المهم أن نذكر عبارة العمري في مدخله العام حول التأريخ في البلاغة العربية أصولها وامتداداتها إذ يستهل عمله ببيان أن كتابة تاريخ للبلاغة العربية مسألة ملحة لاعتبارين عام وخاص ؛ أما الأول فلأن الدراسات المنجزة غير كافية أو أنها جزئية، أما الاعتبار الخاص وهو اعتبار منهاجي يختص بتغير ظروف القراءة وتغير السؤال الأدبي، ثم يردف قائلا :"وقصارى ما يطمح إليه (عمله) أن يكون خطوة في السعي لكتابة تاريخ شامل للبلاغة العربية "[1]

ثم يحدد المسار الذي يسير فيه من أجل مقصده مذكرا بأن التيارات النقدية الحديثة "ترى إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجية الجديدة "[2]ويضع العمري أعماله ضمن هذا الإطار .

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2010، ص :9.

[2] المرجع نفسه :ص :11.

إذن مشروع العمري يهدف إلى تأريخ البلاغة العربية تأريخا يحافظ على الأصول التي بنيت عليها ولا يهتم فقط بالتسلسل التاريخي المتتابع لأن هناك من التيارات والاتجاهات التي تنشأ متوازية ومتابعتها تحتم اعتماد مفاهيم كالنسق والبنية ... وغيرها من المفاهيم التي سنتوقف عندها لنكشف استثمار العمري لها، كذلك من المهم أن نشير إلى أن ما يرمي إليه العمري هو قراءة هذه البلاغة ضمن التيارات المعاصرة وفي ضوئها، وذلك لإغنائها وكشف المغيب منها، ونجد عند العمري غرضا تعليميا يريد الوصول إليه رغبة منه في تغيير طرق تدريس البلاغة التي أصبحت قديمة وتكلست عقول المعلمين والطلبة من جراء تكرارها واجترار الشواهد المعتادة في أبواب البلاغة، ويظهر الهدف التعليمي من خلال الخطاطات والتشجيرات والخرائط المفاهيمية التي يسخرها العمري في سبيل الإفهام، " ويلاحظ أن الأستاذ العمري يولي عناية خاصة لهذه الوسيلة، إذ يعتمد عليها كثيرا في تقريب المادة المعرفية إلى القارئ [...] غير أن الخطاطات تحضر بكثافة في كتاب البلاغة العربية إذ يصل مجموعها إلى خمسة وثلاثين جدولا "[1]

وهذه التقنيات البيداغوجية تفتح المجال للحديث عن مقصد آخر للعمري وهو : الحصول على تاريخ علائقي ونسقي للبلاغة العربية حيث لا تقف الشخصيات والمؤلفات بعيدة عن بعضها البعض كتلك الجزر المتناثرة دون نظام يحفظ نسقها، مع أن تاريخ البلاغة يشهد بعكس ذلك وتكفي قراءة الظروف المحيطة بنشأته لفهم هذا النسق الذي ينتظمها .

---

[1] محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، ضمن :البلاغة والخطاب، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص:255.

لكن العمري يسطر لعمله مقاصد عالمية يهدف من خلالها إلى إعادة الاعتبار للبلاغة العربية ضمن بلاغات العالم، وأن تلتفت الدراسات الحديثة لموقع بلاغتنا وخاصة قراءة العرب لأرسطو ومنهم ابن رشد، وإعطاؤهم المفاهيم الجديدة، وتأويلهم لعمل أرسطو وتكييفه مع وجهة النظر العربية، ليصبح الإنجاز العربي أحد إمكانات البلاغة التي تتيحها خطابة أرسطو أو شعريته، لأن الدراسات الغربية تتجاهل المنجز العربي مع احتفاء العرب بالمنجز الغربي، ولا تعي الدراسات الغربية وفي أحيان الدراسات العربية أن هناك حلقة مفقودة ضمن تاريخ البلاغة في العالم، وإعادة هذه الحلقة تجيب عن عدة أسئلة يطرحها المتن الأرسطي وما يليه ؛لأن أرسطو دخل مشروحا بعقلية عربية إلى الغرب، فلماذا تجاهل هذا الأمر ؟

يقول العمري في هذا الصدد :"المطلوب الآن في الواقع، إذا توضّحت المنجزات البلاغية العربية، بقدر كاف، أن نحاول فتح موقع لنا في تاريخ البلاغة العالمية .أن نخرج من ذلك التاريخ الذي يقفز من أرسطو إلى الشكلانيين الروس، أو من البلاغة العربية القديمة إلى البلاغة العربية الحديثة .فتقديمنا لـ قراءة الفلاسفة العرب لأرسطو وصولا إلى مفهوم التغيير عند ابن رشد، هي ورقة في يد الدارسين الذين سيؤولون الموضوع فيما بعد :وهم على علم بالبلاغة العربية، ليعلموا أن هناك حلقة مغيبة، وأن هناك تاريخا غير عقلاني مبتور للبلاغة العالمية ."[1]

فالبلاغة العربية والتنقيب عن أسرارها وعن تعالقاتها الخارجية يسمح بانضمامها لتكميل تاريخ البلاغة العالمي خاصة فيما يخص النقطة المشتركة بيننا وبين

---

[1] محمد العمري : محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط1 2013، ص : 255.

الغرب وهي قراءة أرسطو، أما ما يخص باقي المنجز البلاغي العربي فلا يمكن أن نجد مكانا يتسع له في تاريخ البلاغة العالمية خاصة ما يتعلق عندنا ببلاغة القرآن الكريم وإعجازه أو دراسة الشعر العربي واستخلاص القوانين البلاغية منه، أو تأسيس الاختيارات الشعرية على أسس بلاغية .

ومحمد العمري يضع منجزه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها بين بعدين:بيداغوجي تحليلي وقد سبق الحديث عنه، وآخر تأويلي "يساهم في ربط المشاريع والمنجزات والكشف عن خلفياتها (أو تفسيرها)واستكشاف مساراتها الكبرى "[1]

هذا البعد الأخير، هو ما أراد العمري كذلك الوصول إليه ؛أي كتابة تاريخ للبلاغة العربية أو دراسة مشاريعها بالبحث الشامل عن الأصول والربط بين المنجزات وإقامة العلاقات واختيار المشاريع وقراءتها في ضوء معطيات عصرها والتفريق بين المشروع الذي يحمل هما نسقيا وبين عمل تراكمي .

2- مرتكزات المشروع ومقوماته :

المقصود من المرتكزات والمقومات هي الأسس والمنطلقات التي بنى العمري عليها مشروعه، والسبل التي اتخذها وسلكها للكشف عن المغيب والمجهول من بلاغتنا العربية .

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2010، ص :6.

أ/ البحث من الداخل وتوسيع شبكة العلاقات :

ينطلق العمري من التراث العربي البلاغي ليفحص مناطقه ويتحسس مكامن القوة فيـه، ويبحث عن الأسئلة البلاغية التي تمكن من الحصول على مشروع بلاغي محدد النسق والمقاصد، ونجد عملية البحث من الداخل أو ما سماه بالاكتشاف من الداخل في بحثه عن أصول ومنابت البلاغة العربية، وربط العلاقات بين هذه الأصول ، ثم في امتدادات المشاريع البلاغية الكبرى .

ومن الأهمية بمكان أن نعرف :ما المقصود بالنسق عند العمري ؟ وما هي الطريقة التي اتبعها في تحديد الخيوط المتحكمة في أصول البلاغة العربية، وتعيين منابعها وروافدها ؟

- أولا :تحديد النسق :

يحدد النسق باعتباره :"مركب من عناصر مختلفة تضبطها علاقة قائمة فيما بينها "[1]ونلاحظ التشابه القائم بين النسق والبنية وإن كان النسق من مضامين البنية ومرتكزاتها لأنه النظام الذي يحكم عناصرها، هذا ما نجده عند بشير تاوريريت عندما يقول :"إن البنية هي نسق من العناصر أو الوحدات المنتظمة فيما بينها تنظيما داخليا "[2]

وإذا توجهنا للنسق عند العمري وجدناه منطلقا نظريا أخذه من البنيوية وسخره كأداة إجرائية تمكنه من رصد الخيوط التي تحرك المشاريع البلاغية والتي

---

(1) paul aron ,denis saint-jacques et alain viala , le dictionnaire du littéraire ,puf,2eme ed ,2010,p:753.

(2) بشير تاوريريت، محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر، دار الفجر للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، 2006، ص: 13.

تؤهلها لأن تكون محورا لدراسة اتجاه معين، وهذا نتلمسه في حديثه عن السياق الذي نشأت فيه الدراسات البلاغية أو الظروف العلمية الفكرية التي أحاطت بها :"لقد تقوى مفهوم النسق والبنية في البحث العلمي العربي منذ البداية، عندما غلب القياس على الرواية .القياس الذي يقوم على استقراء الظواهر واستخراج نظامها الخفي الذي يترجمه الاطراد "[1]

إذن فالعمري في بحثه عن المشاريع والمنجزات سيقيم ويركز بحثه على الأنساق والبنية واستخراج الأنظمة التي تتحكم في المشاريع والمنجزات ؛باعتبار أن البحث العلمي العربي لجأ إلى القياس مرسخا فكرة النسق التي ترجمها علماء اللغة وغيرهم تحت مسمى الأسرار أو السر كما نجدها عند ابن جني(ت) أو الأنباري، ثم يلاحظ انتقال الهم النسقي ومشاغل وجود نظام يحكم الدرس البلاغي في أعمال البلاغيين "فالهم النسقي كان حاضرا في أعمال البلاغيين العرب "[2]

فالعمري سيبحث عن المؤلفات والمشاريع التي تحقق معيار الفكر النسقي، وتنتظم أفكارها ضمن نظام يحكمها ، وهذا ما سيجعله يقصي أعمالا بلاغية بحجة عدم توفر النسق والمقصد، لكن هل كشف العمري كل الأنساق التي تقف وراء الأعمال البلاغية واتجاهاتها ؟

لأننا نلاحظ وجود أعمال لم تعط موقعها من تاريخ البلاغة العربية، فمثلا تناسي العمري لكتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز مع ما

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2010، ص :15.

[2] المرجع نفسه :ص: 15.

يحمله من هموم بلاغية نصية صميمة تعبر عن اتجاه البلاغة النصية التي تهتم بالنص وتنوع في التعامل مع نماذجه هذا التناسي غير مبرر، وإن كان له ما يبرره فهو طبيعة انتقاء العمري التي شابها الاعتماد على المركزيات بحجة توفر النسق فيها، يتبع هذا كذلك تهميشه للمثل السائر لابن الأثير مع ما يمثله من مشاغل البلاغة التطبيقية التي كان فن الكتابة والإنشاء مصدرا لها .

ويصرح العمري بأن من بين أهم مرتكزات عمله في تاريخ البلاغة العربية استخراج أنساق المؤلفات، ومن ثم تحديد المشاريع التي تمثلها بعد أن رأي انتزاع المقولات البلاغية وتجزيئها بعيدا عن نسقها من طرف الدارسين الذين لم يفهموا حقيقة الارتباط بين الدرس البلاغي والظروف المولدة له والعلاقات الكامنة بين جزئياته فيقول :"وبدأ يزعجني ما أسمعه في الندوات العلمية من استشهادات بنصوص منتزعة من النسق، لا نعدم في المؤلف الذي أخذت منه ما ينقضها أو يخالفها مخالفة صريحة .ولذلك كان من بين همومي الموجهة حين تصديت لإعادة قراءة تاريخ البلاغة العربية استخراج أنساق المؤلفات في حوار بين المشاريع والمنجزات "[1]

إذن فتحديد النسق هو المعيار الذي يؤهل العمل البلاغي لأن يكون مشروعا في نظر العمري، وهي رؤية ينجح العمل بها، لكنها تعتمد على نوعية القراءة والرؤية التي يتوجه بها الواحد نحو مؤلف معين فهناك من تنكشف له الأنساق المتحكمة بفعل معرفته بالخلفيات والظروف المولدة للعمل البلاغي وهناك من يرى في أعمال بعض البلاغيين مجرد تراكم وروايات، كحال العمري مع العمدة لابن رشيق

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2010، ص : 16.

القيرواني، فلا نستغرب أن يطلع علينا دارس آخر يؤرخ للبلاغة العربية يضع عمدة ابن رشيق في مركز الدرس البلاغي ويكشف عن نسق لم يره العمري أو لم تكن وجهة العمري تتفق مع مسار نسق صاحب العمدة .

- **ثانيا :اختيار المشروع :**

إذن فاختيار العمري للمشاريع البلاغية قائم على وجود النسق من عدمه، فبعد أن بين منابت البلاغة العربية وعوامل نشأتها الأولية الداخلية منها (الاختيارات الشعرية والنقد)، والخارجية (النص والمعيار وأسئلة النص المقدس) يلجأ إلى اختيار المشاريع الكبرى التي مثلت محطات مركزية في تاريخ البلاغة العربية، والتي يمكننا بالاعتماد عليها في ضوء الوافد الجديد الغربي يمكننا أن نبني بلاغة عربية عامة والمساهمة في وصل الحلقة المفقودة من تاريخ البلاغة العالمية .

واختيار العمري للمشاريع أو ما أطلق عليه اسم "الامتدادات أو النماذج الكبرى"[1] قائم كذلك على التفريق بين المشروع الذي يمثل المقاصد والمنطلقات التي يجب أن يكون عليها عمل البلاغي في بنائه المعرفي، والمنجز وهو ما تحقق فعلا وعيانا ووصل إلينا، إذ يقول العمري : " لقد قادني البحث في موقع الموازنات الصوتية من الرؤية البلاغية [...] إلى تكوين تصور عام عن مسارات البلاغة العربية وخلفياتها الفكرية والأيديولوجية، كما قادني إلى اكتشاف الفروق بين المشاريع والمنجزات وما يؤدي إليه ذلك من تضارب بين منطوق نصوص من المؤلف البلاغي الواحد. "[2]

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2010، ص : 277.

[2] المرجع نفسه : ص :15.

فمن بين دعائم اختيار الأعمال البلاغية عند العمري تحقق المنطلقات والمقاصد المسطرة في المنجز الفعلي .

ولهذا نجد العمري قد اختار دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، ثم سر الفصاحة ليختم الحديث عن الامتدادات بمنهاج البلغاء لحازم القرطاجني لأن كل واحد من هذه المشاريع كان له منطلقات نظرية ومقاصد وضعها وعمل على تحقيقها في منجزه .

لكن يجب أن نتنبه إلى أن نظرة العمري لبعض الأعمال البلاغية وقراءته لها قد توصف بالإجحاف ؛ خاصة ما يتعلق بتصنيف السجلماسي والمراكشي ضمن تيار البديعيات مع أصول البلاغة الأولى خاصة ما أطلق عليه النقد التطبيقي الناشئ عن الخصومات بين القدماء والمحدثين والتي تطورت وأصبحت على شاكلة الدرس البديعي الذي يصمه العمري بالتكرارية والتراكم دون توفر النسق ولذلك لا يدخل ضمن نطاق اهتماماته في الحديث عن المشاريع الكبرى في تاريخ البلاغة العربية، ويقول العمري :"إن هذا الجهد الذي بذله البديعيون لم يتجاوز التصنيف إلى التفسير فهم وإن عايشوا الجدل حول سر الفصاحة وأسرار البلاغة فإنهم لم يهتموا بكشف السر المختفي وراء كل الصور، [...]؛ولهذا كانت عملية التجنيس نفسها بدون روح، لم تختلف كثيرا عن عملية النظم والتحنيط "[1]

هذا هو موقف العمري من مؤلفات البديع، والتي تمثل في رأينا اتجاها مهما ينبغي الكشف عن مقاصده وخلفياته واستراتيجيات عمله، وفي ذلك نجد صنيع

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2010، ص : 64.

محمد مفتاح الذي درس كلا من الروض المريع والمنزع البديع في كتابه التلقي والتأويل وهو المتمم لمجهول البيان السابق عليه .

يقول محمد مفتاح في دراسته للمنزع البديع :"ومن يرجع إلى الكتاب يدرك مجهودا جبارا في القراءة وفي التصنيف وفي الترتيب وفي تقديم قوانين للتأليف يسير على هديها الناثر والناظم للإقناع والإمتاع، كما كان يتغيا قوانين للتأويل تعصم من الهذر والقول في المخاطبات بغير علم "[1]

والرجل يصرح في عنوان عمله، بأنها مقاربة تهدف لكشف الأنساق، والعمري كذلك جعل من توفر النسق معيارا لاختياره المشاريع البلاغية، إذن إقصاء العمري لهذه الأعمال قد يكون للمعنى القدحي الذي اكتسبه معنى البديع في العصور المتأخرة، أو لأن السكاكي جعله تابعا، أو لأن العمري جمع كل الدرس البلاغي البديعي في عملية تعميم شاملة ولم يهتم به، أو ليجعله بابا من الأبواب التي يمكن أن تطرق في المستقبل من الدارسين.

مع أن محمد مفتاح يصرح بأنه قد وجد بهذه المؤلفات ما هو موجود في الدرس البلاغي الجديد، ويقول :"هكذا قرأنا أدبيات في البلاغة الجديدة وفي نظرياتها من إبدالية وتشبيهية فاعتقدنا أنها من بنات أفكار البلاغيين المعاصرين، ولكننا لم نلبث أن وجدنا ابن البناء يذكر الاستعارة التناسبية الإبدالية والاستعارة التشبيهية "[2]

---

[1] محمد مفتاح، التلقي والتأويل مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط3 2009، ص:61.

[2] المرجع نفسه :82.

ويعرج على السجلماسي الذي اعتمد المقاربة الأرسطية في معالجته للبديع في البلاغة العربية وقد كان هدف السجلماسي أن يقوم بإحصاء:"قوانين أساليب النظوم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعة لعلم البيان "[1]

فالرجل يصرح بالهدف والمقصد، ويزيد مفتاح على ذلك، بأن هذا التيار البلاغي البديعي تأثر بما هو أرسطي، وتوافقه مع ما نجده عند الغرب، راجع إلى وحدة الطبيعة البشرية، وهنا نفهم سر اختلاف موقف العمري عن موقف أستاذه، ذلك أن العمري لم يضع مسألة الكونية، والكليات الفطرية، وقراءة النسق الفكري، والسياسي المرافق للأعمال البلاغية ضمن منطلقاته، وإن اهتم بالسياق الفكري المذهبي، وهو الذي مكنه من فهم ابن سنان الخفاجي، فلو سخر قراءة مماثلة وموسعة للبديعيات المتأثرة بنظرية المقولات الأرسطية لخرج بنتيجة مغايرة، ولتمكننا من رؤية مشاريع أخرى تنضم إلى النماذج الثلاث التي اختارها في القسم الثاني من الكتاب الذي نحن بصدد اتخاذه وثيقة لاكتشاف قراءة البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة بعد أن حاولنا تبيان العناصر الأصلية فيها والتي تؤهلها للوقوف جنبا إلى جنب مع الدرس البلاغي الجديد .

ب/ البحث في الخارج :

بعد أن حاولنا الوقوف على شبكة العلاقات الداخلية التي قام العمري بنسجها وتحديد نسقها وعلى أساسها اختار المسارات الكبرى التي سيدرسها، نأتي إلى السبل التي استعان بها لرؤية البلاغة العربية والكشف عن المغيب منها، هذه السبل التي

---

[1] السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، الرباط المغرب، ط1، 1980، ص:180.

أتاحها له الدرس المعاصر الجديد، والعمري تمكن من هذه السبل من خلال القراءة والترجمة والمساءلة .

- أولا :القراءة :

المقصود هنا بالقراءة، هو تلقي العمري للوافد الجديد، وطريقة فهمه وتأويله، ومن ثم استخدامه وتوظيفه في التنقيب عن روافد البلاغة العربية، وكشف المغيب منها .

وقد كان عمل العمري على الخطاب الإقناعي، خطوة أولى في دراسة المغيب والمنسي من بلاغتنا العربية ونصوصنا النثرية والخطبة منها على وجه التحديد، "ويستعين العمري في عمليته البحثية هذه بجهاز مفاهيمي [...]يجمع إلى القديم وعيا جيدا بالبلاغة المعاصرة، وإحساسا مبكرا ببلاغة الحجاج "[1]

إن قراءة العمري خاصة في بعدها التأويلي الذي ينتفع بالنصوص لا من أجل فهمها، بل لتجاوز ذلك إلى فهمها [2] إن قراءته لما كان ينتجه الغرب خاصة مع الدراسات الأولى التي اهتمت ببلاغة الحجاج وحصرت إعادة مكانة البلاغة فيها وهو الاتجاه المنطقي والفلسفي الذي قادة شاييم بيرلمان، قد حدثت في وقت مبكر حين كان النقد العربي المعاصر مفتونا بالبنيوية والبنيوية التكوينية وفي حالات نجده كان لايزال يعمل بالاتجاهات السياقية والفنية، "ومما يلفت الانتباه في ذلك الوقت

---

[1] محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت لبنان، ط1، 2008، ص:255.

[2] ينظر :محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، ضمن البلاغة والخطاب، إعداد وتنسيق محمد مشبال، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص:248.

المبكر، ضمن قائمة المصادر والمراجع، كتابين لبرلمان هما :مصنف في الحجاج "وإمبراطورية البلاغة " وقد أحال المؤلف، في متن الكتاب، على هذين الكتابين ست مرات في الصفحات :71، 77، 78، 128، 130."[1]

إن قراءة العمري للمنجز الحجاجي الغربي فتحت أمامه آفاقا جديدة لتحليل الخطاب العربي لاكتشاف آليات إنجازه، وكانت الخطابة الميدان الذي عمل عليه في مؤلفه الأول :في بلاغة الخطاب الإقناعي، والملفت للنظر هو استيعاب العمري للنظرة الحجاجية البلاغية الغربية وعدم تطبيقها مباشرة على النص العربي إلا بعد المرور على خصوصيات البيئة التي أنجزت هذا الخطاب، وكذلك فحص رأي البلاغة العربية وإن كان غير ظاهر في عمله بشكل جلي، فالعمري عندما يقرأ الأعمال البلاغية الغربية يحاول إجراء عملية تأويل لمضامينها ولا يسارع لتطبيقها على النص العربي مباشرة ولهذا كان تحليله لنص الخطابة في القسم التطبيقي لعمله خاضعا للرؤية العربية أولا ثم يستعين بالخطاطة الأرسطية عبر برلمان، فالرجل لم يأتي بالقالب الحجاجي الجديد ويطبقه بشكل تعسفي على النصوص العربية، وإنما استدعى كل الخلفيات التي تقف وراء النص وتقف وراء تحليل القدماء له .

كذلك نجد قراءة العمري لجماعة مو "Mu" وتأثره بها في مسألة البلاغة العامة rhétorique générale واستفادته من كيبيدي فارغا kibedi varga من خلال كتابه البلاغة والأدب، فلو رجعنا مثلا إلى قراءة العمري لتيار جماعة مو فإننا نجد قراءته لمشروعهم كانت قراءة تعمل بالتوازي مع الوعي بما هو موجود في التراث العربي، فيذكر اتجاههم ضمن التيارات الكبرى للبلاغة الحديثة باعتبار الجماعة تهتم بالصور

---

[1] المرجع نفسه، ص:251.

البديعية أو التيار الشعري البديعي ثم يشير إلى أن هذه الصور (بالمفهوم الذي قصده ابن المعتز)[1]، وهناك قراءة لا تعتمد عنصر النظرة المتوازية أو المقارنة، إنما تعمل على بناء نموذج بلاغي طبيعي؛ يحترم الخصوصيات العربية للمنجز اللغوي ومميزات الدرس البلاغي العربي ويعمل على إتمام الناقص منه بالاستفادة مما هو غربي بما أن البلاغة العربية حلقة مهمة لاستكمال البلاغة العامة العالمية، وهنا نجد العمري يقدم مشروع البلاغة العامة من خلال قراءته لهنريش بليث وكيبيدي فارغا، خاصة عندما ترجم للأول .

ومن الضروري التساؤل، عن منهج العمري في قراءته للوافد الجديد القادم من الغرب ؟ فالرجل كان متشبعا بالتراث العربي، ليس في طور دراساته الجامعية، بل من قبل ذلك، من أيام الكتاب الأولى، ولهذا فقراءته للمعطيات البلاغية والنقدية الجديدة تمت باحترام الخصوصية التي يتميز بها التراث العربي، وكذلك كانت تبحث في الدراسات الغربية بعيون عربية، تمتلك خلفيات تمكنها من استكشاف الجديد والاستفادة منه، وفهم القديم في ضوئه، وكان البحث في جذور الدرسين العربي والغربي يمنع من تغليب رؤية أحدهما على الآخر، أو تقييده، مع أن العمري يصر على السير وفق المسار الأرسطي[2]، متتبعا أعلام الفكر العربي في قراءتهم المذهلة لمنجزاته (فن الشعر والخطابة)، لكنه يسير على هذا الطريق محترما خصوصية المتن العربي، وخصوصية العقلية العربية ذات البعد الإسلامي .

---

[1] ينظر :محمد العمري، أسئلة البلاغة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص:29.

[2] ينظر :أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص:284.

كان الحوار هو المحور الذي أقام العمري عليه منهجه، في قراءة الدرس البلاغي والنقدي الجديد، حوار بين التراث والحداثة، ويرفض العمري أن يكون لمسيرته العلمية مساران، بل يؤكد على أن "المسار واحد أوحد، وهو البحث عن بلاغة عربية حديثة من خلال الحوار بين التراث العربي والمناهج والنظريات الأدبية الحديثة ."[1]

هذا الحوار الذي يجريه العمري في مشروعه، يكتسب شرعية التجديد والحداثة من مطالب المشاريع التراثية، ويكتسب التأصيل من العلاقات التي تبنى بين الجديد والقديم، لأننا عندما نمحص النظر في قضايا البلاغة، سنجدها تشترك مع بلاغات أخرى، لأنها إنجاز إنساني، يجمع بين علوم الإنسان وعلوم اللسان، ومما لا سبيل لإنكاره، أن القدماء أشاروا من خلال حديثهم عن القوانين الكلية للصناعة الشعرية أو الخطابية لمثل هذا الأمر، والواجب علينا أن نسعى للتحقق ، أو لتحقيق ذلك الأمر .

- **ثانيا :الترجمة والمساءلة :**

"الترجمة تعني الفهم والتأويل معا، وهذا يتضمن نقل نص من لغة طبيعية إلى لغة أخرى "[2]هذا الأمر يمارسه كل مترجم ؛ فالنقل من لغة إلى أخرى تجري في خضمه فعاليات الفهم والتأويل، ولكل مترجم آفاقه وخلفياته التي تتم من خلالها عملية النقل .

---

[1] ينظر :المرجع نفسه، ص:284.

[2] Paul aron Kdenis saint jacques alain viala Le dictionnaire du littéraire ;puf France 2eme éd 2010 ,p:775.

وإذا رجعنا إلى أعمال العمري ضمن مشروعه نجده استهدف بالترجمة عملين هامين هما :

- بنية اللغة الشعرية لجان كوهن، وكانت الترجمة بالاشتراك مع محمد الولي .
- البلاغة والأسلوبية لهنريش بليث .

وكان عمله في ترجمة هذين العملين متوازيا مع بحثه البلاغي، بل إن ترجمته كانت تستهدف التنقيب عن فهم الغرب للبلاغة، أو توضيح العلاقة بين ميادين مثل الشعرية والأسلوبية بالبلاغة .

فاهتمامنا بالترجمة كمرتكز خارجي، في بناء مشروعه البلاغي، هو كشف عن المساءلات التي أراد العمري طرحها، وإيجاد حلول لها على مستوى الدرسين النقديين العربي والغربي، ونعترف بإمكانية تناول الترجمة عند العمري موضوعا منفصلا، يعمل على الكشف عن آليات الرجل، وخلفيات فهمه وتأويله ومقاصده بالموازاة مع أسئلة البلاغة العربية، لكننا ههنا نريد أن نصل إلى إجابات عن أسئلة من قبيل :

كيف اختار العمري أعمالا بعينها دون غيرها وقرر ترجمتها ؟

ما الذي خرج به العمري من ترجمته لبنية اللغة الشعرية، والبلاغة والأسلوبية ؟ وما أثر ترجمته وفهمه للعملين على بحثه في البلاغة العربية ؟

فنجد العمري يبين بأن ما دفعه لترجمة عمل هنريش بليث هو ذلك التشتت الذي تعيشه الدراسات العربية النقدية في المستوى الجامعي، بين سيميائيات وشعرية وأسلوبية وغيرها، من المقاييس التي تتناثر تناثر النجوم في السماء، إلا أن للنجوم نظاما يحكم تحركاتها، ويربط علاقات تناظراتها مع الكواكب، وهذا ما لا نجده بين هذه

المجالات العلمية في الجامعة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية وجد فيه العمري نموذجا يحاور النظريات القديمة والحديثة ويفتح باب الاجتهاد والاقتراح [1].

وترجمة العمري لهذا العمل أدخلته ضمن أجواء بناء البلاغة العامة، التي سنجد الدعوة لها، ولمقومات بنائها ضمن أعمال : البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، وأسئلة البلاغة، ويقول في ملخص ترجمته :"ينضوي هذا البحث ضمن مشروع كبير لبناء بلاغة عامة جديدة تستوعب إنجازات البلاغة القديمة وتستفيد من اجتهادات الأسلوبية الحديثة، محاولة تجوز جوانب النقص فيهما باقتراح نموذج يقوم على نظرية الانزياح في التركيب والدلالة والتداول "[2]

إن فهم العمري لمقاصد هنريش بليث كانت تصب لصالح بناء نموذج البلاغة العربية العامة، واستحضار المغيب منها، مما جعل ترجمة العمري تكون قراءة، وفهما، وتأويلا يحصل دائما، باستحضار البلاغة العربية، فمثلا عندما يتحدث بليث عن كون البلاغة القديمة فكر نسقي يعمل على الحفاظ على قوانين ينتج حسبها الخطاب، يجعل العمري هذا الأمر قابلا للنقاش في البلاغة العربية ؛لأن هناك تيارا بلاغيا يقوم على دراسة النصوص واستخراج مكامنها وإمكانياتها البلاغية والجمالية.[3]

فقد كانت الترجمة محورا ثانيا بنى من خلاله العمري مشروعه ونظر في ضوئه إلى البلاغة العربية، لكنه لم يحاكي النموذج الغربي، بل سعى لفهم خصوصيات الدرس البلاغي العربي، والاستفادة من الاتجاهات الغربية قدر ما تسمح به الظروف،

---

[1] هنريش بليث، البلاغة والأسلوبية، تر محمد العمري، أفريقا الشرق، المغرب، 1999، ص:09.

[2] المرجع نفسه، ص: 11.

[3] المرجع نفسه، ص:23.

وبنية النصوص المنتجة، والمكونات النظرية، والآليات التطبيقية للجهاز البلاغي الواصف .

وقد كان العمري يفكر في غيره من الدارسين، عندما كان يتوجه لترجمة عمل معين، لإيمانه بأن الدرس الجديد(باعتباره عدة وأداة منهاجية[1]) ضروري ليتمكن الدارسون من فهم الحاضر، ليس بأعين الماضي، ولا بأعين الآخر وأهوائه، بل وفق ما تمليه الحقيقة التي يتضمنها التراث، والضرورة التي توجبها مستلزمات العصر الحاضر .

3- خلفيات القراءة، وموجهاتها، وسؤال المنهج :

لكل مشروع خلفيات تقف وراء بنائه، وموجهات تسير خطوطه الكبرى، وسؤال المنهج هو الخريطة التي يتحدد من خلالها خطوط الطول، والعرض التي سيتموقع من خلالها هذا العمل، كذلك نحن مع العمري سنكشف عن الخلفيات، والموجهات، وسنتطرق لمسألة المنهج الذي اتخذه العمري عمدة في عمله .

ولن نتكلم عن التراث العربي، باعتباره خلفية ؛لأن العمري كانت انطلاقته من التراث، لكن لو اقتصر الرجل على التراث لما استطاع أن يشكل أسئلته، التي قادته نحو بناء هذا المشروع، فمسألة اعتماد التراث كخلفية، أمر لا مفر منه، لكنها خلفية، كان الرجل مضطرا لدعمها بأفكار وافدة، لاستكمال الحلقات المفقودة .

تنتمي أعمال العمري إلى تيار الدراسات البلاغية التي تريد الكشف عن الدرس البلاغي العربي، بالاستعانة بالنظريات الغربية، دون قولبة أو تعسف أو ذوبان

---

[1] ينظر : محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص:284.

في الآخر، فالعمري على وعي بما خلفه السابقون من العرب واللاحقون والأمر بالمثل مع القديم والجديد الغربي [1]

لكن تبرز الخلفيات الغربية التي وجهت نظر العمري وقادته نحو اتخاذ منهج بعينه دون آخر فنتج من ذلك نظرة العمري إلى المسائل البلاغية والتاريخ البلاغي تشكل رؤيته الخاصة دون غيره من الباحثين، وكان على رأس الخلفيات التي قادت العمري منذ أعماله الأولى حتى عمله الذي نركز عليه وهو :البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، كانت البنيوية من أهم الخلفيات التي وجهت رؤيته ومنهجه في البحث والتنظيم، ونجد التداولية والحجاج من أهم الجزئيات التي حضرت عند العمري بالإضافة إلى إدراجه لرؤية التلقي التاريخي في قراءة الأعمال البلاغية ويحضر إلى جانب ذلك تيارات نقدية وبلاغية معاصرة أسندت مشروعه .

أ/ الخلفيات الغربية:

- أولا :البنيوية :

تعرف البنيوية (Structuralisme) على أنها تيار / منهج / طريقة في البحث ناتجة عن تظافر عدة تيارات من الشكلانيين الروس ومجموعة براغ والأنثروبولوجيا واللسانيات البنيوية وهذه التيارات وجدت سندا لها في أعمال فرديناند دي سوسير .[2]

---

[1] ينظر :محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص: 243.

[2] ينظر : paul aron ,denis saint jacques ;alain viala; Le dictionnaire du littéraire ,puf,2eme ed 2012 p:735.

كذلك هي "نظرية نقدية مكتملة الآليات [...]اتخذت من اللغة أساسا لها في البروز على الساحة النقدية، ليس اللغة كأداة للتواصل والتعبير، بل هي هنا غاية في حد ذاتها، لا تحيلك إلا على معجمها الداخلي كنظام من العلامات "[1]

وتحظر كلمة النظام/ النسق في كل حديث عن البنيوية باعتبار البنية نقلا عن بياجي(Piaget) لا بد أن تتصف بالشمولية (اتساق وتناسق البنية داخليا) والتحول (تؤثر وتتأثر)، وذاتية الانضباط (عدم اعتمادها على مرجع خارجي)[2]

إن فكرة النسق هي المحور الذي تدور عليه البنية والبنيوية، وهذا ما تشترك فيه مع فلسفتي ديكارت وكانط، فهي تعمل على جعل الذات حبيسة سجن النسق ونسقها هو اللغة وعند العقليين هو العقل[3]، فرحلة البحث البنيوي هو رحلى بحث عن النسق واكتشافه أو جمع التصور المشتت تحت طائلة نظام نسقي .

فكرة النسق هذه أخذها محمد العمري واستعان بها في إطار إعادة قراءة الدرس البلاغي العربي والكشف عن تياراته واتجاهاته وربط العلاقات (وفكرة العلاقة فكرة محورية عند البنيويين) واكتشاف الأدوار التي يؤديها كل اتجاه ضمن نسقه أو ما يفيد به أنساقا أخرى، لأن البلاغة العربية ليست مجموعة من المؤلفات والأسماء والفنون

---

[1] بارة عبد الغني، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2005، ص: 96.

[2] ينظر :ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط5، 2007، ص:71

[3] ينظر :بارة عبد الغني، إشكالية تأصيل الحداثة، ص:98.

الكلامية لا صلة بينها عيت في الحي انتسابا، وفي أحيان نجد أعمالا لا نستطيع تصنيفها ضمن الاهتمام البلاغي لغياب الوعي النسقي .

لكل هذا يقول محمد العمري :"ولا شك أن للمعالجة البنيوية اللسانية، جدوى كبيرة في استخراج الأنساق وتفسير الفعالية "[1]

فعمل العمري على المشاريع البلاغية التراثية تمكن من تصنيفها وتتبع مساراتها أو ما أسماه بخطوط الطول والعرض كانت البنيوية بمفهوم النسق الذي تحمله هي الموجه في تغليبه على الرؤية، بل إننا نجد الرجل أصبح يبحث لا عن النسق كوصف تتسم به التيارات البلاغية العربية، بل في داخل أعمال البلاغيين وما أحاط بهم من دراسات لغوية ودينية، وهنا يصبح للنسق مفهوم خاص ضمن مشروع العمري فيقول :"لقد تقوى مفهوم النسق والبنية في البحث العلمي العربي منذ البداية، عندما غلب القياس على الرواية .القياس الذي يقوم على استقراء الظواهر واستخراج نظامها الخفي الذي يترجمه الاطراد [...]فالهم النسقي كان حاضرا في أعمال البلاغيين العرب "[2]

وعمل العمري في قراءة المؤلفات البلاغية كان يحدوه هم نسقي يسعى دائما لاكتشاف النسق المهيمن على المؤلف وهل لديه حقيقة سؤال بلاغي يقوم على أساسه ؟ هو السؤال الذي يكشف من خلاله العمري وجود النسق من عدمه وعدم النسق هو التراكمية التي لا تجمع بين أوصالها مقاصد محددة، ونحن إذا حاولنا تأصيل الرؤية

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010، ص: 11.

[2] المرجع نفسه، ص:15.

النسقية فإننا سنجد الرازي في نهاية الإيجاز يعمل على طريقة العمري مع الفارق في العصر والرؤية والآليات، إذ إن فخر الدين الرازي توجه نحو عملي الجرجاني الأسرار والدلائل وحاول استنباط القوانين العقلية التي يقومان عليها، وفي ذلك نجده يصرح قائلا :"ولما وفقني الله تعالى لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدها ومقاصد فرائدها وراعيت الترتيب مع التهذيب والتحرير مع التقرير [...] وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية "[1].

ويبني الرازي فيما بعد عمله هذا على مقدمة وجملتين وهذا ما يوحي بالنسق العقلي والمنطقي لعمله، فالقراءة النسقية نجد لها أصولا في التراث لكنها للأسف لم تمارس بطريقة موسعة وناجحة كما هو الحال عند الرازي أو ابن رشد في قراءته للخطابة .

وهناك أثر ودليل آخر على حضور الرؤية النسقية (البنيوية)عند العمري، ذلك من خلال استخدامه للخرائط المفاهيمية والمخططات، باعتبارها لغة واصفة ميسرة، وضابطة للعلاقات، وموضحة للأصول والتعالقات، ويبرع العمري في ذلك، معطيا لعمله بعدا بيداغوجيا، ويجعل الدرس البلاغي في مساراته "خريطة واضحة المسالك موصولة المواقع .وبهذا تتحول كتابة البلاغة العربية من الإنشائية الموضوعاتية والتاريخية إلى النسقي البنائية والتأويلية "[2]

---

[1] فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق :نصر الله أوغلي، دار صادر بيروت لبنان، ط1، 2014، ص:25.

[2] محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، ضمن :البلاغة والخطاب، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص:255.

لكن العمري لا يريد أن يجعل من الدرس البلاغي العربي أسيرا داخل أنساقه، إنما يسعى دائما إلى تبيان علاقاته مع بقية الأنساق (الخارجية)، عبر عملية تأويلية تحاول الكشف عن العلاقات وتبرير الأصول والمنطلقات، لأن صاحب المشروع يدرك أهمية دراسة المصادر والملابسات التي أنشأت هذا الدرس، لكن البلاغة العربية تنتمي إلى نسق الثقافة والحضارة العربية، وهذه الأخيرة يسعى العمري إلى إحلالها محلها الطبيعي والتاريخي في سياق الثقافة العالمية من خلال البلاغة .

- ثانيا :التداولية ونظرية الحجاج :

ليس من العسير إيجاد صلة بين التداولية والبلاغة، فالدراسات التداولية وسعت أجزاء بعينها من خطابة أرسطو معطية وجها جديدا لها، لا يناقض البلاغة وإنما يثري جوانبها، وفي ذلك يقول صلاح فضل :"التداولية العلم الذي يعنى بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، مما يطلق عليه سياق النص، ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة مقتضى الحال "[1]

لكن الدراسات التداولية لم تقف عند هذا الحد، بل طورت اتجاهاتها خاصة اللسانية، والتي تصنف اهتماماتها ضمن البلاغة خاصة ما يتعلق بمواضيع التشبيه والاستعارة والمجاز [2]

---

[1] صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، 1992، ص: 21.

[2] ينظر :محمد اليملاحي، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب، ضمن البلاغة والخطاب، دار الأمان الرباط، ط1، 2014، ص:242.

أما الحجاج أو بلاغة الإقناع، فقد أعلن عن وجوده وفرض نفسه باعتماد الفعل والتأثير عبر الفعل الكلامي، خاصة الحجاج اللساني عند ديكرو، فنظريته "تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغات الطبيعية التي يتوافر عليها المتكلم، وذلك بقصد توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية، ثم إنها تنطلق من الفكرة الشائعة التي مؤداها :إننا نتكلم عامة بقصد التأثير"[1]

فالإقناع حسب ديكرو (Ducrot) يقع بشكل طبيعي ضمن أي خطاب، ومحمد العمري انطلق في عمله بلاغة الخطاب الإقناعي من طرح مقارب لهذا الطرح خاصة اعتماده على جزئية اللغة والأسلوب ليبين مكامن الحجاج ضمنها.

ومن الضّروري أن نقف لمناقشة مصطلح " الحجاج "، " الخطابة " و"البلاغة" ؛ وفي رأينا أنّ الحجاج لا يعدو أن يكون وجهة من وجهات البلاغة أو جزءا أو نسقا من أنساقها وهو ذو أهميّة، ولكن لا يمكن تعميمه على كلّ البلاغة، وهو عنصر حاضر في أنواع كثيرة من الخطاب، لكن ليس عمدتها التي بنيت من أجله، أمّا الخطابة والبلاغة فنترك المجال للمترجم الفذ والدّارس الذي نتوق دوما لقراءة منجزاته باحترام وتمعّن، وهو الأستاذ الدكتور محمّد الولي في مقدّمة ترجمته للاستعارة الحيّة La métaphore vive لبول ريكور Paul Ricœur حيث يقول في سياق عرضه لتاريخ الدّرس الاستعاري عند الغرب ضمن الخطابة الأرسطيّة وما جاء بعدها من

---

[1] أبو بكر العزاوي، الحجاج في اللغة، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ج1، ص:56.

شروح وتآليف لاتينيّة :" وحينما تم اختزال المقوّمات الخطابيّة إلى محسّنات، كفّت الخطابة عن أن تكون خطابة لكي تصبح بلاغة، أو بالأحرى بلاغة محسّنات "[1]

فالخطابة ألصق عند الغرب بالإقناع والبلاغة بالتحسين الجمالي، ولكن عندنا وفي تراثنا العربي، الخطابة فن أدبي إقناعي، والبلاغة هي علم يدرس الخطابي والشعري والسّردي، فهي مصطلح يرتفع ليشمل كلّ أنواع الخطاب، ونجد البلاغة عند المتأخرين يقصدون بها البديع أو علوما ثلاثة (معاني / بيان / بديع) وهذا مفهوم قاصر مختزل جاءت الدراسات المعاصرة لتعديله وإرجاعه إلى نسقه الأصيل، لتعود البلاغة العربيّة إمبراطوريّة تعمّ كل أنواع الخطاب دراسة وتحليلا.

كذلك عند الغرب كانت الخطابة سيّدة الإقناع، ثم جاء زمن تحوّلت فيه إلى بلاغة محسّنات تزيينيّة عند اللاتين والقرون الوسطى حتى القرن 19 وبدايات القرن 20م، لتعود مع دراسات الحجاج إلى خطابة جديدة (بلاغة جديدة) Nouvelle Rhétorique، ثم تصبح بلاغة جديدة وعلما يدرس كافّة أنواع الخطاب اللغوي وغير اللغوي (الإشهاري ...)، فهي إمبراطوريّة عامّة .

أما نظرية الحجاج كما يعرضها بيرلمان وتيتيكا في كتابيهما :"مصنف في الحجاج " وبيرلمان في " إمبراطوريّة البلاغة " فأوّل عهدهما بالبحث كان في المجال القانوني

[1] مقدّمة محمّد الولي لترجمة كتاب : الاستعارة الحيّة، بول ريكور، دار الكتاب الجديدة المتحدّة، ط 1، 2016م، ص :12.

والتشريعي، وهناك بدأ بالبحث عن منطق للقيم، ووجدا أن ما كانا يبحثان عنه قد تضمّنه علم قديم مستبعد هو الخطابة القديمة ذات المرتكزات الحجاجيّة [1]

واعتبر بيرلمان أنّ الحجاج هو البلاغة الجديدة، وهي مؤسّسه على فكرتين جوهريّتين :

وجوديّة ظاهراتيّة = ترتكز على مقولة هيدغر Heidegger بأنّ اللغة هي الوجود بكل أبعاده وهي مسكن الإنسان ومن خلالها تتحقّق رؤيته للعالم[2].

تأويليّة هرمينوطيقيّة (herméneutique) = " مفادها ضرورة الانطلاق من اللغة المرسلة في مقام معيّن، ثمّ تفكيكها والغوص فيها للوصول إلى مكوّناتها الأساسيّة وعلاقتها بالمتكلّمين والمخاطبين ."[3]

ويعرّف بيرلمان الحجاج بقوله :" موضوع هذه النظرية هو دراسة تقنيات الخطاب التي تؤدّي إلى التّسليم بالأطروحات المعروضة عليها أو الزيادة في درجة التسليم "[4]

---

(1) Ch,perelman ;l'empire rhétorique :rhétorique et argumentation ,édition :Librairie philosophique ;paris :1977; p:10.

(2) هذه الفكرة مستفادة ممّا ذكره أستاذنا الدّكتور عبد الغني بارة في محاضراته الفذّة بجامعة سطيف في مرحلة الماجستير في مقياس نظريّة الـتأويل التي فتحت لنا نوافذ ما كان لنا بها من علم قط .

(3) محمّد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدّة، 2008، ط 1، ص : 105.

(4) Ch,perelman et Lucie Olbrechts-tyteca ; Traité de l'argumentation ; éd:univ bruxelles p:05 .

فبيرلمان يجعل من الحجاج رديفا مطابقا للبلاغة، ويتميّز الحجاج عند بيرلمان بملامح رئيسيّة هي :

- أن يتوجّه إلى مستمع .
- يعبّر عنه بلغة طبيعيّة .
- احتمالية مسلّماته .
- ألا يفتقر تقدّمه إلى ضرورات منطقيّة محضة .
- نتائجه احتمالية غير ملزمة ولا حتميّة .[1]

ويمكن القول بعد النظر في مشروع بيرلمان وتيتيكا بأنّ الحجاج ذو صبغة فلسفيّة غير ميتافيزيقيّة، فهو أكثر اهتمامه بخطاب كوني وهذا مايفرقه عن الخطابة ذات الاهتمام الجماهيري / الخطابي الذي يصنع القبول أو يزيد فيه، وكذلك يستفيد من الحجاج الخطابي والاستدلال المنطقي بحسب نوعيّة المستمعين، وللحجاج أنواعه من حجاج اقناعي L'argumentation persuasive وهو راجع إلى مخاطَب خاص وجداني محدود يعتمد الخيال والعاطفة، ومن حجاج اقتناعي L'argumentation convaincante يعتمد على الحريّة والعقلانية وهو كوني عام ومطلق، وللحجاج أطره ومكوّناته وطرقه[2]

---

[1] ينظر : أوليفيي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغي، تر محمّد العمري، ص 77.

[2] أحسن من عرض نظرية بيرلمان هو د الحسين بنو هاشم في عمله الجليل : نظريّة الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديدة ط1، 2014م، لأنّ هذا الموضع الذي نحن فيه إنّما هدفه تبيان الحجاج باعتباره خلفيّة من خلفيات القراءة عند العمري وليس الهدف منه التعريف بالحجاج وأطره ومنطلقاته وطرقه الاتصالية والانفصاليّة و....و....

وقد أصبح الحجاج بنظرياته محطّ أنظار الدّارسين، يقاربون من خلاله نصوصهم، مثلما فعل د عبد الله صولة في القرآن الكريم، وكذلك د سامية الدريدي في عملين مميّزين : " الحجاج في الشعر العربي القديم بنيته وأساليبه " وكذلك : " دراسات في الحجاج "

ونظريّات الحجاج التي تمثّل شطرا مهمّا من البلاغة الجديدة، ليست مناهج نقديّة كما يعتقدها ضعيف الرأي وقليل الزاد المعرفي ممّن ينتسب إلى الجامعة أو غيرها من المعاهد، بل هي بلاغة، بلاغة تحلّل الخطاب بآليّات وليس من وظيفتها التقييم والحكم، فهذا منطق النّقد، والنقد اليوم يعيد حساب مساحاته المخصّصة له من قديم الزمن، فيبدو أنّه قد تعدّاها وأخذ كثيرا من أقاليم البلاغة وادّعاها لنفسه ، والآن نحن في عصر البلاغة، لأنّ النّقد للأسف الشّديد لم يقدّم إجابات منهجيّة عن كثير من مضامين الخطاب، وحسبه أن يكون ميدانا للأحكام والرؤى المعلّلة التي يأخذ زاده النظري لتأسيسها من الإمبراطوريّة الكبرى وهي البلاغة ومنها يستمدّ آليّاته ليقيم أحكامه، للنّقد مجالاته ومناهجه ولكن ليس منها بكلّ تأكيد الحجاج، فالحجاج نسق بلاغي نظري وإجرائي .

ولنظريّة الحجاج أثر واسع عند العمري في كتابه الأول وحتى في دراساته التالية، لكن العمري لم يتخذ الحجاج قالبا يطبقه على النصوص، بل اتخذه مسلكا من بين مسالكه لبناء عمل البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وفي الحوار الذي نسوقه أكبر شاهد على ذلك وهو من إنجاز محمد الولي وإدريس جبري :

" أقمتم كتابكم :البلاغة العربية، على مفهومين قرائيين عامين هما : البعد البيداغوجي، والبعد التأويلي، فهل استطعتم أن تنجزوا بهذين المفهومين قراءة جديدة وشاملة للبلاغة العربية ؟

هناك بعد حجاجي كذلك في الكتاب، إلى جانب البعد البيداغوجي والتأويلي، كأني أبرهن على قضايا مشكوك فيها، أركز أحيانا على التفاصيل (مثل التركيز على مدخل كتاب مفتاح العلوم) مع خطاطة مجسدة تكون حجة على ما أقول [..]فالجانب الحجاجي مهم في جعل الحوار بناء "[1]

هنا نلاحظ استخدام العمري واعتماده على استراتيجيات الحجاج، في بناء مشروعه، لكننا لو تفحصنا جيدا فكرته لوجدنا أن للعمري مفهوما خاصا للحجاج، فكما عرفنا من قبل أ ديكرو عرض مفهوم الحجاج اللساني وأن اللغة تحمل في طياتها كفاءات حجاجية، ويوجد مفهوم ميشال مايير الذي يقدم الحجاج على أنه:"دراسة العلاقة القائمة بين ظاهر الكلام وضمنيه "[2] ويضيف صولة بأن الضمني هو السؤال والجواب هو ظاهر الكلام، ونجد أثر هذا المفهوم الحواري حاضرا عند العمري في خوضه في مسائل البلاغة العربية ورغبته في إقناع الطرف الآخر بصحة وجهة نظره، فالعمري لم يتخذ الحجاج آلية فاحصة عن قدرات البلاغة العربية الإقناعية، وفقط، بل واستثمره في بناء درسه البلاغي، لكننا نجد الحجاج، باختلاف اتجاهاته، يفرق أصحابه بين البرهنة الصارمة، وبين الحجاج القائم على الإحتمال، خاصة عند بيرلمان

---

[1] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص:258.

[2] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، دار الفارابي، بيروت لبنان، ط2، 2007، ص:39.

[1]؛حيث نجد الأولى تشيع في المعالجات العلمية والرياضية الصارمة، أما الثانية فهي القائمة على الاحتمال، والعمري اختار أن يعالج موضوعا علميا بطريقة احتمالية، كذلك فإنه استخدم الحجاج بطريقتين :

- خارجية : من خلال معالجته لتاريخ البلاغة العربية واتجاهاتها والدفاع عن التقسيمات التي أقرها .
- داخلية :من خلال بحثه وتدقيقه في مسألة الإقناع عند الجاحظ، أو ما سماه بـ: المعرفة والإقناع إذ يقول :"يتنازع البيان عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مفهومان أو وظيفتان :

1- البيان معرفة :الوظيفة الفهمية .

2- البيان إقناع، أو الوظيفة الإقناعية .

الوظيفة الثانية هي الوظيفة الصريحة والوظيفة الأولى هي الوظيفة الكامنة المتحكمة في مقدمة الكتاب ."[2]

ونجد العمري بهذا الأمر يزاوج بين مفهومي الحجاج : باعتباره آلية للإقناع أو باعتباره علما يدرس الإقناع وتقنياته، لكنه لا يعلن الخلفية الغربية بشكل صارخ يجعل القارئ يضج من حضور الغربي في أحضان التراث العربي ويعكر صفو رؤيته لمجاري واتجاهات بلاغتنا، إنما تشرب العمري المفاهيم الغربية وحاورها بما يستند إليه من

---

[1] ينظر :الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط1، 2014، ص ص: 30، 31.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2010، ص: 195.

تراث عربي ليستفيد منها دون أن يتعسف في إرغام البلاغة بالاعتراف بما ليس فيها أو أن تقصي جزءا منها لأن الغرب لا يوجد عندهم أو لم يهتموا به .

ويوضح صنيعه في ما قدمه حول الجاحظ قائلا :"الفصل الذي خصصته للبيان في كتاب البلاغة العربية كان موجها لإبراز البعد الحجاجي في البلاغة العربية من جهة ومحاورة مجموعة من الدارسين الذين كانوا يبحثون عن مصطلحات نقد الشعر في البيان والتبيين "[1]

والعمري يستخدم مصطلح التداول، ويقصد به غالبا الخطاب النفعي، والتأثيري الإقناعي، ومنه نستطيع القول بأن مفهوم ديكرو للحجاج بأنه ضرورة لغوية تتوفر في الفعل الكلامي قصد التأثير، أخذ طريقه إلى فكر العمري، وجعله يعتمد هذا التقسيم، ويتجاوزه إلى المزاوجة بينهما باعتبارها ضرورة حاصلة في الخطابات الإنسانية .

بل نجد العمري، بعد بحثه في أنواع الحجاج، وانتماءاته بين الحجاج المنطقي، والتداولي اللساني، والحجاج البلاغي يتبع الرأي القائل بالدرجات الحجاجية التي تحدد مستوى كل نص ومرتبته في الإقناع من أجل ألا تطغى الرؤية الحجاجية لوحدها على الدرس البلاغي .[2]

---

[1] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص:285.

[2] المرجع نفسه، ص: 42.

- **ثالثا :نظرية القراءة :**

قامت هذه النظرية في النصف الثاني من القرن العشرين، معلنة الاهتمام بالقارئ / المتلقي، هذا الجزء الذي كان حاضرا / غائبا في النظرية النقدية، فكل نص يوجه لقارئ، يهتم به ويكتشفه، فحضوره كان ضروريا في دورة التواصل الأدبي، لكن الرؤية النقدية التي اهتمت بالنص، أو بالظروف المحيطة، غيبته عن حساباتها وبرامجها في التعامل مع العمل الأدبي، ولذلك قامت هذه النظرية لرد الاعتبار، وقد تمثلت في عديد الاتجاهات ، يقوم عملها على الاهتمام بالقارئ والتلقي[1]، من جماعة برلين إلى مدرسة جنيف، وكذا المدرسة الفرنسية، إلا أن مدرسة كونستانس الألمانية، هي التي تمثل الشرعية المدرسية التي تؤسس طريقها على أعمال منتظمة، وهذا ما يؤكده أحمد بو حسن قائلا :"تعتبر مدرسة كونستنس الألمانية، بما قامت به من أبحاث، والفرضيات النظرية التي وضعتها في نظرية التلقي، المرجع الأساسي في جمالية التلقي التي ستعيد للقارئ أو لقطب القارئ اعتباره [...] لقد أعطيت أوصاف كثيرة لما قامت به هذه المدرسة، فقيل مرة إنها ثورة في تاريخ الأدب الحديث، وأخرى بأنها وضعت نمط استبدال جديد "[2]

وإذا قمنا بقراءة في المصطلح الأساس، نجد أنفسنا مع اتجاهين اثنين، يجمعهما هم واحد، مع اختلاف الأسلوب والطريقة، فجمالية التلقي يتقاسمها اتجاهان :

---

[1] ينظر : Paul aron Kdenis saint jacques alain viala Le dictionnaire du littéraire ;puf France 2eme éd 2010 ,p641.

[2] أحمد بوحسن، نظرية التلقي والنقد الأدبي العربي الحديث، ضمن :نظرية التلقي اشكالات وتطبيقات، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1993، ص:26.

- نظرية التلقي :تهتم "بالكيفية التي تم بها تلقي النص الأدبي في لحظة تاريخية معينة "[1]، ومن الضروري أن تنقب عن خلفيات المتلقين وردود أفعالهم .
- نظرية التأثير :تعتمد على المناهج النظرية والنصية، لاكتشاف استجابات القراء الافتراضيين، الذين بنى النص استجاباتهم مسبقا، ولهذا نجد تسمية أخرى لها، وهي الاستجابة الجمالية .

"وأية نظرية عن الاستجابة الجمالية تكمن جذورها في النص ؛أما أية نظرية عن التلقي فتنشأ من أحكام القارئ"[2]، أما يجمع هذين الاتجاهين تحت سقف واحد مع اختلاف المشارب والطريقة، هو التركيز على عنصر المتلقي، سواء كان ضمنيا أم كان متلقيا حقيقيا .

فجمالية التلقي تستند إلى التأويل والتاريخ عند هانز روبرت ياوس Hans robert jauss، وتستهدف المدونات وترصد تعاقب عمليات التلقي وتغير أفق الانتظار، أو نظرية التأثير الجمالي عند فولفغانغ آيزر Wolwgang Iser التي تأثرت بالظاهراتية ونظرية القص، فكان عمله على النصوص السردية والكشف عن

---

[1] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007م، ص:143.

[2] فولفجانج إيسر، فعل القراءة نظرية في الاستجابة الجمالية، تر عبد الوهاب علوب، المجلس الأعلى للثقافة، د ت، ص:4.

استراتيجيات بناء المعنى من نص وما يحتوي عليه من سجل وآليات أو من القارئ من خلال البياضات والقارئ الضمني .[1]

وإذا رجعنا إلى العمل الذي قدمه ياوس، فإنه قد حاور عديد النماذج التي كانت لها كلمة قبل أن يعلن عن نظرته اتجاه تاريخ الأدب، من اتجاه تاريخاني يؤمن بموضوعية بناء اللحظة التاريخية الماضية، وإعادة بنائها وفقا لشروط عصرها، إلى تاريخ الفكر الذي يرصد جواهر الأدب ومتعالياته، وغيرها من المقاربات التي كان ينظر إليها ياوس، باعتبارها تخلق هوة بين التلقي الجمالي وسيرورته، وبين العمل التاريخي[2]، ولا نستطيع الحديث عن جمالية التلقي عند ياوس دون الإشارة إلى الأصول التي يرجع إليها، والدعائم التي بنى عليها نموذجه في التلقي، فالرجل استفاد مما قدمه الشكلانيون حول اعتبار التاريخ الأدبي تطورا للأشكال الأدبية، وكذلك مفهوم التغريب الذي كان حجر الزاوية في بناء أفق الانتظار، وكان لفكرة تلاقي الآفاق واندماجها أثر واضح على منجز ياوس، وهي الفكرة التي وردت كذلك عند هانس جيورغ غادامير (Hans-Georg Gadamer)، والتي تؤكد على التفاعل بين الفهم الراهن للقارئ / المؤول، وبين فهم النص الذي ينتمي لحقبة سابقة، ولا وجود لفهم ثابت متعالي، يظهر بشكل بديهي ليفرض رأيه كقيمة ثابتة، بل إنه تعامل وفق مبدأ الحوار الدائم .[3]

---

[1] ينظر : عبد العزيز طليمات، فعل القراءة :بناء المعنى وبناء الذات، ضمن :نظرية التلقي اشكالات وتطبيقات، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، 1993، ص ص:149-165..

[2] ينظر :عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص ص :153 – 159.

[3] ينظر :المرجع نفسه، ص:168.

ولقد أخذ العمري بما جاء عند ياوس ؛لأن المدونة البلاغية تغطي حقبا تاريخية ممتدة، وتلقي المنجز البلاغي تغير من فترة لأخرى، وأفق الانتظار يتغير كذلك .

واعتماد العمري على منطلقات ياوس في القراءة والتلقي التاريخي ساعده على بناء تصور لتطور بعض المواضيع البلاغية كمسألة الاختيارات الشعرية، يقول العمري في ذلك :"لا شك أن للمعالجة البنيوية اللسانية، جدوى كبيرة في استخراج الأنساق [...]غير أننا حاولنا أن نستغل بعض مقترحات جمالية التلقي في بعدها التاريخي "(1)

فمن بين أهم المفاهيم التي اعتمدت هي مسألة أفق الانتظار، وكيف فهم اللاحق السابق في مجال البلاغة، باعتبار أن أفق الانتظار هو :"النظام المرجعي القابل للتحديد الموضوعي الذي يعد بالنسبة لكل أثر في اللحظة التاريخية التي ظهر فيها، حصيلة ثلاثة عوامل أساسية :

خبرة الجمهور المسبقة بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه الأثر

شكل ومحتوى آثار سابقة يفترض معرفتها في الأثر الجديد

التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العملية "(2)

هذه العوامل التي ذكرها تلعب دورها إذا حصل تطابق بين أفق انتظار المتلقي والنص الإبداعي، أما إذا نجح النص في تغيير الأفق أو تعديله، فبإمكانه أن يعتمد جزئيا عليها، لكن بطريقة سلبية، وليس بطريقة إيجابية تعتمد التطابق .

---

(1) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2010، ص:11.

(2) هانس روبرت يارس، نحو جمالية للتلقي، تر محمد مساعدي، مطبعة الأفق – فاس، منشورات الكلية العدد الثاني، ص:59.

هذا الأفق الذي أعاد العمري بناءه، في المجال البلاغي، وكشف عن تلقي مختلف البلاغيين للأعمال الشعرية، والأعمال البلاغية للسابقين، والمعاصرين، مثل قراءة بيان الجاحظ من طرف ابن وهب، ومن طرف أبي هلال العسكري، والرؤية المنطقية الصارمة للأول، والمحاولة التلفيقية للثاني، وكذلك كشف من خلاله عن استراتيجية قراءة أصحاب الاختيارات الشعرية، وتلقي النقاد والبلاغيين لاختياراتهم بعد الفصل بين الرواية التي تعتمد على التراكم، وبين الاختيار المؤسس على معايير ضمنية، يقول العمري في ذلك :"ومن المباحث التي بنيت أساسا، وبشكل جلي في إطار نظرية التلقي دراسة الاختيارات الشعرية . فعملية الاختيار كانت عملية قرائية نقدية أعقبتها عملية تأويلية لاستخراج الصور البلاغية . اختار أبو تمام من الشعر العربي على أسس غير معلنة .غير أن انتماء النصوص المختارة وتجانسها، لاشتراكها في خصوصية معينة سهل مهمة القارئ الثاني الذي هو الشارح :المرزوقي .هكذا رأى المرزوقي من المفيد أن يكشف السر، سر الاختيار وأساسه، فكتب في ذلك مقدمة نقدية بلاغية بسط فيها الحديث عن عمود الشعر الذي هو أساس البلاغة في الوقت نفسه "[1]

فالمتأمل في ما اختاره أبوتمام وما علق به المرزوقي يدرك أفق أبي تمام الذي يروم الخصائص الفنية التي تؤهل الشعر ليكون شعرا وليس همه ذكر المطولات أو الحفاظ على والوفاء للنموذج الجاهلي القديم، أو ما عبر عنه المرزوقي بعمود الشعر [2]، ونجد اختيار أبي تمام وأفق تلقيه للشعر المبني على أساسه تدخل فيه اعتبارات عقلية

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2010، ص:12.

[2] ينظر : المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 2003، ص:10.

وأخلاقية لم تكن داخلة ضمن اهتمام أصحاب الرواية، والأسس الضمنية التي كشف المرزوقي عن جملة منها ستعاد طرح أسئلتها في الأسرار عند الجرجاني[1]، في حين نجد اختيار الجاحظ الشعري في البيان والتبيين يقوم على أفق آخر هم الثورة على النمط الأموي القائم على الفخر والتهديد واستبداله بنمط الإقناع والتسليم .

وقد عكف العمري على استكشاف قراءة البلاغيين العرب وتلقيهم لمحاكاة أرسطو، وعن الأفق الذي تلقوا من خلاله عمليه : الشعر والخطابة، وكيف فهموا مسألة المحاكاة وركز على تلقي ابن رشد والقرطاجني لمسألة المحاكاة الشعرية التي حولوها من الفعل إلى اللغة وجوانب التصوير، وهذا الأمر يدخل عند ياوس ضمن تغيير الأفق قائلا :"فالنص الجديد يثير في القارئ طائفة من التوقعات [...]هذه التوقعات يمكنها، مع توالي القراءات أن تتعرض للتغيير أو التصحيح أو التعديل "[2]
وما حدث عند العرب هو التغيير والتعديل للمفاهيم الأرسطية خاصة المفهوم المحوري المحاكاة .

كذلك اعتمد العمري على مبدأ السؤال كما نجده عند ياوس، أين يغدو السؤال أهم من الجواب، لأن كل عمل يقدم إجابة عن سؤال ما، والمتلقي سيبحث عن هذا السؤال، والعمري يصرح بأن "تاريخ البلاغة العربية فعلا تاريخ أسئلة :أسئلة مباشرة

---

[1] ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2010، ص: 84.

[2] هانس روبرت يارس، نحو جمالية للتلقي، تر محمد مساعدي، مطبعة الأفق – فاس، منشورات الكلية العدد الثاني، ص:61.

وضمنية ."[1]، والعمري أقام حوارا بين أسئلة التراث وأسئلة الحاضر، ذلك للكشف عن المحطات الكبرى في تاريخ البلاغة العربية، وعن الأسئلة التي طرحها الدرس البلاغي، داخليا في الحوار بين البلاغيين وبين منجزاتهم ومشاريعهم، وخارجيا لما قام الفلاسفة المسلمون بقراءة المنجز البلاغي الأرسطي .

ويربط العمري بين تلقي الأعمال البلاغية والنقدية وبين تأويلها وترجمتها، باعتبار الترجمة نوعا من التأويل، فتلقي الفلاسفة المسلمين لفن الشعر لأرسطو، كان حدثا يبين تميز الخلفيات المعرفية والأدبية التي صنعت تلقي العرب، وكشفت عن فهم مغاير لما نعهده اليوم حول فكرة المحاكاة الأرسطية، بل إن العمري يوجه اهتمامه للتلخيص باعتباره نوعا من أنواع الترجمة التي تعكس فهم صاحبها وتلقيه للنص، إما بالتطابق والقبول، وإما بالتعديل والتغيير والرفض، وتقديم البديل، وهذا ما حدث مع ابن رشد وحازم القرطاجني، لما غيرا مركز المحاكاة من الفعل التمثيلي، إلى الفعل اللغوي الذي يلعب على أوتار اللغة .[2]

ب-عربية :

يرتكز عمل العمري، كذلك، على الجانب العربي، خاصة منه التراثي، والذي اتخذه عمودا لمشروعه ؛لأن الرجل أعاد قراءة التراث البلاغي، في ضوء المعطيات الحديثة، ولا نستطيع القول بأن العمري قد لخص الأعمال البلاغية التراثية أو شرحها ؛بل كشف عن الغامض، وبين المختفي، وأكمل الناقص منها .

---

[1] محمد العمري، أسئلة البلاغة، ص:107.

[2] ينظر :المرجع نفسه، ص:307.

ونحن قدمنا الغربي على العربي مراعاة لعنوان بحثنا، فكان من اللازم والضروري التطرق للخلفيات الغربية التي تمت من خلالها القراءة الجديدة للبلاغة العربية، واستناد العمري على التراث لم يجعله تراثيا، بل ساعده الوافد الغربي على فهم الأول ودعمه للخروج ببناء علمي متمثل في مشروعه .

1- تراثية :

يصف العمري مرحلة عمله الأولى في البحث النقدي والبلاغي قائلا :"كانت الجسور شبه منعدمة وقتها بين فئتين من الباحثين في الجامعة المغربية، فئة تشتغل بالتراث ولا تعير اهتمام للمناهج الحديثة، إن لم تجهر بمعاداتها، وفئة ترفع شعار الحداثة وتتخذ من التراث مواقف متضاربة تتراوح بين التنكر والإهمال والملامسة من بعيد [...] في هذا الظرف أحسسنا بالحاجة إلى إيجاد منبر للحوار [...] لقد سعينا من خلال هذه التجربة، التي كانت مدرسة لنا أيضا، إلى ردم الهوة المفتعلة بين الباحثين [...] في هذا السياق شرعت في إعادة قراءة التراث البلاغي في ضوء المعطيات المنهجية الحديثة "[1]

إذن فاعتماد العمري على التراث لم يكن تعصبا له، أو تقطيعا لأوصاله وتسفيها لأحلام رجالاته، بل إعادة اعتبار، ونلمح اهتمام العمري بالتراث في بداية أعمال تحقيقه ؛إذ حقق المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل للإفراني، واهتم باتجاه

---

[1] موقع محمد العمري :www.medelomeri.com، المقال تحت عنوان :المشروع العلمي بين المأمول والمتاح .

الإفراني البلاغي وإن لم يدمجه في كتابه البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أما موقف العمري من المادة التراثية فيمكن النظر إليه من زاويتين :

- الزاوية الأولى : وهي زاوية القبول والاعتماد، ونجد ذلك في تناوله لمشروع الجرجاني وابن سنان والقرطاجني مثلا، لأن الرجل وصل إلى أن كل واحد من هذه المؤلفات التراثية يحمل هما نسقيا ومشروعا في طياته .
- الزاوية الثانية :وهي زاوية الاستبعاد والإقصاء :وهذا ما تعرضت له مشاريع بلاغية وأعمال كنهاية الإيجاز للرازي مثلا، فالسكاكي الذي اهتم به العمري لم يكن ليفهم الجرجاني لولا الرازي الذي أعاد استخراج الأنساق العقلية والقوانين المنضبطة، كذلك نجد الرجل يقصي صاحب :"الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز" يحيى بن حمزة العلوي، مع أنه نموذج لمشروع بلاغي يحمل في طياته اهتماما بالنص وإدراجا للخطابة ضمن النصوص التي يهتم بها [1]

وعمل العمري في التراث كانت توجه جزءا لا يستهان به رؤية تراثية ؛ لأنه كان في عديد من المواقع يبحث عن ما يوافق رؤية تراثية بعينها، كبحثه عن الاتجاه الاقناعي الذي رسخه الجاحظ أو اتجاه البلاغة العامة الذي بشر به القرطاجني، هذه الرؤية جعلت العمري يمر على غير قليل من الأعمال دون انتباه للعناصر المكونة لها

[1] ينظر :يحيى بن حمزة العلوي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ط1 2010، ص ص :256-271 .
ويلاحظ في هذا الجزء الذي نتخذه كمثال عن معالجة تطبيقية عند العلوي في موضوع التشبيه كيف يهتم بالشرح والمناقشة الدائرة حول النص، وهذا ما لانجده في عصره .

ولأبعادها، وهو ههنا يعترف بمروره على أبي حيان التوحيدي دون اهتمام كبير بما طرحه الرجل، ثم لما عاد إليه بعد صياغة مشروعه وإنهائه اكتشف صواب منطق الرجل وجودة رأيه وسبقه بلاغيا كما كان على المستوى الفكري، يقول العمري في ذلك:" بعد صدور كتاب البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، وبعد مساهمتي، جهد المستطاع، في إبراز البعد التداولي للبلاغة العربية تنظيرا وتطبيقا، أعدت اكتشاف المحاورة السابعة من ليالي الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي في المفاضلة بين البلاغة والحساب .أقول أعدت اكتشافها لأني تلقيتها، لأني تلقيتها هذه المرة باندهاش، وقد مررت بها قبل ذلك [...] دون أن تثير انتباهي [...] اليوم أنظر إلى مرافعة أبي حيان بدهشة من ظفر بقلادة ذهب في كومة تراب، وأتأسف لأني لم أقدرها حق قدرها عند بناء الفصل المخصص للبيان والخطابة من كتاب البلاغة العربية "[1]

لا نستطيع أن ننكر جهود العمري في جمع المادة البلاغية، وصعوبة ذلك الأمر واضحة لكل من دخل ميدان البحث البلاغي، وهذا ما جعله يهمل المشاريع التي ذكرناها والتي لم يتح لنا ذكرها، كذلك كان العمري يتحرك وفق أسئلة تراثية (بالاضافة إلى أسئلة معاصرة) كالتي يحاول طرحها الجرجاني، أو المرزوقي حول الصدق والكذب والتخييل والتداول، ولكن العمري يعمل على تحيين هذه الأسئلة ووضعها في سياقها الذي يجب أن تكون فيه بحسب طبيعتها البلاغية .

2- معاصرة :

[1] محمد العمري، البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير من الشعر إلى الخطاب، ضمن البلاغة والخطاب، منشورات الاختلاف، ط1 2014، ص:16.

كانت الخلفية العربية المعاصرة حاضرة في عمل العمري، خاصة عمله المحوري البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، لأننا نجد عملين حفزاه على المضي قدما في مشروعه وهما : البلاغة تطور وتاريخ لشوقي ضيف، والتفكير البلاغي عند العرب لحمادي صمود، لكن العمري لا يحاول نقض العملين السابقين أو أن يكون بديلا عنهما وفي هذا يقول :" وعلى هذا الأساس فإن عملنا لا ينسخ، بأي معنى من المعاني، أي عمل سابق عليه . ولا يعتبر نفسه بديلا يغني عن غيره "[1]

لكن موقفه صريح، فيما يتعلق بالدور الذي يلعبه كل إنجاز، "فلكل من هذه اللبنات موقعها في البناء، لكل من الكتب الثلاثة استراتيجية معلنة وفعالة لا يغني عنها الكتاب الآخر "[2]، وهنا يقصد العمري لب المشروع الذي يحمله كل عمل بلاغي يساهم في قراءة البلاغة العربية، فشوقي ضيف تغلب عليه الرؤية التاريخية الشاملة، وهو عمل كبير، يتطلب في الفترة التي أنجز فيها شخصية بحاثة في مقام شوقي أو محمود شاكر، أما عمل حمادي صمود، فتظهر عليه آثار النسق، إذ اتخذ من الجاحظ معلما ومرجعا يتحدد من قبله ومن بعده من خلاله .

ثم يوضح سبق شوقي ضيف ضمن ما أسماه بمدرسة التمهيد، والتي تعرف عليها في أول رحلة بحثه في المكتبة البلاغية، وكذلك سبق حمادي صمود، ضمن مرحلة الكتابة من منظور حداثي لساني مع أن الأجواء المحيطة بالدراسات العربية الأدبية في تلك الفترة، وهي النصف الأخير من السبعينيات، كانت تشيع فيها الدراسات السوسيولوجية /السوسيوبنائية، ولهذا أحرز صمود سبقا استفاد منه

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق المغرب، ط2، 2010، ص: 9.

[2] محمد العمري، أسئلة البلاغة، ص:285.

العمري، وفي ذلك يقول :" ففي إطار هذا المد أنجزنا نحن أيضا مجموعة من أعمالنا السابقة في البعدين التنظيري والتأريخي مستفيدين من عمل حمادي صمود لتكوين تصور عام ."[1]

وقد استفاد العمري من حمادي صمود في مجال الحديث عن روافد الدرس البلاغي العربي ؛إذ نجد صمود يتكلم عن عوامل النشأة[2] ونجد عناصر الشعر والتقعيد اللغوي والمؤثرات الأجنبية يتطرق العمري إليها لكن بطريقة مغايرة لمنهج صمود الذي اتخذ من الجاحظ حدثا يؤرخ من خلاله للبلاغة العربية ويتحدد بعمله كل الدرس البلاغي، مع أن صمود لم يعترف بالجانب الإقناعي صراحة عند الجاحظ .

فالعمري من خلال العملين السابقين أخذ فكرة عن وضعية الدرس البلاغي العربي التأصيلي والتأريخي والدرس الذي يعتمد على المفاهيم الحديثة ومنه انطلق في إنشاء مشروعه وعمله .

[1] المرجع نفسه، ص: 11.

[2] ينظر :حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط3 2010، ص ص 23-57.

الفصل الثاني

محاور قراءة العمري ومساءلات الرحلة، والروافد، والشبكة

1-تحقيق نشأة البلاغة وتصحيح وجهة النظر إلى النقد.

2-روافد الدرس البلاغي وطرق الاكتشاف .

أولا :اكتشاف من الداخل :

1. -الوعي وتطبيق المعيار .
2. -البديع وضرورة إعادة القراءة .
3. -الاختيارات وبلاغة الرصد.

ثانيا :اكتشاف من الخارج :

1. -السؤال اللغوي .
2. -إعجاز النص القرآني .
3. -سؤال المعرفة والإقناع.
4. -بلاغة الآخر وطبيعة القراءة .

ثالثا- شبكة البلاغة وتحديد النماذج:

أ-أسس الاختيار

ب-الامتدادات الكبرى :

أولا: التخييل والتداول :قراءة جديدة للمنجز البلاغي عند الجرجاني.

ثانيا:بحث في انسجام النص : قراءة سر الفصاحة .

ثالثا :البلاغة بين علم الأدب والعلم الكلي .

دخل العمري غمار التراث البلاغي العربي، عارضا رمحه يشق به عباب الاتجاهات، ويكسر الرؤية المألوفة حول العديد من القضايا، التي تمس النقد والبلاغة: درسها، وتقسيماتها، وقراءة كتبها التي وقع الاختيار عليها في المؤلف الذي نصب عليه اهتمامنا في الدراسة، وهو: **"البلاغة العربية أصولها وامتداداتها"**.

وقراءة العمري، كانت لها مرتكزاتها وخلفياتها، والتي سبق لنا أن ذكرناها في الفصل السابق، وفي هذا الفصل سنركز على المحاور الكبرى التي مثلت قراءة العمري للبلاغة، والمساءلات التي طرحتها عليه الرحلة التي قام بها، عبر ما يزيد عن عشرة قرون، أو ما يربو ذلك، ونرصد الروافد التي خصها بالذكر، باعتبارها روافد للدرس البلاغي، ونتطرق لخصائص رؤيته لشبكة البلاغة، ونسج علاقاتها، واستخدامنا لمصطلح الرحلة والشبكة، ليس غريبا عن الدراسات المعاصرة، التي تحاول قراءة التراث البلاغي، وهذا صنيع رولان بارت Roland Barthesالذي جعل قراءته للبلاغة الغربية التقليدية، مقسما عبر الرحلة (تاريخ الدرس البلاغي) والشبكة (بناء الدرس البلاغي ومكوناته وترتيبها)[1]، والسؤال الذي يجدر بنا طرحه، قبل ولوج جزئيات هذا الفصل، هو: هل كانت قراءة العمري للبلاغة العربية تهدف إلى كشف تاريخ جديد للبلاغة، أم كانت تهدف إلى رسم معالم درس بلاغي، يراعي كل مكونات الخطاب الإنساني عامة ؟

يبدو أن العمري، كان يرصد الهدفين معا، لأن الرجل جعل من البحث في تاريخ البلاغة، وتأسيسه من جديد على ضوء المعطيات المعاصرة، بابا لبناء الدرس

---

[1] رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر عمر أوكان، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2011.

البلاغي الذي يدعو إليه، وهذا بالفعل ما حاول تحقيقه في البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، مستضيئا بنظرية التلقي، والحجاج، ونسق البنيوية، وكاشفا عن المغيب من الدرس البلاغي .

1- تحقيق نشأة البلاغة وتصحيح وجهة النظر إلى النقد:

لقد ألف القارئ لدراسات النقد والبلاغة، أن يجد عناوين يتناولها الدارسون، تارة باعتبارها أعمالا بلاغية، وتارة أخرى باعتبارها نقدية، دون أن يطرح الأمر إشكالا عنده، وما يقال عن بداية النقد مثلا، هو ذاته ما يقال عن بداية البلاغة، وما يذكره شوقي ضيف مثال على ذلك، فنجده يسوق مواقف الشعراء، والموازنات ضمن نشأة البلاغة[1]، وكذلك ضمن نشأة الدرس النقدي، بل ويجعل النشاط النقدي عند العرب أقرب للبلاغة منه للنقد الخالص، هذا دون الإشارة إلى الفواصل بينهما .[2]

وقد لاحظ العمري إقصاء الدارسين؛ إما لما هو بلاغي، أو لما هو نقدي ضمن دراساتهم، وكذلك انتزاع الأعمال البلاغية، ومقاطع منها ووضعها بعيدا عن مقاصد مؤلفيها، ومقاصد المؤلفات وميدانها، ولهذا الأمر جعل القسم الأول من عمله للحديث عن أصول البلاغة العربية، وفصل النقدي عنها، مع احترام نقاط التداخل التي تفرضها طبيعة اشتغالهما على المنجز الواحد، ويقول في هذا الصدد :"قد يغري تداخل البلاغي والنقدي في بعض مراحل الدرس الأدبي العربي القديم بإنكار هوية هذا أو ذاك بقليل من التأويل أو بدونه، وهذا طريق سهل، والأصعب منه والأجدر

---

[1] ينظر : شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعرف، القاهرة، ط13، ص:11.

[2] ينظر :شوقي ضيف، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، ط6، ص:31.

بالتبني هو اعتماد التطور التاريخي الراصد لأوجه التداخل والتخارج في اتجاه تكون العلوم وتحقيق هويتها "[1]

فالعمري سيتتبع التطور التاريخي، ويحاول رصد البلاغي والنقدي وتحديد معالم العلمين، بما يتوفران عليه من خصائص، ومميزات، وعلاقات، معتمدا على قراءة نسقية، غالبا ما تكون داخلية حيث تتحاور أنساق المشاريع في المجالين النقدي والبلاغي.

فالملاحظات الأولى حول النص الإبداعي يمكن أن تستثمر ضمن البلاغي والنقدي معا ؛لأن "البلاغة مكون من مكونات النظرية النقدية، وثمرة من ثمرات الملاحظة النقدية الأولية "[2]

ثم يحدد العمري المعيار الفاصل بين ما هو بلاغي، وما هو نقدي، معتبرا بأن كل ما يتعلق بلغة النص، وبنيته في بعديها الشعري والتداولي، تستقل به البلاغة، والنقد يتعامل مع الأمور السابقة لكنه يركبها مع مواد أخرى تتعلق بالأجناس الأدبية، وسيرورة تلقيها، وقضايا أخرى .[3]

وهنا يأتي العمري، لتصنيف مجموعة من الأعمال، بين ما هو نقدي، وما هو بلاغي، وبين ما هو بلاغي له مقاصد نقدية، ضمن المجال الذي ذكرناه ضمن التداخل الذي توجبه طبيعة اشتغال الميدانين على هذا المنوال :

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص:43.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص :43.

[3] ينظر :المرجع نفسه، ص: 43.

أعمال نقدية	أعمال بين النقد والبلاغة	أعمال بلاغية
عيار الشعر	منهاج البلغاء	سر الفصاحة
نقد الشعر	الاختيارات الشعرية	أسرار البلاغة
الموازنة		دلائل الإعجاز
الوساطة		قانون البلاغة
		البديعيات

ويبين بأن التناول النقدي العربي، كان تطبيقا مفتقرا للنظرية التي يمكن أن تقدمها الرؤية البلاغية، وهذا ما حدث مع أصحاب الاختيارات الشعرية، خاصة عمل المرزوقي مع أبي تمام في الحماسة، فعمل أبي تمام كان مؤسسا على معايير تمكن من خلالها من نقد الشعر، واختيار مجموعة منه دون أخرى، والمرزوقي قام بالكشف عن تلك المعايير واستخلصها من اختيار أبي تمام وهذا عمل يبدأ نقديا وينتهي بلاغيا .

أما حازم فقد قدم مفهوم البلاغة الكلي ومحتواه بلاغي لكنه يتجه نحو صياغة نقدية تفسيرية، معطيا البلاغة النقدية التي تتصدى للنصوص. [1] ثم ينتهي العمري إلى خلاصة جامعة قائلا :" فالوعي بالخصوصية هو البلاغة، وتمييز الجيد من الرديء عن طريق ذلك الوعي هو النقد "[2]

---

[1] المرجع نفسه، ص: 45.

[2] المرجع نفسه، ص:46.

معتبرا أن الملاحظات النقدية الأولى هي مهد البلاغة العربية، موضحا طابع التداخل الذي يسم هذا الفصل، والذي يمكن تجاوزه بعدم تضييق حدود البلاغة واختزالها، والذي يلاحظ على كلام العمري، أنه يعتبر كل اهتمام بمكونات النص التخييلية، والتداولية يقع ضمن البلاغي، وما يخرج عن هذا من اهتمام بالأجناس والبيئة الاجتماعية، والملابسات التاريخية، ينتمي إلى النقد، فطبيعة تناول الموضوع هي التي تحدد الانتماء، وزاوية النظر هي التي تجعل النقدي ينفصل عن البلاغي في المهمة والطبيعة، لكن التواصل والتقاطع موجود خاصة إذا اعتبرنا البلاغة علما كليا كما حددها حازم وجعلها العمري بلاغة عامة .

ويمكن إرجاع رؤية العمري لما أورده كيبيدي فارغا (Kibedi varga)حول تداخل أنواع الخطابة الثلاث (القضائية، الإحتفالية والتشاورية)مع الأنواع الأدبية الثلاث (المأساة، الملهاة والشعر الغنائي)، مع ملاحظة الاختلافات الموجودة بينهما كاعتماد الأجناس الأدبية في تحديدها على مواصفات داخلية واعتماد الأنواع الخطابية على مواصفات خارجية(1)، لكن هذا لم يمنع من قيام علاقات بينهما تستدعي بلاغة تتكفل بالنقد الأدبي والتنظير البلاغي .

2- روافد الدرس البلاغي وطرق الاكتشاف :

قام العمري بعملية تأصيلية، لبيان الدعائم التي قام عليها الدرس البلاغي، وجعل منها خمسة روافد، تستوعب الموضوع، منها رافد يعتمد على الاستكشاف من الداخل، وهو الخاص بالنقد التطبيقي، والاختيارات الشعرية ؛لأن العملية تمت داخل المنجز اللغوي، واعتمدت على آلياته للكشف عن الخصوصية البلاغية، وتفسيرها أو

---

(1): ينظر Kibedi Varga ,rhétorique et littérature , didier ,paris 1970,pp:84,86.

بناء الاختيارات عليها، وجعل من البحث اللغوي والمباحث الدينية حول الإعجاز، والإقناع والتأثر بالبلاغة اليونانية روافد تعتمد على الاستكشاف من الخارج، باعتبار أنها تطرح أسئلة خارج الاهتمام البلاغي الصرف، إلا أنها بعلاقاتها معه أصبحت إحدى روافده التي دعمته وصبت فيه .[1]

- **أولا :اكتشاف من الداخل :**

1- الوعي وتطبيق المعيار :

إذا كانت البلاغة هي أول مظهر للوعي اللغوي كما لاحظ ذلك بعض الدارسين المحدثين، فإن جذور البلاغة موجودة مع أو ما أبداه الإنسان من آراء حول جماليات اللغة واستراتيجياتها الخطابية، ومن هذا المنطلق اعتبر العمري نشأة البلاغة مع الملاحظات التي أبداها العرب عن الشعر، واختيارهم لشعر معين دون سواه .

ويجعل من موضوع غرابة الشعر عن سائر المنجز اللغوي أول محطة ينبغي الوقوف عندها، خاصة عند الشعراء أنفسهم، ويولي أهمية للتفسير الميتافيزيقي الذي قدم لتعليل غرابة الشعر وتأثيره وعجيب صنعه، "إنه وعي أولي بالطبيعة الإشكالية للشعر التي ستحاول البلاغة فيما بعد ترجمتها بمفهومين يشكلان وجهين لعملة واحدة :الغرابة والانزياح ."[2]

---

[1] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص:21.

[2] المرجع نفسه، ص: 49.

وكلام العرب عن شياطين الشعراء، خاصة ما نجده عند أبي زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب [1]، هو تفسير إلهامي غيبي للصناعة الشعرية، وتأثيرها وهنا نجد الأصول الأولى، التي تنبه لها العرب لأثر الشعر على النفوس، ودخول المكون الإقناعي ضمن الشعري التخييلي، ويعطي العمري نظرة مهذبة لهذا النوع من التفسير، قائلا :"من المسلم أن هذا المنحى الإلهامي قد تهذب تدريجيا حتى صار مجرد تعبير مجازي استعاري عن الفعل الخارق للغة الشعرية "[2]

وبعد هذه المرحلة الأولى الضاربة في القدم، والتي تسير مع المحطات الأولى للتفكير البشري، الذي يميل وقتئذ إلى نوع من الأسطورية، جاءت مرحلة سار فيها التعليل الإلهامي، جنبا إلى جنب مع فكرة "الشعر صناعة وجهد ومعاناة شخصية " والفكرة تبرز خاصة مع مدرسة عبيد الشعر الذين يقون على أبواب القوافي ينقحون لحول كامل وذلك لإخراج شعرهم على أحسن حال يستطيع الصمود أمام النظرة النقدية الفاحصة .

ثم يبين العمري بأن صناعة الشعر تنبه القدماء لها وصنفوا مراحلها عبر :

أ/ مرحلة الهيكلة الأولية .

ب/ مرحلة الصقل .[3]

فالمرحلة الأولى يكون فيها النص هيكلا وخطاطات أولية تحتاج إلى كساء وملء للفراغات وتصحيح للأخطاء وهذا ما تقوم به المرحلة الثانية .

---

[1] ينظر : أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، دار صادر بيروت، ط2، 2008، ص:40.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010، ص:52.

[3] المرجع نفسه، ص:56.

والبحث عن التفسير الغيبي للصناعة الشعرية وتأثيرها ثم العبور إلى فكرة صناعة الشعر والجهد في نظمه هي مرحلة لم تتجاوز الشاعر إلى الرأي الآخر، فالشاعر وصل إلى مرحلة أصبح يحتكم فيها إلى الناقد الحصيف الذي يمكن له معرفة الجيد من الرديء ويميز مستوى الإجادة والإساءة في المنجز اللغوي.

وعملية الاحتكام للآخر، هدفها كشف الخلل الواقع في الشعر، ويلاحظ العمري بأن الخلل كان مرتبطا غالبا بالجانب الصوتي الموسيقي، مما دعا الخليل إلى كشف النسق الذي تدور عليها لعبة الشعر وكلماته، وهو العروض والقافية .

والعمري، إذ يركز على هذه المرحلة، بالتحليل، والتقسيم، والتفسير وربط العلاقات، يريد من خلال ذلك بيان النشأة الشعرية التخييلية للبلاغة العربية، بجانب جزئيات تداولية إقناعية مهمة تتمثل في: التفطن للأثر الذي يتركه النص الشعري على متلقيه، وتداخل الإقناعي والتخييلي في النص الشعري سيؤهل البلاغة العربية لأن تكون صالحة لإنشاء فكرة البلاغة العلم الكلي أو البلاغة العامة، أين يتقاطع الحجاج والتخييل ويؤدي كل منهما دوره في بناء النص وتلقيه، على الوجه الذي رتبت له مقاصده الضمنية والمعلنة .

2- البديع، وضرورة إعادة القراءة :

لقد كانت قراءة العمري لمؤلفات البديع، قراءة يشوبها التوجس من الجمود، أو غياب النسق والمشروع، مع حضور التراكمية دون نظام يحكمها، وانتقل العمري من الفترة الأولى لظهور الوعي البلاغي واهتمام الشاعر بما يبدعه، ثم لجوئه للحَكم الذي يفصل بينه وبين غيره، وانتقل مباشرة إلى مسألة البديع، مركزا اهتمامه على صنيع ابن المعتز (ت296هـ) .

مع أن هذا الأمر يلاحظ عليه تجاوز المرحلة الإسلامية، ومرحلة المخضرمين(بين العباسي والأموي)، وما نتج عنها من مذاهب وآراء في الحياة والفن، وسيعود العمري فيما بعد، ضمن روافد الدرس البلاغي الخارجية ليدقق في معالم هذه المرحلة، ويبدو أن هنالك صلة وجدها العمري بين الملاحظات البلاغية الأولى، وبين مسألة البديع، فالمسألتان تنتميان إلى نسق واحد وهو : عملية الإبداع الشعري، ومقوماتها، ومذاهبها، وكذلك تلقيها واهتمام النقاد بها .

وتأثـــر الوعي البلاغي والنقدي بما يحدث على مستوى الإبداع الشعري واتجاهاته أمر لا سبيل لإنكاره، فالتنازع الذي كان واقعا بين المحافظين، والمحدثين (اتجاه البديع)[1]، عمل على تنمية رؤية بلاغية ترصد القدرات التعبيرية التي تشكل القاعدة والانزياح، وكان هناك اتجاه يثمن الثبات على القاعدة، والسير على معالمها، ولا يحاول مفارقة أسلوبها، واتجاه يجعل الغرابة والمفارقة والجديد معيارا للجودة والتقدم .

وما صنعه عبد الله ابن المعتز هو بيان أن ما يتميز به التيار الشعري الجديد من أساليب البديع قد سبقوا إليه، من طرف الجاهليين والقرآن والحديث، ويقول في ذلك:

" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم

---

[1] ينظر : محمد نجيب البهبيتي، أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره، دار الفكر، بيروت لبنان، الفصل الرابع، ص ص :172-200.

وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه. ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُعفَ به حتى غلب عليه وتفرغ فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفنّ البيت والبيتين في القصيدة وربما قُرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يُستحسنُ ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوة بين الكلام المرسل"[1]

فمثلما نلاحظ، كان ابن المعتز كغيره من نقاد وبلاغيي عصره، على وعي باتجاهات الشعر وتمكن، من رصد العناصر البارزة، والتي تميز اتجاها عن غيره، فالبديع كان موجودا في الشعر العربي والقرآن الكريم لكن لم يستكثر منه ولما جاء المحدثون غلب على شعرهم فعرفوا به، وهذا ما أراد الرجل إبرازه لألا يقال: عرف بهم .

وتصنيف ابن المعتز للبديع بين البديع (استعارة، تجنيس والمطابقة ...) ومحاسن الكلام (الالتفات، التعريض والكناية ...) يدخل الدرس البلاغي إلى بداية التصنيف في البديع كوجهة بلاغية تروم رصد الأوجه الجمالية للعبارة اللغوية وطرق آدائها ومقاصدها، لكننا نجدها عند ابن المعتز مرتبطة بالحركة الشعرية واتجاهاتها، وهذا ما يعطيها صيغة المشروع، والتواصل مع حركة الإبداع الشعري ومعالجة المسائل النقدية المطروحة خاصة النزاع بين القديم والجديد .

ويرصد العمري تاريخ الدرس البديعي، باعتباره من الروافد التي دعمت البلاغة العربية، ولا حظ أنه مر بمراحل ثلاث :

---

[1] عبد الله بن المعتز، البديع، تح سمير شمس، دار صادر، بيروت لبنان، ط1، 2013، ص:17.

- المرحلة الأولى : تأليف بديعي تولد عن الخصومات وعالج إشكالاتها.
- المرحلة الثانية :تحرير أبواب البديع واستخراجها والفصل بين مكوناتها .
- المرحلة الثالثة :نظمها وشرحها، أو تحنيطها .[1]

وجعل العمري لكل مرحلة علما، أخذه نموذجا يمثلها، فالمرحلة الأولى مثلها ابن المعتز، والمرحلة الثانية مثلها ابن أبي الإصبع المصري (ت654هـ) والذي جعل همه في جمع المادة البديعية وتصحيح حدودها واهتم بالتحليل وربط العلاقات بين صور البديع [2]، ويضع السجلماسي(ت ق 8هـ) صاحب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع[3] ضمن هذه المرحلة، فبالنسبة للعمري لا يعدو السجلماسي مصنفا، أعاد تنظيم المادة البديعية، وهذا الرأي لا يوافق عليه من ينقب ويقرأ الكتاب قراءة تربطه بالسياق الفلسفي لعصره، والمعارف التي كانت منتشرة وما أبداه السجلماسي من آراء حول أساليب البديع واختياراته في تعريف هذه الأساليب ثم التقسيمات التي حقق بها الفروق بين أدق طرق التعبير، أما تطبيقه وتحليله للنصوص من القرآن والشعر فيشهد على رغبة الرجل في استنطاق النصوص بما تحتوية من مؤهلات تعبيرية، ولنا في نوع الالتفاف ضمن نوع الإرصاد الداخل تحت الجنس الخامس وهو الرصف مثال على

[1] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010، ص ص :62-65.

[2] ينظر : ابن أبي الإصبع المصري، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح حفني محمد شرف، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة مصر، 2012.

[3] أبو محمد السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط المغرب، ط1، 1980.

تحليل النص القرآني وتتبع النوع البديعي وفهم النص من خلال تحليل جزئياته[1]، هذا ناهيك عن الخلفيات التي يحملها المنزع من تأثر بفكرة التخييل والمحاكاة عند أرسطو، صحيح أن الرجل كان يهدف إلى جعل الدرس البديعي (باعتباره اتجاها بلاغيا) يتحكم فيه نظام ونسق عقلي ضابط لجزئياته، فاعتمد على مادة سابقيه لكن هذا لاينفي وجود مشروع ومقصد بلاغي أكبر من هذا يرمي إليه .

ويقول العمري عن عمل السجلماسي :"ولهذا كانت عملية التجنيس نفسها دون روح ؛لم تختلف كثيرا عن عملية النظم والتحنيط "[2]

ومن يقارن بين عمل صفي الدين الحلي (ت750هـ) وبين عمل السجلماسي سيلاحظ الهوة بينهما لا محالة، لأنّ السّجلماسي آخذ بناصية الفكر الأرسطي، وعالج كثيرا من قضايا البيان، ولم يكن هدفه مجرّد الشرح أو الجمع، ونأخذ على العمري أنّه لم يأخذ مشروع البديع على محمل الجد ولم ير في المنزع البديع والروض المريع القيمة التي كشف عنها علّال الغازي أو محمّد مفتاح .

ثم ينتقل العمري إلى المرحلة الثالثة ؛أين نجد عمليات نظم البديع وشرحه وهنا تغلب على الرؤية البلاغية النظرة التثبيتية التي تريد الحفاظ على فنون البديع دون زيادة، بل وتم الفصل بين البديع وبين الحركة الشعرية التي أنشأته، وغدا الدرس البلاغي البديعي مجرد صور متناثرة لا يجمع شملها ضابط نسقي أو نظام يرجعها إلى مبادئ كلية، ويصلها بالنص الإبداعي .

---

[1] المرجع نفسه، ص ص :350-352.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:64.

والدرس البديعي البلاغي الذي لم ينل العناية الكافية في مشروع العمري فيما نراه، يشكل نواة لا يستهان بها في الدرس الإعجازي، وسيعود العمري إلى تناول الدرس الإعجازي ومباحث القرآن الكريم دون ذكر الصلة بينهما، فالذي يقرأ صنيع السجلماسي قراءة تأصيلية سيرجعه إلى ما أنجزه الرماني في رسالته "النكت في إعجاز القرآن "[1]، خاصة ما يتعلق بالأجناس الكبرى، والاهتمام بالصور باعتبارها لب العمل الأدبي ومظهر الجمالية وكذلك تعتبر عاملا مساندا لتحقيق الأثر الإقناعي يدخل ضمن الاهتمامات المعاصرة للبلاغة العامة عند جماعة مو Groupe MU، فالتيار البلاغي الجديد للجماعة يعتمد على تصنيف الأوجه البلاغية "les figures"، واستثمارها في الكشف عن استراتيجيات النص الخطابية والشعرية التخييلية "فالبلاغة معرفة الطرق والأساليب اللغوية المميزة للأدب "[2].

مع الفارق بين تيار البديع ومجموعة البلاغة العامّة، فالبديع العربي متأصّل في مذاهب الشعر ودراسات الإعجاز، وله مداخل في بلاغة النص، ونجد البلاغة العامة الغربية لها اهتمامات بنيويّة ذات أصول في الصورة الشعرية، وقلّما تتجاوزها نحو الحجاج على عكس تيار البديع .

واستثمار هذا الجانب في قراءة النصوص الإبداعية، وتأسيس جانب من البلاغة، يهتم بالأساليب التي تتيحها اللغة لصناعة الأثر الجمالي يعزز موقع بقية الاتجاهات، التي تبحث في الحجاج والسرد والشعرية .

---

[1] علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح محمد زغلول سلام وخلف الله أحمد، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، دار المعرف، القاهرة مصر، ط6، 2012.

[2] Groupe MU ,rhétorique générale ,éd le seuil,paris ,1982,p:25.

3- الاختيارات وبلاغة الرصد:

يتعرض العمري للاختيارات الشعرية، ضمن الرافد الأول للدرس البلاغي العربي وهو "النقد التطبيقي "، متخذا من الحماسة لأبي تمام نموذجا يعكس المعايير المعتمدة في تلقي النص الشعري واختياره، والمقاربة التي قدمها العمري تعتمد على رؤية توجهها نظرية التلقي كما يعرضها هانز روبرت ياوس Hans robert jauss، ويقوم العمري في البداية بتصنيف أنواع القراء أوالمتلقين، ويقسمهم إلى:

1. " القارئ العادي المستهلك (المتلقي الأول)
2. القارئ المتأمل (أي الناقد)
3. والقارئ المبدع الذي يتفاعل مع العمل الأدبي فينتج بدوره، معارضا للمقروء بشتى صور المعارضة ." [1]

فالناقد جزء من عملية التلقي، ونجد في التراث العربي نماذج من التأليف تعتمد طريقة الاختيار والرواية للشعر وتضعه بين أيدي القراء، وهؤلاء الذين يقومون بعملية الاختيار يؤسسون عملهم على معايير، فهم نقاد تطبيقيون، وينطبق عليهم اسم النقد بمفهومه القديم باعتباره تمييز الصحيح من المزيف بين الدنانير .

ينطلق العمري في هذه الجزئية من مشروعه من الفصل بين الرواية والاختيار، باعتبار أن الرواية تسعى للحفاظ على التراث وتوثيقه وجعله مركزا، أما الاختيار فيجعل القيم الفنية التي تكتشفها الذات المتخيرة همه المركزي، ولا يهتم المتخير بكمال

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2010، ص:68.

النصوص أو نسبتها بل ما يهمه هو قيمتها الفنية والمضمونية التي أهلتها لتجذب انتباهه وتتفاعل مع ذوقه وذوق معاصريه ممن ينتمون إلى تياره .[1]

والحماسة لأبي تمام تمثل هذا النوع من التأليف، فعمله ينتمي لحركة تجديدية، تعتمد على مفهوم التفاعل بين الأخلاقي، والفني، والفكري، واعتمادا على هذه الجزئيات الثلاث، أمكن العمري تصنيف توجهات تاريخ الاختيار الشعري القديم كالآتي[2] :

الاهتمام الموضوع في المقام الأول	المزاوجة بين الموضوع والصورة	الاهتمام بالصورة في المقام الأول
-البحتري في:(الحماسة) -ابن داود في:(الزهرة) ومؤلفات كثيرة في موضوعات خاصة مثل حلبة الكميت ومراتع الغزلان للقاضي النواجي	-أبو تمام في:(الحماسة) في حين تميل الوحشيات نحو الاهتمام أكثر بالصورة .	-ابن المعتز في:(فصول التماثيل) -الأنباري في :(كتاب التشبيهات) -الخالديان في : الأشباه والنظائر .

وقد التمس المرزوقي(ت421هـ) المقومات التي بنى أبو تمام عليها اختياره، ليخرج بعمود الشعر أو المقومات الأسلوبية والتداولية للخطاب الشعري كما استنبطها المرزوقي من تلقي أبي تمام للنص الشعري القديم، فيقول :"إنهم كانوا

---

[1] ينظر : المرجع نفسه، ص ص : 71، 73.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص :76.

يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف – ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات –والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار "[1]

فمعايير عمود الشعر ومقوماته ذات هم بلاغي يبحث في ما يجب توفره عند المتلقي/ الناقد، وعند المبدع، فالأول ليختار الأجود بذوقه، والثاني ليقول الشعر المستجاد بشهوته .[2]

فالبلاغة التي أراد المرزوقي تحقيق جزء منها، تهتم بشروط الاختيار ومقوماته وتعمل على كشف هذه المقومات التي تتوفر عند المتلقي، والرجل يفتح بابا على مسألة التلقي الشعري، والرؤية التي يمكن للمتلقي تقديمها بعد قراءة النص وتذوقه، فيأتي الناقد للبحث عن المعايير الضمنية التي توفرت لاختيار عناصر بعينها والتركيز عليها دون غيرها .

وهذا ما نجده عند لسان الدين بن الخطيب(ت776هـ) في :"السحر والشعر"[1]؛عندما بنى اختياراته الشعرية على معياري:التفوق في الصناعة الشعرية

---

[1] أبو علي المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تح غريد الشيخ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، 2003، ص:10.

[2] ينظر :إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق، عمان الأردن، ط1، 2012، ص:415.

والتخييل، ومعيار الجري على النمط المعتاد والسائد، و"هب أن متذوقا – مرهف الذوق –أراد أن يختار لابنه أو لبعض الناس عددا من القصائد، فما هي المعايير التي يعتمد عليها في الاختيار ؟"[2]

لقد كان اعتماد لسان الدين على هذين المعيارين، بمثابة إجابة عن السؤال سالف الذكر، وقد خص المعيار الأول باسم السحر كل نص شعري جنح "إلى التخييل والتشبيه، وأحل الاستعارة بالمحل النبيه [...] وأعرق في باب الشعر أتم الاعراق "[3]

وحاول لسان الدين جهده تطبيق هذا المعيار في اختياراته عبر أغراض المدح والنسيب والوصف والحكم، وهنا نلتمس الأسس التي يبني عليها أصحاب الاختيارات الشعرية، فلسان الدين اعتبر صور البلاغة وإغراقها في الشعرية معيارا نقديا نابعا من النص الشعري تحت رقابة بلاغية تؤدي خدمة للفحص النقدي وتساعد على إعطاء القيمة .

- **ثانيا :اكتشاف من الخارج :**

عمل العمري على اكتشاف روافد الدرس البلاغي، خارج الاهتمام بالنص الابداعي، في مجالات ليست مقطوعة الصلة به، بل تتلاحم مباحثها لتشارك في صناعة

---

[1] لسان الدين بن الخطيب، السحر والشعر، تح كونتننته فيرير، بدايات للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2006م.

[2] احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص:640.

[3] لسان الدين بن الخطيب، السحر والشعر، ص: 12.

إمبراطورية البلاغة التي تستكشف النص وتنظر له، فكان اهتمام العمري بالبحث اللغوي، والدرس الإعجازي، ونظرية المعرفة، والوافد الأجنبي المترجم عن اليونانية.

1- السؤال اللغوي :

لقد كانت عملية جمع اللغة، وتقنين قواعدها تتخذ طريقها الجاد، خوفا من ضياع صحة اللسان العربي، وتنامي ظاهرة اللحن، جراء التمازج بين الشعوب المختلفة ، بعد الفتوحات الإسلامية، خاصة "وأن هذا الاختلاط أثر أيما تأثير في العربية التي صارت في أفواه الأجيال الحضرية الجديدة على غير ما كانت عليه قبل هذا العصر "[1]

وقد قام بأعباء هذه المهمة رجال ؛منهم من عمل على جمع المادة اللغوية كالأصمعي (ت216هـ)وأبي عمرو بن العلاء (ت154هـ)، ومنهم من اهتم بالبحث عن القوانين التي تحكم نظام الكلام العربي مفرداته (الجانب الصرفي) وتراكيبه (الجانب النحوي)، وكان العملان يدوران حول محور القياس أو إيجاد القوانين المطردة التي تحكم اللغة بمستوياتها، وقد لاحظ العمري وجود صراع بين ما اعتبره النحويون مركزا وبين ما اعتبروه هامشا [2]؛أي بين النص الشائع الذي يقاس عليه، وبين الحالات الخارجة عنه والتي تعامل معها اللغويون والنحاة باعتبار جزء منها

---

[1] عبد الرحمن حاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص:25.

[2] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص ص: 90، 93.

تحت مفهوم المجاز باعتباره "طرق الكلام ومآخذه "[1]، وتحت مفهوم الضرورة الشعرية أو التوسع، ويبدو أن للعمري موقفا من مسألة الوحدة التي مارستها الخلافة الإسلامية خاصة في العصرين الأموي والعباسي الأول[2]، مما جعله يعتبر القواعد المستنبطة معيارا جديدا، والدلائل التاريخية / اللغوية، والدراسات التنقيبية تشهد بأن اللغة تم تقنينها بالاعتماد على الشائع وعلى مبدأ الوحدة التي يلحق بها كل ماعداها تحت تسمية الشاذ، وهذا أمر طبيعي في كل عمل استقرائي يعتمد أسس البحث العلمي.[3]

ويتكلم العمري عن استفادة الدرس البلاغي مما اعتبره اللغويون والنحاة استثناء عن القاعدة (المجاز والضرورة) قائلا :"قد يبدو غريبا أن تتولد البلاغة، أو مكون من مكوناتها، في مهد النحو وهو نقيضها، أي المعيار الذي تنزاح عنه . ولكن الذي وقع تاريخيا هو أن الظواهر البلاغية وقفت، في وقت مبكر، في وجه الصرامة العلمية التي نعت بها القياس النحوي واطراد القواعد، فأوقفت ذلك القياس الصارم عند حدوده، تحمل في يدها اليمنى نص القرآن الكريم وفي يدها اليسرى ديوان الشعر العربي، تعطل بهما وصول القياس إلى نهايته ."[4]

---

[1] عبد الله ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق سوريا، ط1، 2011، ص:49.

[2] ينظر :محمد العمري، المرجع نفسه، ص:89.

[3] ينظر :عبد الرحمن حاج صالح، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، ص ص:251، 333.

[4] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق –المغرب، 2013، ص:113.

والفكرة القائلة بأن النحو هو المعيار، واتباع قوانينه في اللغة العلمية أو الاستخدام العادي يشكل المرجع الذي تنزاح عنه اللغة الشعرية نجدها عند كوهن (Jean Cohen) الذي يجعل من الخضوع للنحو، اتباعا لمعيار اللغة وابتعادا عن درجات الشعرية خاصة إذا كان للنحو علاقة وطيدة بالجانب المعنوي.(1)

ويلج العمري الجزء الأول، مما اعتبر خروجا عن القاعدة والقياس واستفاد منه الدرس البلاغي، وهو ما يخص مجاز القرآن، والناظر في المجاز الذي خصه العمري بالدراسة يجده بعيدا عن المفهوم الكلامي، والذي طور مع المعتزلة والأشاعرة ورأيناه ماثلا في اتجاهات البلاغة المختلفة، إذ "يمثل مجاز القرآن عملية الغربلة المنهجية الأولى التي ستسمح باستخراج مجموعة من المقولات البلاغية بقدر ما تستخرج متنا من الأمثلة التي ستكون لاحقا موضوعا للتأمل البلاغي ثم التسمية والتعريف "(2)

فأبو عبيدة (ت210هـ) جعل من كلمة مجاز مرادفا للتفسير، والمعنى، والتأويل، والغريب ...(3)، ويجتمع معناها على الطرق والأساليب اللغوية الممكنة التي اتخذها القرآن الكريم للتعبير عن مقاصده ؛من تقديم، وتأخير، وحذف، واختصار، وغيرها من الطرق التعبيرية، والعمري قام بعملية حصر لأشكال المجاز عند أبي عبيدة، فوجدها تتركز في أشكال خمس، يقول في ذلك :"بعد عملية استقصاء للأمثلة الدالة

---

(1) ينظر :جون كوين، بناء لغة الشعر، تر أحمد درويش، دار المعارف، القاهرة مصر، ط3، 1993، ص ص :132-133.

(2) محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:94.

(3) ينظر :أبو عبيدة، مجاز القرآن، تح محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1، ص:21، ج2، ص:157.

(بغض النظر عن الشروح المعجمية عن طريق المرادف أو التفسير) بدا لنا أن إشكالات المجاز عند أبي عبيدة تندرج في الخانات التالية :

1-تداخل الضمائر وتبادلها المواقع .

2-اختلاف أوجه الإعراب والقراءات .

3-استعمال اللفظ في غير موقعه المتوقع ومخالفة ظاهر القول .

4-الزيادة والنقصان في تركيب الكلام .

5-النقل والإلحاق الدلالي ."[1]

ولا يكتفي العمري بعملية الرصد والتصنيف، بل يوجه عنايته لانتقاء الأمثلة الدالة على النقاط التي اكتشفها، بل يتجه همه نحو تصنيف مجاز أبي عبيدة بين :مجازات ذات صلة بالتطور التاريخي للغة، أو مشكلات عولجت بتوحيد المصحف، وبين مجازات نصية، تفسح المجال واسعا للتأويل، هذا القسم الأخير يتوزع عبر مستويين :

- مستوى البحث في دلالات التقديم والتأخير، الحذف والتكرار ...وهو ما سيهتم به السكاكي ضمن علم المعاني .
- مستوى نقل الدلالة وتجاوزها لظاهر العبارة اللغوية، وهذا ما سيتم معالجته عند السكاكي تحت مسمى علم البيان .[2]

ولم يكن المجاز هو المصطلح الوحيد الذي استخدمه اللغويون، فيما خرج عن قياس العربية، واطراد قوانينها، بل نجد الضرورة الشعرية حاضرة ضمن اهتماماتهم،

---

[1] محمد العمري، المرجع نفسه، ص:97.

[2] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:107.

وكانت الإشكالية المطروحة هي بين اعتبار الضرورة مزية، وبين اعتبارها عيبا، وما يشكل منعطفا في مسيرة دراسة الضرورة الشعرية هو التقاؤها مع المجاز، والصلة القائمة بينهما تجمعها فكرة القاعدة النحوية باعتبارها الحقيقة التي يعتمدها البلاغيون معيارا لانزياح القول الشعري .[1]

"من هذا الحوار حول القاعدة النحوية والضرورة الشعرية والحقيقة الدينية والمجاز تغذت المباحث البلاغية فتحولت من مجرد ذكر صور الاستعارة والتشبيه وغيرهما ضمن صور البديع ومحاسن الكلام إلى مجال النقاش الدقيق في بنية المجاز ووظيفته كما نجد عند الجرجاني مع تحديد وتدقيق للمفاهيم ."[2]

ويبدو أن صراع الضرورة والقاعدة النحوية عند النحاة هو ذاته صراع المجاز والحقيقة عند علماء الشرع، وهو صراع يمثل إشكالية المركز والهامش أو القاعدة والاستثناء، وهذا ما سيقود للصراع حول قضية المجاز عند المعتزلة والظاهريين .

والعمري في قراءته هذه لأصل من أصول الدرس البلاغي، يقيم آراءه على الموروث البلاغي الشكلاني الذي يعتبر الخروج عن القاعدة النحوية هو لب الشعرية، فالشعر يكسر الرتابة التي يحياها العالم واللغة باعتبارها مجالا له[3]، لكن هل نجد في شعرنا العربي كسر رتابة اللغة هو نفسه كسر رتابة القاعدة اللغوية ؟

---

[1] ينظر :المرجع نفسه، ص:129.

[2] المرجع نفسه، ص: 129.

[3] ينظر :فكتور ايرليخ، الشكلانية الروسية، تر :محمد الولي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص:19.

لا نستطيع الجزم مطلقا بهذا الأمر، لأننا غالبا ما نجد القاعدة النحوية تفرض هيمنتها، مع وجود جانب التغريب، والانزياح الذي يحصل برعاية القاعدة النحوية، كما أثبت ذلك الجرجاني في الدلائل، وهنا يتوجب علينا ألا نغلب المفاهيم الغربية على نصوصنا العربية لأن الغربيين ينطلقون من لغاتهم لصناعة نظرياتهم، فلا يستقيم الأمر إذا حاولنا تطبيقها دون مراعاة لتاريخ لغتنا والتراث الذي تحمله .

2-إعجاز النص القرآني :

كان نزول القرآن الكريم أهم حدث شهدته اللغة العربية في تاريخها، وقد استرعى اهتمام المؤمنين بالدعوة الإسلامية، والمنكرين لها، فكان طرازا فريدا من نوعه ؛ في التشريع، والإخبار عن الغيوب، والترغيب والترهيب، وكانت بلاغته وطريقة نظمه تدخل سامعه في حيرة من أمره، بين الشعر والسحر، وما هو إلا قرآن مبين، واهتم المسلمون به وعملوا على تفهمه، والاقتراب من معانيه ومقاصده، ثم جاءت الفترة التي دخلت فيها العناصر الأجنبية إلى الخلافة الإسلامية، من نصارى ويهود وصابئة ... مع ما حملوه من فلسفة ومباحثات لاهوتية، فطرحت الأسئلة حول إعجاز القرآن الكريم، وطريقة إثبات النبوة، وتصارعت الفرق الإسلامية حول قضية الإعجاز[1]، "وستستفيد البلاغة العربية من ذلك فائدة كبرى وستكون بيئة المعتزلة خاصة والمتكلمين عامة إحدى البيئات الرئيسية التي ينشأ في ظلها التفكير البلاغي ويترعرع. "[2]

---

[1] ينظر :حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديد، بيروت لبنان، ط3، 2010، ص:35 وما يليها .

[2] حمادي صمود، المرجع نفسه، ص:35.

ونجد العمري ينصب اهتمامه على الجانب التطبيقي من هذه التساؤلات الكلامية، و"يتلخص الجانب التطبيقي من الكلام حول القرآن الكريم في الالتزامين التاليين :

- الدفاع عن النص القرآني ودفع الشبهات عنه (التنزيه).
- بيان وجه الإعجاز (المزية)."[1]

والجانب الأول خاص بالدفاع عن القرآن الكريم ومواجهة المشككين في الوحي، وهنا نجد ابن قتيبة(ت) من سيمثل هذا الاتجاه، أما الجانب الثاني فيمثل الصراع بين الفرق الاسلامية وتوجهاتهم في تبرير وجه المزية ووجه إعجاز القرآن الكريم .

ويتحدث العمري عن الاتجاه الذي ينتمي إليه ابن قتيبة، باعتباره يهدف إلى الرد على طعون المشككين وبيان انسجام النص القرآني وحسن اتساقه، ويلاحظ بأن هذا التيار لم يجد امتدادا في البلاغة العربية، وهو بذلك يمهد للقارئ إقصاء هذا التيار من الجزء الثاني في مشروعه، مع أننا نجد ممثلين له بعد ابن قتيبة ؛ كالخطيب الإسكافي (ت431هـ) في كتابه :"درة التنزيل وغرة التأويل"[2]، الذي خصصه لمعرفة أسرار استخدام المفردات وحروف المعاني ضمن المتشابه، ويقدم تعليلات ترتبط بانسجام النص القرآني وتوفر المقصدية الدقيقة في بيانه، وجلال الدين السيوطي (ت911)خاصة في مؤلفه الذي أسماه: "أسرار ترتيب القرآن "[3]، الذي بحث فيه عن

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:141.

[2] الخطيب الاسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط2، 2012م.

[3] جلال الدين السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، تح عبد القادر عطا ومرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة، 2002.

الانسجام الحاصل بين السور القرآنية في تتابعها كما هي موجودة في المصحف الشريف، ومما لا شك فيه أن هذا العمل نابع عن إشكال طرح قبل السيوطي، وهو هل يوجد انسجام بين مقاصد السور القرآنية لتكون على هذا الترتيب؟

ويمكننا أن نصنف قراءة العمري لصنيع ابن قتيبة إلى محورين :

- محور القضايا المرافقة للإعجاز القرآني ذي الاهتمام البلاغي : وهنا يخص العمري الأسئلة الكلامية التي يرد عليها ابن قتيبة، وكذلك ما ادعي من اللحن في القرآن الكريم والتناقض والتشابه .[1]
- محور القضايا البلاغية : وأهم سؤال عالجه ابن قتيبة هو المجاز، الذي يخصه بالتعريف التالي :"طرق الكلام ومآخذه "[2]، ويرد على من ادعى بأن المجاز كذب، ويحاول ابن قتيبة أن يتوسط في تعامله مع المجاز، فالظاهرة موجودة لكن استعمالها ليس دليلا على الكذب، ومن هذا الموقف سيحاول من سيأتي بعده الوصول إلى نتيجة في مسألة المجاز (خاصة فيما يتعلق بالذات الإلهية)مفادها أن ما وقع هذا الموقع من المجازات إنما هي :"تعبيرات مجازية عن حقائق إلهية "[3]

---

[1] ينظر :عبد الله بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تح سعد بن نجدت عمر، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق سوريا، ط1، 2011، ص ص :59، 101.

[2] عبد الله ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ، ص:49.

[3] نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط7، 2005، ص:125.

أما الجزء الثاني فيخصصه العمري لبيان وجه الإعجاز، وهنا نجد أعلام القرن الرابع الهجري في دراسات الإعجاز القرآني ؛ أمثال الباقلاني (ت403هـ) والرماني (ت386هـ) والخطابي (ت388هـ)، ولكل طريقته وخطته في بيان وجه إعجاز القرآن الكريم، بين القول بالصرفة، أو الإخبار عما كان وما سيكون، أو من جهة بلاغته[1]، لكنهم يجتمعون حول مسألة إمكانية إثبات إعجاز القرآن من خلال النص ذاته، وقد كان للأسئلة الكلامية نصيب في توجيه الدرس البلاغي من خلال هذا الأصل، ولم تمر عليه بردا وسلاما "بل لقد ثارت أسئلة اعتقادية لتحديد ما هو كلام الله الذي ينبغي أن نرصد فيه الإعجاز :هل هو كلام الله القديم، أم كلام الله المخلوق في حروف منظومة ؟ وسيكون هذا الاعتبار موجها لنموذجين بلاغيين كبيرين "[2]

ويظهر هذان الاتجاهان من خلال :ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) مع التيار الأول، والجرجاني مع التيار الثاني .، لكننا إذا رجعنا إلى الخطابي وجدناه ينتمي كذلك لتيار ابن قتيبة لأنه سيرد على الطاعنين في القرآن الكريم، وليس أدل على ذلك من قوله حول ما ادعاه خصوم القرآن :"وأما ما عابوه من التكرار "[3]، وهذا يجعلنا نقول بأن التيارين كانا على تماس وتفاعل دائمين والفصل بينهما بحثيا لا يعني انفصالهما على أرض الواقع تاريخيا .

---

[1] ينظر :أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة –مصر، ط6، ص ص: 22، 24.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:163.

[3] الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص:52.

ثم يتكلم العمري عن المراحل التي مر بها الدرس الإعجازي، من محاولة رصد المزية ووجه الإعجاز إلى تنظيم الأوجه البلاغية التي تمكن الباحث من معرفة الإعجاز ومواضعه، وذلك يتمثل مع عمل الرماني في النكت[1] حين قام بجمع أقسام البلاغة ودلل عليها، متخذا إياها معيارا لبلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

ليصل العمري في دراسته لهذا الأصل إلى أن مباحث البلاغة العربية استفادت من السؤال الاعجازي الذي كان بإمكان البلاغيين أن يستثمروا جزءا منه في تطوير البلاغة النصية (مع وجود نماذج تمثلها، لكنها ليست شائعة)، عوضا عن الغرق في اقتطاع النصوص من نسقها العام واتخاذها شواهد لقواعد مقررة مسبقا .

3- سؤال المعرفة والإقناع:

ينطلق العمري في دراسة أصل آخر من أصول البلاغة العربية، وهو مبحث البيان بين المعرفة والإقناع، مركزا على الجاحظ (ت255هـ)، خاصة مؤلفه البيان والتبيين[2] باعتباره خلاصة آرائه حول موضوع البيان والإقناع، لكن العمري يطرح تساؤلات مهمة، حول إذا كان من جاؤوا بعد العمري قد فهموا البيان والتبيين وواصلوا مشروعه ؟ وكيف كان تلقيهم لهذا المشروع ؟

ويوضح بأن مادة الكتاب "لا تخرج عن ثلاثة محاور :

1-وظيفة البيان وقيمته.

2-العملية البيانية وأدواتها.

---

[1] ينظر :علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة –مصر، ط6.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط1، 2010.

3-البيان العربي."[1]

ويبدو أن العلاقة بين المعرفة والبيان والإقناع نجدها عند الجاحظ نفسه، ولكن ليس في البيان والتبيين، وإنما في الحيوان ؛ عندما يربط بين وجود العالم والحكمة منه وأن كل مخلوق خلق لحكمة ويختلف نوعان منه في الوعي بهذه الحكمة التي وضعها الله عز وجل، وهذا ما يصنع الفرق بين الحيوان والإنسان، فكلاهما دليل على هذه الحكمة إلا أن الحيوان دليل غير مستدل والإنسان دليل مستدل، ويتمكن من الاستدلال بالبيان وسبله من: لفظ وخط عقد وإشارة .[2]

لكن تركيز العمري على البيان والتبيين، لم يقص قضية الاستدلال، باعتبارها عملا سيميائيا، يلح الجاحظ على حضوره في عملية البيان، وهذا ما نراه حاضرا في حديث العمري عن بيان الجاحظ، وإذا أردنا التوغل في مقاصد هذا الأخير سنصل إلى امتداد مهم في بلاغتنا العربية، وهو الامتداد السيميائي الذي يوسع دائرة العمل البلاغي إلى خارج نطاق اللغة، وهذا ما نجده في الدراسات التي تمتح مما هو تداولي وسيميائي .

ويقتصر العمري من خلال المخطط الذي وضعه لبيان الجاحظ [3] على وظيفة البيان (الفهم والإفهام)، وطرفا العملية البيانية (الخطابية) من أدلة ومقام، ثم الدفاع عن البيان العربي وتقاليده لعربية كما عرضها الجاحظ من خلال الخطابة، ويكشف العمري عن مفاصل البيان عند الجاحظ مراعيا في قراءته البعدين التعليمي والتأويلي

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:193.

[2] ينظر : الجاحظ، الحيوان، تح يحيى الشامي، دار مكتبة الهلال، بيروت لبنان، ص:30.

[3] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:194.

(وهذا ما يلاحظ على مشروعه) بقوله :"يتنازع البيان عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مفهومان أو وظيفتان :

1-البيان معرفة :الوظيفة الفهمية .

2-البيان إقناع : أو الوظيفة الإقناعية .

الوظيفة الثانية هي الوظيفة الصريحة والوظيفة الأولى هي الوظيفة الكامنة المتحكمة في مقدمة الكتاب "[1]

ثم يقدم العمري على قراءة تنقيبية، تحاول الوصول إلى خلفيات مشروع الجاحظ ذي العلاقة بالميدان الأصولي، وقد لاحظ توافق مقولاته مع الإمام الشافعي (ت204هـ)، وكذلك تأثره بالمفهوم الكلامي، الذي يركز على إثبات العقيدة بالاستدلال العقلي، "تأثر بهذين المفهومين وربما بغيرهما وحاول صياغة نسق سيميائي في ضوء الهموم المنطقية الإقناعية لعصره التي لا يمكن أن يغيب عنها المنطق الأرسطي."[2]

ومن يرجع إلى الدرس السيميائي عند بورس (Peirce) يلاحظ بأنه يتكلم عن سيميائيات باعتبارها "تصورا متكاملا للعالم .ذلك أن الإمساك بهذا العالم باعتباره سلسلة لا متناهية من الأنساق السيميائية، أي باعتباره علامات، يشير إلى استحالة فصل العلامة عن الواقع "[3]

---

[1] المرجع نفسه، ص: 195.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:196.

[3] سعيد بنكراد، السيميائيا والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط1، 2005، ص:27.

وهذا ما أراد قوله الجاحظ، وليس بالضرورة أن يتشاكل مع بورس(Peirce) في البناء المنطقي لمشروعه، إلا أن المقاصد تقترب من بعضها والمنطلقات لا نعدم الصلة فيما بينها، خاصة فيما يتعلق بقضية الإقناع، فالجاحظ انتقل من البيان إلى الإقناع بالحجة والدليل، وطرح إمكانيات هذا الفعل وأدواته، وكذلك نجد في الثلاثية الأخيرة عند بورس عندما يصل إلى الحجة، مع الفارق في الطابع الحواري عند الجاحظ والذي لا نراه واضحا عند بيرس .

ويبرز العمري الجانب الإقناعي عند الجاحظ من خلال حديثه عن الخطيب ومواصفاته وطرق إقناعه والأساليب المتبعة في ذلك، والجاحظ يولي أهمية كبرى لما ورد في صحيفة بشر بن المعتمد، والتي أصبحت طريقة تعليمية لحجاج عن أصول الإعتزال .[1]

ثم ينتقل العمري إلى قراءة داخل النسق البلاغي العربي، وهي قراءة البلاغيين العرب للجاحظ، وتحدث عن قراءة بالمخالفة والتكميل التي مارسها ابن وهب الكاتب في كتابه البرهان في أوجه البيان [2]، ونجد قراءة أخرى – لم يذكرها العمري – وهي قراءة أبي هلال العسكري(ت 395هـ) للبيان وهي قراءة مكملة موافقة تعتمد على استراتيجية الشرح والتوسيع لما ورد عند الجاحظ في البيان والتبيين، أما ابن وهب فقد أخذ على عاتقه عبء إعادة بناء البيان من جديد بطريقة عقلية تجعله قريبا إلى النظرية المعرفية منه إلى بلاغة تهتم بالخطاب .

---

[1] ينظر : الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:107.

[2] ابن وهب، البرهان في أوجه البيان (نقد النثر)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1980.

وفي الختام يضع العمري نتائج توصل إليها حول وظائف البيان، فقد تجلت الوظيفة المعرفية التي تهتم بالإفهام وتوصيل المعلومة، ونجد الوظيفة التأثيرية(استمالة الآخر)، والتي تقوم إذا كان المخاطِب في حالة خلاف مع المخاطَب، أما الوظيفة الحجاجية، فتقوم إذا كان المتخاطبان في حالة خصام .[1]

4-بلاغة الآخر وطبيعة القراءة :

في وقت مبكر كان هناك وعي ببلاغة الأمم الأجنبية، وهذا الأمر نجده عند الجاحظ، وعند أبي هلال العسكري، ونص الجاحظ المنقول بالرواية، تورده عديد الدراسات ونستأنس به، والقائل :" قيل للفارسيّ: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفَصّل من الوصل، وقيل لليونانيّ: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكَلام، وقيل للروميّ: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغَزارة يَوْمَ الإطالة، وقيل للهنديّ: ما البلاغة؟ قال: وضُوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال بعضُ أهل الهند: جِمَاع البلاغة البَصر بالحُجّة، والمعرفة بمواضع الفرصة"[2]

ونجد كذلك أبا هلال العسكري يتكلم عن بلاغة اليونان والفرس، بل ويقر مسألة غاية في الأهمية بالنسبة لبلاغيي عصره والتي يقررها في كتابه ديوان المعاني، في فصل تحت عنوان جمل من بلاغات العجم بقوله :"العجم والعرب في البلاغة سواء، فمن تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه في الأولى "[3]

---

[1] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:213.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص: 77.

[3] أبو هلال العسكري، ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت لبنان، ج2، ص:89.

وهذه الشذرات التي سقناها للتحقيق في مسألة معرفة البلاغيين العرب بالبلاغات الأجنبية، ترسخ فكرة مهمة مفادها : أن ما نجده في البلاغة العربية عن البلاغات الأخرى (خاصة في القرون الثلاثة الأولى) لا يعدو أن يكون تلميحات أو نقل لمجرد الاستئناس والتمثيل ؛ ولا نجد عملا جادا يحوي نسقا متكاملا عن البلاغة الأجنبية إلا عند الفلاسفة المسلمين الذين ترجموا لأرسطو، وكانوا شراحا بامتياز لمنظومته المعرفية التي تمتد من المنطق عبر الإلهيات والطبيعيات إلى الشعر والسفسطة والخطابة، وهذا ما ركز عليه العمري تحت عنوان :القراءة العربية للبلاغة اليونانية .[1]

وقد توجه العمري للثقافة اليونانية دون غيرها لأنها دخلت كنسق تحمله أعمال مؤلفة خاصة لأرسطو، و"يمكن رصد أثر الثقافة اليونانية في مجال تحليل الخطاب عامة من زاويتين :

1-الإطار المنطقي والثقافة الأخلاقية والنفسية :المستوى العام، أو الإطار .

2-البناء الخاص بكل من الخطابين الشعري والخطابي :المستوى الخاص، أو الموضوع البلاغي ."[2]

والعمري سيهتم بالجزء الأخير دون إهمال الإطار العام لأن ما هو بلاغي تم قراءته ضمن هذا الإطار العام، وقد اعتبر الفلاسفة المسلمون الشعر والخطابة جزءا من المنظومة المنطقية الأرسطية، أما كتاب فن الشعر فقد حظي عنده باهتمام أكبر من

[1] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:217.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:219.

اهتمامه بالخطابة، وكان هم العمري البارز الرد على من يدعي عدم تأثير كتاب الشعر لأرسطو في البلاغة العربية، مما استدعى عنده مراجعة مصطلحي الفهم والتأثير .[1]

إن ما فهمه الدارسون خاصة في الفترة التي بدأت الدراسات الحديثة تقتحم مجال الترجمة، هو أن التأثر وفهم الآخر تطابق معه، وعلى هذا الأساس تعاملوا مع الترجمات العربية والشروح القديمة لأرسطو، ولما لم يجدوا هذا التطابق اعتبروا أن أعمال الفلاسفة المسلمين مجرد تأويلات لا تفي بغرض النص الأصلي، وهنا يتوقف العمري للتحقيق في مسألة غاية في الأهمية :"هل هناك نص أصلي عامة ؟ ول هناك نص أصلي، خاصة حين يتعلق الأمر بفن الشعر لأرسطو ؟"[2]

ليصل بعد التمحيص إلى نتيجتين :

- ترجمات فن الشعر لا تعدو أن تكون تأويلات له، في غياب التواصل مع النص الأصلي .
- خلل الترتيب بين عناصر الكتاب، ونقص أجزاء مهمة منها، وهذا ما يشهد عليه عبد الرحمن بدوي :"وكتاب أرسطو في الشعر ينتسب إلى ذلك القسم من الكتب الأرسطية المسمى باسم المؤلفات المستورة [...]ومن خصائص هذا النوع الإيجاز وعدم الإحكام في التأليف والغموض [...] وإنما الصعوبة الكبرى هي في النص الباقي لنا :هل هو النص الكامل ؟"[3]

---

[1] ينظر :المرجع نفسه، ص:220.

[2] المرجع نفسه، ص:223.

[3] أرسطو طاليس، فن الشعر، تر عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1953، ص:38(من مقدمة عبد الرحمن بدوي).

إذن فمن المفيد إعادة الاعتبار للترجمات والشروح العربية، وإعادة فهم استراتيجيتها في استيعاب نظرية أرسطو في الشعر، وكذلك الخطابة .

فقد لا حظ العمري أن العقلية العربية اقتربت من فن الشعر، بعد صعوبات من قبيل :اختلاف المرجعيات والمجال المعرفي، وأخذت تفهمه من خلال :

1- البحث عن الكليات أو القوانين الكلية التي تجمع صناعة الشعر عند الأمم .

2- الإجراءات التحويلية :نقل المركز من المحاكاة إلى التغيير اللغوي .[1]

ويشرح العمري ما قام به الفلاسفة العرب قائلا :"قام الفلاسفة العرب بعملية تحويل لمركز بلاغة أرسطو من خشبة المسرح إلى تركيب اللغة، من التمثيل الدرامي إلى التشبيه والاستعارة والمجاز، وأعادوا تعريف التراجيديا والكوميديا بالمدح والهجاء بعد تجريدهما إلى تحسين وتقبيح، وقايضوا المحاكاة بالتخييل ترجيحا للأثر على الكيفية .وفي بيئتهم طرحت نظرية الشعر والخطابة بشكل علمي نظري لأول مرة في تاريخ العرب ."[2]

ويجعل العمري عمل ابن رشد في التغيير مقاربا لمصطلح الانزياح في الدراسات الشعرية المعاصرة، والبلاغة الجديدة، ويقترب من مفهوم هنريش بليت الذي يجعل من :" الصورة البلاغية هي الوحدة اللسانية التي تشكل انزياحا .وبذلك يكون فن العبارة (élocution) نسقا من الانزياحات اللسانية "[3]، ثم يربط بين نموذج موريس

---

[1] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:249.

[2] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، 2013، ص:116.

[3] هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، تر محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999م، ص:66.

السيميائي وبين مستوياته ويدمج كل مستوى مع انزياحه الخاص به، ثم يحدد العمليات التي تخرق المعيار ؛مثل الزيادة، والنقص، والتعريض، وتبادل الدلائل ...[1]

ونجد صلة بين ما يذكره هنريش وبين مارصده العمري من عمليات التغيير الواردة عند الفلاسفة العرب خاصة ابن رشد (ت 595هـ)، مثل حديثه عن الإبدال والتشبيه .[2]

3-شبكة البلاغة وتحديد النماذج:

أ- أسس الاختيار :

عمل العمري على التحقق من وجود خاصيتي :الاستكشاف كتمهيد يربطها بالأصول، وبناء النموذج العلمي في المشاريع المختارة والتي تمثل امتدادات البلاغة العربية، وتجسد طموح أصحابها في بناء قاعدة نظرية، ونموذج تطبيقي واضح قابل للفحص والإجراء[3]، ولهذا نجد عمله في قراءة البلاغة العربية ينصب اهتمامه على :

3- أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني .
4- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي .
5- مفتاح العلوم للسكاكي ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني .

وفي رأي العمري لهذه الأعمال ما يؤهلها لتمثيل اتجاهات البلاغة العربية، واعتبارها امتدادات تسهم في بناء النموذج البلاغي المرتقب (البلاغة العامة).

---

[1] ينظر :المرجع نفسه، ص: 67.

[2] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، ص:261.

[3] ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 279.

وتكشف القراءة الفاحصة عن الخيوط الجامعة بين الاتجاهات المذكورة سابقا عن بناء متماسك ؛ ينطلق من القاعدة النظرية، مع مدارج الغرابة عند الجرجاني، والبحث عن مميزات القول الشعري، ومعالجة قضية التخييل والصدق والكذب، ضمن النظرية الأدبية العامة، وينتقل منها إلى المناسبة التداولية، ويصل ليمتد إلى مستوى البنية الصوتية والصرفية مع ابن سنان الخفاجي والبحث عن بلاغة التناسب، ثم يمثل أمامنا نموذج بلاغي معضود بالنحو والمنطق ؛ ونجده عند السكاكي والقرطاجني .

فنظرة العمري كانت تسير وفق مبدأين : البحث عن الجانب النظري الذي يعضد البلاغة العربية، وتقديم النماذج التطبيقية والتحقق من آلياتها، وكان اختياره للأعمال البلاغية ليس بعيدا عن هذين المعيارين .

وقد جعل العمري من النماذج البلاغية المختارة مصبا تلقي فيه الروافد التي سبق التعريج عليها حمولتها الاستكشافية، والتي خاضت غمارها طيلة ما يقارب خمسة قرون متتابعة، من البحث والاستقصاء في متن العربية، ومدونتها التخييلية والإقناعية ، لكن السؤال الذي يطرح : هل تمكنت قراءة العمري من حصر كل المشاريع البلاغية (امتدادات البلاغة العربية) في ثلاثة نماذج ؟ ألا توجد نماذج بلاغية خارج قراءة العمري ؟

إن هذه الأسئلة يجيب عنها العمري في خضم حوار مباشر، بينه وبين محمد الولي، وإدريس جبري ؛ فيطرحان عليه السؤال في حوارهما :"هناك غائبون في كتابكم: البلاغة العربية، وغيابهم يثير كثيرا من التساؤلات ويتعلق الأمر على سبيل

المثال بابن رشيق والسجلماسي والافراني وابن البناء المراكشي وغيرهم، هل هناك مبرر لهذا الغياب ؟

(العمري) كما ذكرت في جواب سابق، فالمنهج الذي اتبعناه، هو قراءة المشاريع والتركيز على مؤلفات أو مجموعة كتب والاقتصار على المشاريع الأكثر فعالية ."[1]

فعالية هذه المشاريع المختارة، تتضمن البناء النظري، وتحديد المقاصد وقابلية التطبيق والإجراء، وكذلك كونها نابعة من هم نسقي تمتد جذوره لتتصل بروافد البلاغة العربية التي سبق للعمري الحديث عنها، لكن مع هذا الإحكام الشمولي الذي مارسه العمري إلا أننا نجده يستكشف أعمالا أو اتجاهات أخرى خارج ما حدده في فترات لاحقة كما حدث مع أبي حيان التوحيدي .[2]

ب- الامتدادات الكبرى :

أولا: التخييل والتداول :قراءة جديدة للمنجز البلاغي عند الجرجاني.

لا يستطيع الباحث في قضية بلاغية، أن يتجاهل وجود الإمام عبد القاهر الجرجاني، ولا تجاوز مؤلفيه :"أسرار البلاغة "[3] و" دلائل الإعجاز "[4]، ويعتبر هذان

---

[1] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص:262.

[2] ينظر :محمد العمري، البلاغة العامة في حوار الرصد والتنظير (ضمن البلاغة والخطاب)، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2014، ص:16.

[3] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2001م.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، ط3، 1992م.

الإنجازان مركز انطلاق بالنسبة لاتجاه بلاغي، ساد بعد القرن السادس الهجري، والذي تزعمه السكاكي، ولحق به الشراح وأصحاب الهوامش والحواشي، وكان مؤثرا على العقلية العربية الأدبية والنقدية في العقود التي شهدت التأثر بالتيارات النقدية الحديثة والمعاصرة، فالجمود الذي أصاب الدرس البلاغي، والعكوف على أساليب بعينها وعدم مفارقتها جعل هجوم المستغربين شديدا على البلاغة العربية، وجعل الدارسون يرمونها بالجذب والتأخر وعدم الفاعلية، لكن السؤال الذي يطرح نفسه :إذا كان عمل الجرجاني بالمكانة التي وصفناه عليها، وللسكاكي فضل التقنين والزيادة والفهم، فماذا حدث لهذا المشروع ؟ كيف قرئ الجرجاني ؟ وهل أسيء فهم مقاصد الرجل وجزئت نظريته البلاغية وتقاسمتها الادعاءات (الأسلوبية والدلالية والشعرية ...)؟كيف السبيل لإعادة قراءة الجرجاني؟

يبدو أن السؤال الأخير يعتبر منطلقا لقراءة العمري، لن نعيد كلام الرجل في فصول عمله، لكن أكتفي برسم الاستراتيجيات والآليات التي سخرها العمري في سبيل تحقيق قراءة جديدة / قديمة للجرجاني ؛جديدة لأنها تستعين بمعطيات الدرس البلاغي الجديد وأصوله من تداولية وشعرية، وقديمة لأنها تريد بناء التلقي التاريخي الذي نشأ فيه عمل الجرجاني وتوافرت شروط فهمه في عصر الرجل .

ومحمد العمري قسم دراسته لامتداد مشروع الجرجاني إلى قسمين، حيث قام بقراءة لخطاطة الأسرار والدلائل، راصدا من خلالها التحولات التي طرأت على العملين، وما يتوجب أخذه بعين الاعتبار في قراءة هذين العملين .[1]

---

[1] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص :323.

1-بين غرابة التخييل ومناسبة الكلام للمقاصد:

يبدأ العمري قراءته بأسرار البلاغة، حيث يبني خطاطة الكتاب على ثلاثة مداخل، معتمدا على القراءة النسقية التي تروم كشف النظام الذي يحكم المشروع العلمي، فالمدخل الأول هو المواجهة التي كشف عنها الجرجاني بين المعنى الصحيح والمعنى التخييلي، وهذا الجزء من عمل الجرجاني يريد من خلاله أن يحل مشكلة السرقات الشعرية ببيان المشترك بين الشعراء[1]، والذي لا يعتبر وجوده عند شاعرين سرقة، وبين الفردي الخاص الذي يصنع التميز بين شاعر وآخر، وهنا تتأكد ضرورة فهم الأعمال البلاغية في إطار الانشغالات الأدبية والنقدية لعصرها؛لأنها تمثل إجابات عن الأسئلة المطروحة آنذاك، ويأتي المدخل الثاني من كتاب الأسرار، حسب قراءة العمري، ليكشف عن التراتبية "بين المعنى القريب المأخذ والمعنى البعيد المأخذ "[2] ، مقيما مقارنة بين شتى الصور البلاغية من استعارة وتمثيل واستعارة تمثيلية، ويبين فضيلة الصور ذات الخاصية العجيبة (التخييلية)، وبين الصور الساذجة كالتشبيه المرسل [3]، والمعالجة اللسانية العقلية تبرز من خلال هذا المدخل، لأن الرجل يعالج مسألة الخروج عن الأصل، وصناعة الحدث الشعري بخصائصة ومميزاته التخييلية خاصة منها العقلية، ويكشف العمري من خلال المدخل الثالث عن اهتمام الجرجاني بقضية المجاز، وتقسيمه إلى:

---

[1] ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:328.

[2] محمد العمري، المرجع نفسه، ص:329.

[3] ينظر :الجرجاني، أسرار البلاغة، ص:235.

- مجاز مفرد :"كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول "[1]
- مجاز في الجملة :"كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول "[2]
- المجاز العقلي (الحكمي):وهو الذي يجعله الجرجاني واقعا في الإثبات لا في المثبت أي لا يقع في المفرد .

وقد ظهر للعمري بأن الجرجاني كان مهتما بالإجابة عن الأسئلة التي طرحتها الخلافات المذهبية، حول المجاز ؛بين مثبت مفرط فيه، وبين منكر مفرط في مزيته، ليحل الجرجاني الأمر برأي وسطي "يقبل التأويل في إطار المعرفة البلاغية مسترشدا بالمعطيات السياقية التي تحكم النص "[3]

فالبحث الذي خاضه الجرجاني في الأسرار هو بحث عن مدارج الغرابة ومستوياتها، باعتبارها مكونات للخطاب الشعري ؛ منها ما يعد معيارا لتقييم العمل الشعري وينبغي أن يتأسس عليه (المعاني الفردية الخاصة)، ومنها ما يشترك فيه مع الآخرين (المعاني المشتركة العامة) ولا تعتبر مرجعا ضروريا في بناء العمل الشعري، فكتاب الأسرار "أول كتاب يطرح سؤال الهوية، هوية الخطاب البليغ، فإنه كان محكوما بتوجهه إلى الشعر، ولذلك يصلح أن يسمى حسب تعابيرنا :أسرار بلاغة الشعر، أو

---

[1] المرجع نفسه، ص:249.

[2] المرجع نفسه، ص:272.

[3] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:343.

لغة الشعر "[1]، هذا ما يتفق معه محمد مشبال، لكنه يعممه على كل الدرس البلاغي العربي، وهذا ما لا يوافق عليه محمد العمري ؛ فبالنسبة لمحمد مشبال، البلاغة العربية "علم ألصق بأساليب الشعر وأنسب لطبيعته "[2]، وهذه الجزئية يقع التوافق حولها بين الرجلين، لكننا إذا جئنا إلى ما قرره مشبال حول الأسرار والدلائل خاصة الكتاب الأخير سنجد مفارقة بينه وبين العمري ؛إذ يقول :"وقد أظهر تأملنا في الخطاب البلاغي الموروث أن علماءنا لم يصدروا في صياغة تصوراتهم عن مقولة الأجناس ؛فقد استأثر بوعيهم الجمالي جنس أدبي وحيد لم يستطيعوا الفكاك منه حتى وهم يستشرفون نصا ملك عليهم مشاعرهم، فهبوا لبيان دلائل إعجازه وأسرار بلاغته "[3]، في حين يجعل العمري الدلائل كتابا يختص بالمناسبة التداولية، ويعتمد على المدونة نفسها التي نجدها في الأسرار لكن بمنظور مغاير وبسؤال آخر غير الذي وجدناه يحرك أسرار البلاغة، لكن هذا لا يلغي تفاعل الجانبين، وهذا ما نجده عند مشبال ؛لأنه يعتبر بلاغة الشعر تستطيع احتواء أجناس أخرى وتغنيها ضمن البلاغات النوعية .

ويرصد العمري انتقال الجرجاني من الغرابة الشعرية إلى المناسبة التداولية، معتبرا دلائل الإعجاز عملا مكملا للأسرار يشترك معه في المنطلق (اعتبار البلاغة في المعنى) ويختلف معه في المقصود منه ؛ بين الغرابة وبين مناسبة المقاصد، كذلك يهيمن على نسق الأسرار التخييل الذي يربطه العمري بالمحاكاة الأرسطية، أو القراءة العربية

---

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2012م، ص :41.

[2] محمد مشبال، البلاغة والأصول، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2007، ص13.

[3] المرجع نفسه، ص:14.

لمحاكاة أرسطو، ونجد الدلائل يهيمن على نسقه النحو أو معاني النحو[1]، ولا تختلف قراءة العمري للدلائل عن قراءته للأسرار، فقد رصد المداخل الأساسية للكتاب محددا التقسيمات التي تحكم نسقه، بين التقسيم الثنائي الذي وضعه عبد القاهر للمزية (في اللفظ أو في النظم)، ثم تعديل الجرجاني لهذه الخطاطة إلى تقسيم ثلاثي (مزية في اللفظ أو في النظم أو فيهما معا)، ثم يكشف العمري عن مفتاح مهم في التعامل مع دلائل الإعجاز، فالجرجاني كان يتعامل مع اللفظ والمعنى باعتبارهما مادة وصورة، وحصول المزية عند الشاعر والإعجاز في القرآن إنما يقع بالتفاعل الحاصل بينهما، وليس باعتبار المعنى شائعا فيكون مطروحا، "فكان الغرض هنا هو التمييز بين المكون النوعي والمكون غير النوعي في الشعر"[2]، واهتمام الجرجاني بقضية اللفظ والمعنى وطغيانها على كتابيه، راجع لكونهما "عماد الظاهرة اللغوية وأسس العبارة . وكل كلام عن الكلام، من أي زاوية كان، هو في جوهره تحديد لماهية كل منهما وتحليل للكيفيات التي يتم بها تلاحمهما سواء في مستوى اللفظ المفرد أو في مستوى التركيب "[3]

وتلاحم اللفظ والمعنى من خلال النظم باعتباره وضع الكلام "الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها "[4]

---

[1] ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص :347.

[2] المرجع نفسه، ص:354.

[3] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط3، 2010م، ص:414.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:81.

فالعمري استخرج الخطاطة التي بنى على أساسها الجرجاني عمليه، في قراءة تستهدف كشف بنية مشروع الجرجاني وإعادة تشكيل عناصره وفق رؤية جديدة، ومن خلال استكشاف الأنساق التي تحكم الكتابين، وتحديد المركز والهامش في كل منهما، تمكن من بناء العلاقات بينهما، وكذلك ربط بين عمل السكاكي وما أودعه الجرجاني من نتائج في عمليه، متجاوزا الرازي الذي قام هو كذلك بدور لا بأس به لا ينبغي إغفاله، وسنشير إلى هذا في العنصر المخصص لامتدادات عمل السكاكي في البلاغة العربية .

2- علاقات التخييل بالتداول:

إذا كان "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" يمثلان وجهتين مختلفتين لرؤية الجرجاني البلاغية، فإن الرجل كانت تقف من ورائه خلفيات مذهبية وجهت العملين أو بالأحرى وجهت اختياراته للعناصر البلاغية فيهما، فلا يخفى على أحد انتماء الجرجاني الأشعري، ومناهضته ورده على المعتزلة خاصة فيما يتعلق بمسألة الكلام وطبيعته خاصة إذا تعلق بصفة من صفات الله عز وجل، فالمعتزلة كان من فرقها من يقول بأن كلام الله حروف وأصوات أي جسم مادي محسوس بالسمع، "وأن ذلك الجسم صوت مقطع مؤلف مسموع "[1]، أما الأشاعرة فيذهبون إلى أن الكلام "صفة قديمة أزلية ليس بحرف ولا صوت "[2].

---

[1] أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، تح أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة مصر، 2009م، ص:114.

[2] ابن قيم الجوزية، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ط1، 2007م، ص:811.

هذا الإشكال الكلامي بين المعتزلة والأشاعرة، جعل الجرجاني يقصي في عمليه المادة الصوتية، بل يرجع العمري الأمر إلى أن الجرجاني وبلاغيي الإعجاز لا حظوا توفر النص البشري عل قيمة فنية كبيرة باعتمادها على الجانب الصوتي بالقياس إلى النص القرآني [1]، بل يتمادى ويقول :"بأن الجرجاني كان ينظر إلى بلاغة الإعجاز، البلاغة التي تضمن تفوق القرآن "[2]، هنا علينا أن نوضح بأن البلاغة العربية لا تضمن إعجاز القرآن لأن الله ضمنه لكتابه العزيز والبلاغيون أعملوا عقولهم وتدبروا أوجه إعجازه صوتا وتركيبا ودلالة ... .

ثم يأتي العمري ليكشف إنجازا آخر للجرجاني ضمن نسقه العام، وهو حديثه عن صورة المعنى، باعتبارها هيأة قائمة بين اللفظ والمعنى، ويربطها بمسألة المجاز وصوره أو ما سماه الجرجاني بالمعنى الأول ومعنى المعنى، والصور القائمة على هذا الأساس ترتبط بالنظم النحوي، ويكون معيار جماليتها ومناسبتها التداولية لمقاصد الكلام معتبرا من هذه الجهة و"ربط بلاغة الاستعارة وغيرها من صور التغيير الدلالي بالنظم النحوي يعتبر إنجازا بلاغيا متقدما أو سابقا لعصره ."[3]

مستثمرا لمفاهيم علم النص، خاصة ما يتعلق بالتماسك والانسجام، ليس فقط على مستوى الجملة، بل كذلك على مستوى الصورة العامة للنص الشعري، يقيم العمري قراءته للجرجاني، وعمله حول تماسك البيت من خلال : التقسيم والشرط

---

[1] ينظر : محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 1999م، ص:106.

[2] المرجع نفسه، ص:118.

[3] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:365.

والتشبيه[1]، وإذا كان عمل الجرجاني في الأسرار قائم على العقلية التي تبحث عن تأويلات للغرابة، فإن الدلائل بحث عن تناسب الكلام داخليا من خلال ترابط أجزائه وتناسبه خارجيا من خلال مناسبته لمقاصد الخطاب، وهذا يجعله ينحو إلى نثرية حجاجية إقناعية ترتكز على الشرط والتشبيهات المقارنة، وتنحو نماذج الأسرار إلى صبغة النصوص الحوارية ذات الطابع الحكائي .[2]

كان من بين مرتكزات قراءة العمري، نظرية التلقي في جانبها التاريخي الذي عرضناه مع ياوس Jauss، وفي خضم قراءته للجرجاني، عاد ليبني تلقي الجرجاني التاريخي لنصوص عصره بتقاليدها ومقوماتها المضمونية والفنية، فلاحظ ظهور مفهوم الادعاء عنده، وتناسي مسألة النقل، حتى في تحليلات البلاغيين ؛لأن الساحة الشعرية آنذاك كان أفق انتظار المتلقي حينها موجها نحو تناسي الصور القائمة على التشبيهات القديمة، بل وجعلها أرضية لبناء صور أعلى منها، تبلغ أقصاها مع التمثيل والاستعارة التي تتفاعل فيها عناصر اللغة ومرجعيات الألفاظ .

وهذا ما يجر للحديث عن الوظائف الشعرية للصور البلاغية بين الحجاج والتعليم، ويتناول مقالة الجرجاني حول مواقع التمثيل وتأثيره ؛إذ يقول في هذا الصدد حول أثر التمثيل إذا كان في مقاصد الشعر وأغراضه :"فإن كان مدحا، كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأهز للعطف، [...]، وإن كان ذما، كان مسه أوجع، وميسمه ألذع، [...]، وإن كان احتجاجا، كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر،

---

[1] ينظر :عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:93.

[2] ينظر : محمد العمري، المرجع السابق، ص:372.

وبيانه أبهر."[1]، فالجرجاني يبين أن لصورة التمثيل باعتبارها من أعلى صور البلاغة في تفعيل التخييل دورا حجاجيا يعمل على الإقناع، فالتمثيل:"هو عقد الصلة بين صورتين، ليتمكن المخاطب من الاحتجاج وبيان حججه"[2]، وبجانب التمثيل نجد الاستعارة كذلك تقوم بدورها الحجاجي، "وتعرف الاستعارة الحجاجية بكونها تلك الاستعارة التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي"[3]، وأرسطو تكلم عن هذا النوع من الاستعارة مبينا دورها وهنا نلتمس الصلة التي أراد العمري ربطها بين أفكار أرسطو وبين الجرجاني .

ثم يخوض في التحليل الفلسفي الباحث في أعماق التكوين الإنساني وفطريته، وطريق اكتسابه للمعارف فالجرجاني، يقول في موقع مهم من كتابه:" وإذا بحثنا عن ذلك، وجدنا له أسباباً وعِلَلاً، كلٌّ منها يقتضي أن يَفخُمَ المعنى بالتمثيل، وينبُلَ ويَشرُفَ ويكمل، فأَوَّلُ ذلك وأظهره، أنّ أُنْس النفوس موقوفٌ على أن تُخرجها منخفيٍّ إلى جليٍّ، وتأتيها بصريح بعد مكنيٍّ، وأن تردَّها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخرهي بشأنه أعلم، وثقتُها به في المعرفة أحكم نحو أن تنقُلها عن العقل إلى الإحساس وعما يُعلَم بالفكر إلى ما يُعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفادَ من

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص:85.

[2] عبد الهادي بن ظافر الشهري، آليات الحجاج وأدواته ، ضمن :الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد –الأردن، ط1، 2010م، ص:139.

[3] عمر أوكان، اللغة والخطاب، رؤيا للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص:218.

طرق الحواسِّ أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حدِّ الضرورة، يفضُل المستفاد من جهة النَّظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام "[1]

فالجرجاني يصرح بأن للتمثيل دورا معرفيا خاصة إخراج الخفي إلى الجلي بالعودة إلى الحس والاستفادة من معطياته اللغوية، والعمري قسم سبب تعلق معارف الانسان بالتمثيل إلى قسمين :

- لذة المعرفة : وتقترن بما يكتسبه الإنسان من معارف، وللقضية علاقة بالصدق .
- لطف المفارقة :وهذا مايسنده واقع النظرية الأدبية في زمن الجرجاني .[2]

وقد عالج الجرجاني الوظيفة الشعرية –حسب رأي العمري- معالجة فلسفية تنقب عن الأسباب المعرفية والنفسية، وهذا ما نراه يتوافق مع الدراسات المعاصرة للاستعارة ودورها المعرفي، خاصة النظرية التفاعلية التي تعتبر التمثيل والاستعارات سبلا لفهم العالم والتأثير فيه وإنشائه .[3]

واستخدام مفارقات اللغة التي تمثلها صور البلاغة واستثمار فهمها لبناء المعرفة والمفارقة والغرابة، ما كان الجرجاني ليكشف عن دقائقه لولا النصوص الشعرية التي استعان بها من شعراء عصره أو قريبي العهد منه ؛مثل أبي تمام (ت هـ) وأضرابه من اتجاه البديع .

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، المرجع سابق، ص: 93.

[2] ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص386.

[3] ينظر :محمد مفتاح، مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط1، 1990، ص:49.

هكذا كانت قراءة العمري للجرجاني تهدف إلى كشف أنساق مشروعه والبحث في المنجزات الأساسية التي قدمها، وإعادة النظر في الأصول والمرتكزات التي بنى عليها مشروعه، وكيف تفاعل الجرجاني مع أسئلة عصره ؛خاصة الأدبية والفكرية، وبناء بلاغة عربية تعتمد على معطيان الدرس البلاغي عند الجرجاني تتطلب التعمق أكثر في مشروع الأسرار والدلائل، وإضاءة السبل التي تجمع بين العملين وتمكن من بناء تصور شامل لبلاغة تجمع بين الشعري التخييلي وبين التداولي، وتحرص على مقاصد الإنسان المعرفية .

ثانيا: الصحة والتناسب :قراءة سر الفصاحة.

ينطلق العمري في قراءته "سر الفصاحة"[1] لابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)، من اعتبار هذا المؤلَّف مشروعا جريئا لصياغة بلاغة صوتية، حاورت الخلفية المذهبية، وعبرت عن الممكن انجازه في تأسيس بلاغة الخطاب[2]، ويستكشف العمري امتداد مشروع الخفاجي، من خلال رؤية تقف وراءها معطيات الشعرية المعاصرة، وأعمال الشكلانيين التي سبق، وأن استثمرها في الموازنات الصوتية، ونجد مشروع ابن سنان يقترب كثيرا من المعطيات النظرية والتطبيقية للشكلانية الحديثة، فقد "اهتم ابن سنان بدراسة البنيات اللسانية للشعر مركزا في تحليله لبنية اللغة الشعرية على البنية الصوتية، باعتبارها البنية المهيمنة داخل الخطاب الشعري، [...] وهذه البنية هي التي أكدت شاعريتها دراسات الشكلانيين الروس، وصموئيل لفين، وجون مولينو، وكوهين، وميشونيك، ولوتمان، وغيرهم؛فالتوازنات الصوتية تلعب

---

[1] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1982.

[2] ينظر :محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:405.

دورا أساسيا في خلق الوظيفة الشعرية في اللغة"[1]، بالإضافة إلى حضور الهم النسقي ؛عند ابن سنان من خلال رغبته في أن تكون للبلاغة هيكلة علمية كالنحو والعروض، ويحاول استكشاف ضوابط هذه الصناعة، وتقديم أسرارها التي تقوم عليها قوانينها وتنضبط جزئياتها، وعند العمري الذي سيستقصي جزئيات العمل ويقيم قراءته على خاصية القراءة الشمولية، واستنتاج الدعائم التي يقيم ابن سنان عمله عليها .

يبدأ ابن سنان مشروعه بالحديث عن وجه الحاجة إلى معرفة الفصاحة بالنسبة للعلوم الأدبية، والعلوم الشرعية ؛إذ نجد مدار معرفة الإعجاز يتمحور حولها، سواء كان تحديا مع العجز دون سلب قدرة، أم كان صرفة على رأي المعتزلة[2]، والرجل ههنا يريد أن يعطي موقعا علميا للفصاحة (علم البلاغة) بين بقية العلوم في عصره ببيان وجه الحاجة إليها، مما يوحي بأن الرجل كان يعالج المسألة في إطار جدلي يقف فيه من يرى عدم جدوى هذا العلم، أو تشتت مباحثه لغير غاية ضبط أو تقنين .

ثم يخصص ابن سنان فصلا يتحدث فيه عن الصوت، وعن اللغة، فهو يعطي أهمية كبيرة للجانب الصوتي باعتباره عمود الفصاحة، لكن يلاحظ العمري من خلال الفحص النسقي لبنية عمل ابن سنان، أنه تنازل مرة تلو الأخرى عن مقولة الصوت، باعتباره محور الفصاحة، كلما اقترب من مفهوم البلاغة، وقد أدى به تنازله المتتابع هذا إلى الحديث في نهاية المطاف عن المعنى مجردا، ومحددا له شروطه، وفي ذلك يقول :"هكذا يفسر ابن سنان توسعه من الصوت إلى اللفظ، ومن نعت اللفظ بحسب طبيعته الخاصة (وهي الإفراد)إلى التركيب وهو محكوم بالدلالة.وصولا إلى المعنى

[1] عمر أوكان، اللغة والخطاب، دار رؤيا للنشر، القاهرة مصر، ط1، 2011م، ص:187.

[2] ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، ص ص: 13، 14.

مجردا من اللفظ "[1]، ويلاحظ العمري وقوع ابن سنان في مفارقات حول التشبيه والاستعارة، تبعا للتقسيم الذي وضعه بين المعاني المفردة والألفاظ المؤلفة، مما أدى به إلى تداخل المستويات التي عالج من خلالها الظواهر البلاغية خاصة لما جعل التشبيه من باب المعاني المفردة والاستعارة في باب تأليف الألفاظ، مع أن التصريحية تقوم على مقياس التبديل المفرد كما هو واقع في نماذج التشبيه البليغ المتنازع حول انتمائه[2]، كذلك كان اقترابه من مفهوم البلاغة باعتبار أن مجالها يلتقي فيه اللفظ المؤلف والمعنى، سببا جعله ينساق للحديث عن المعاني مجردة، وعن الألفاظ (مفردة، ومؤلفة بعيدا عن المعنى[3])، ثم يمارس العمري قراءة داخلية بين أنساق المشاريع البلاغية، تجعل هذه الأخيرة تتحاور فيما بينها، ويقوم الدارس المعاصر بقراءة نسقية لا تتجاهل السابق واللاحق في الكشف عن الخطط والمقاصد ؛إذ نجد العمري يحاور منجز ابن سنان البلاغي في ضوء ما قدمه الجرجاني، هذا الأخير الذي تمكن من الخروج من مأزق اللفظ والمعني (الذي وقع فيه ابن سنان) بفضل فكرة صورة المعنى ومعنى المعنى، وهو مفهوم وسط بين المجرد والحسي[4]، يذكرنا دائما بالوفاق الأشعري في عديد من المحطات، والعمري لم يفصل حديثه عن المشاريع البلاغية أو الامتدادات عن الروافد والخلفيات، فالنزعات المذهبية حاضرة في قراءاته خاصة للجرجاني وابن سنان .

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:416.

[2] ابن سنان الخفاجي، ص:119.

[3] المرجع نفسه، ص:414.

[4] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:421.

تحت عنوان :"الرؤية البلاغية في المنجز / الصحة والتناسب "[1]، يدخل العمري المبحث الثاني في قراءته لمشروع ابن سنان الخفاجي، معلنا عن :

- انتماء بلاغة ابن سنان : بلاغة كلاسيكية .
- دعائم منجزه البلاغي :

6- المحافظة(على الأعراف والسنن).

7- الاعتدال .

8- الانسجام.

9- التناسب.[2]

واعتمادا على التشابه الحاصل بين مقومات الكلاسيكيّة الغربيّة ؛من: عقل، ومحافظة، وتغليب الحسّي المسموع على العقلي الغامض، فقد جعل انتماء بلاغة ابن سنان إلى المنجز الكلاسيكي (من ناحية المنطلقات والرؤية، وليس من الناحية التاريخية)، لكننا نلاحظ إقرار العمري بالصلة القائمة بين مشروع سرّ الفصاحة، وما قدّمه قدامة بن جعفر(ت 337هـ) في نقد الشعر ؛حيث اعتبره "حلقة بين تصور قدامة بن جعفر وتوجه حازم القرطاجني"[3]

هذا الحكم أطلقه العمري من ناحية اهتمام ابن سنان بالمادة الصوتية، لكنه أغفل اهتمامه بالجانب العقلي والمنطقي، فإذا كان الانتماء إلى الكلاسيكية معياره العقل(من خلال الحرص على التناسب والاعتدال وعدم التناقض والاستحالة)

---

[1] المرجع نفسه، ص:422.

[2] المرجع نفسه، ص: 422.

[3] المرجع نفسه، ص:461.

والمحافظة، فإن قدامة بن جعفر كان مصدره فيها أرسطيا محضا، وعمله ترك أثرا على سر الفصاحة، و"لقد استجاب قدامة –فيما فعله –إلى ما ذهب إليه أرسطو، عندما عدّ الاستحالة والتناقض ومخالفة العقل أنواعا للنقد الذي يوجه إلى الشاعر"[1]فانتماء عمل ابن سنان للكلاسيكية لا تحدده المعايير المتأخرة للاتجاه، بل نجدها ذات جذور أرسطية نابعة من الفهم العربي للمنطق الأرسطي والعقلية اليونانية، وهذا أقرب لبلاغة ابن سنان، ويكشف عن مصادر درسه خاصة ما يتعلق بالتناسب والاعتدال، وهذا حرصا على فهم الدرس البلاغي العربي داخليا قبل أن نتجه إلى تصنيف معالمه واتجاهاته خارجيا .

ويذهب العمري إلى قراءة ما جاء به ابن سنان، خاصة على المستوى النظري – بعد أن وضح دعائم المنجز البلاغي عنده –، في ضوء ما قدمه ضياء الدين ابن الأثير(ت637هـ)، مع أن هذا الأخير ينتمي إلى تيار بلاغي مغاير، وذو أصول ومرجعيات مختلفة عن صاحب سرّ الفصاحة، وهذا ما جعله يقول عن ابن سنان :" إنه قد أكثر مما قل به مقدرا كتابه، من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليها ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره ومن الكلام في مواضع شذّ عنه الصواب فيها."[2]، إلا أن ما يجمع الرجلين هو اهتمامهما بأناقة الخطاب القائمة على الاعتدال والصواب، وتتجه رؤية العمري للربط بين الجاحظ وابن سنان من خلال ما

[1] جابر عصفور، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر، ط5، 1995، ص:146.

[2] ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1999، ج1، ص:24.

قدمه ابن الأثير؛ عندما جعل موضوع علم البيان جامعا بين الفصاحة والبلاغة، مبتعدا به عن المفهوم الجزئي الذي قدمه السكاكي .[1]

وقد برز في قراءة العمري لمشروع ابن سنان، حوار المشاريع البلاغية أو الدرس البلاغي داخليا، حيث يستعين الدارس بمشاريع بلاغية عربية لقراءة المشروع قيد الاستكشاف، مع الاستعانة بالمفاهيم الغربية قدر ما يسمح به نسق البلاغة العربية، ومفاهيمها .

ثالثا:البلاغة بين علم الأدب والعلم الكلي:

يدخل العمري الامتداد الثالث من امتدادات البلاغة العربية، موجها ناظريه نحو علمين كبيرين في تاريخ الدرس البلاغي العربي، الأول (أبو يعقوب السكاكي) غائب حاضر، منذ أن خرج على الناس بـ: "مفتاح العلوم"[2]، يطرح حول عمله سؤال المركز والهامش، وسؤال المنسي والمغيب، والثاني (حازم القرطاجني) منسي في الدرس البلاغي كما وصل إلينا، يطرح حول عمله:"منهاج البلغاء وسراج الأدباء"[3] سؤال الهوية، ويثير إشكالية إحضار الغائب منه، وإدماجه من جديد بأسلوب يحترم أنساقه وانتماءه ومقاصده في البلاغة العربية المنشودة .

ويصرح بأن التعمق في تحليل إشكاليات المشروعين لا يجد مكانا له في كتابه:"البلاغة العربية أصولها وامتداداتها " الذي اعتمدنا عليه في قراءة مشروعه ؛

---

[1] ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:461.

[2] أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، تح عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، 1997م.

[3] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط2، 1981م

كنموذج يعكس قراءة البلاغة العربية في ضوء معطيات الدرس الجديد، ويُرجِع ذلك إلى الظروف التي أحاطت بانجاز الامتدادين السابقين، وهي ظروف خارج نطاق البحث العلمي ؛ كما تصفها عبارته :"في ظروف أقل ما يقال عنها أنها ضد كل طموح، ينحت المرء من نفسه إلى حد التلاشي"[1]، هذا ما يجعل العمري يقر بأن ما قدمه حول العَلمين (السكاكي وحازم) لا يعدو أن يكون خطة عامة لمشروعيهما، وقد وضع العمري الرجلين تحت فصل واحد أطلق عليه تسمية :" البلاغة المعضودة بالنحو والمنطق "[2]؛ آخذا إياه من كلام القرطاجني في الإضاءة الثالثة من المعلم(أ)من المنهج الثاني من القسم الثالث (المباني) حيث يقول حول مستوى البلاغة التي ينبغي أن يرتقي إليها من يريد استقصاء العلل وكشف خفايا النظم :" لمن طمحت به همته إلى مرقاة البلاغة المعضودة بالأصول المنطقية والحكمية "[3]، والجامع بين حازم والسكاكي أنهما يدخلان ضمن دائرة هذا النوع من البلاغة التي تستند إلى أصول عقلية ومنطقية، كما هو حال السكاكي الذي وضع بلاغته ضمن علم الأدب القائم على النحو والمنطق، هذا ما جعل العمري يجمع بين العملين تحت عنوان واحد ؛ لوجود قواسم مشتركة بين الرجلين سواء كانا على وعي بذلك أم لم يكونا على وعي، إلا أن التاريخ البلاغي قد جمعهما مرة أخرى، فالسكاكي أسيئ فهمه، وبترت بلاغته ونُسيت مقاصده، أما حازم فلم يجد محاورا له أو شارحا أو ملخصا لأن مرجعياته كانت تمثل عصرا أقرب لأجواء القرن الرابع الهجري وفطاحلته، فأكل الزمن قسمه الأول، ولما خرج من دور النسيان، تنازعته الدراسات كل يدّعي انتماءه إلى مجال بحثه

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:466.

[2] المرجع نفسه، ص:463.

[3] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص:231.

؛بين الشعرية والنقد والأسلوب ... ومن يدري إلى أي اتجاه ستنسبه الأجيال القادمة ؟ مع أن الرجل كان صريحا بأن موضوع كتابه هو علم البلاغة، إلا أن معظم الدراسات النقدية العربية كانت تسير حتى أواخر التسعينيات في اتجاه يجعل البلاغة علما قديما وشارف على انتهاء صلاحيته، وستعوضه آليات جديدة، لكن الدراسات الغربية كانت تسير في اتجاه معاكس ؛إذ اقتربت من البلاغة واعتبرت الدراسات القائمة على النص والخطاب خاضعة تحت طائلة إمبراطورية البلاغة .

والأمر نفسه مع مفتاح العلوم، إذ لم يناقَش السكاكي، ولم يحاور محاورة جادة في مفهومه للبلاغة –التي جعلها مبحثا مكملا للنحو يقع على أرضها تحاور الشعري، والمنطقي، والنحوي – قائمة على الانتقاد أو التوسيع والربط، إنما اتجه علماء القرن السابع وما يليه نحو التلخيص الذي بتر صاحبه جلال الدين القزويني(ت739هـ) من خلاله البلاغة عن نسقها العام، وقاموا بشرحه، وتهميشه، ثم نظمه وإعادة شرحه، ويقول العمري في التعليق على عدم تفاعل علماء القرون التي تلت ظهور المفتاح، وجمود الدرس النحوي وانفصاله عن الحركة الإبداعية :"لو عاد ابن جني إلى الحياة في عصر السكاكي [...] لأدخل أغلب النحاة إلى الكتاب لحفظ شيء من شعر المتنبي، [...]، ولربما غضب، وغض عن العواقب، فألحق المفتاح بكتاب الفصوص"[1]، والسكاكي ليس له يد فيما وصلت إليه البلاغة العربية مع شراح التلخيص، لأن هيمنة النحو والمنطق على عمله جعلت سؤال البلاغة الأساسي والمركزي يغيب عنده وعند شراح التلخيص، مما عرضه لانتقاد العمري بأنه وقع في

[1] محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص:148.

"عدم المناسبة المنهاجية "[1]، لكن من جهة ثانية يعطي قيمة لعمل السكاكي باعتباره أجرى حوارا كان شبه مستحيل بين النحو والمنطق والشعر، وكانت البلاغة هي الأرض التي احتضنت هذا الحوار، ولم يستطع من جاء بعد السكاكي أن يواصل رؤيته أو حتى ينقدها بطرح البديل أو قراءتها شرحا وتوسيعا لآفاقها .

1- قراءة العمري لمشروع السكاكي :

أ/ رصد الأنساق وبناء الخطاطات :

يسير السكاكي في طريق قراءة عبد القاهر الجرجاني في الأسرار والدلائل ويكشف المخبوء في مشروعه، ويقف على الخط نفسه معه في مسائل اللفظ والمعنى والنظم، ومطابقة الكلام أو مناسبته للمقاصد، والفرق بينهما يكمن في أن صياغة الجرجاني كانت تجمع ما هو نحوي، ومنطقي، وكلامي / عقائدي وتصوغ من خلاله سؤال البلاغة عنده :" ما الذي يجعل بعض الكلام أحسن من بعض ؟"[2]، ويطغى على مشروعه الطابع الإشكالي، أما السكاكي فقد رفع الحجاب عن مكونات مشروع الجرجاني وقدمها في شكل مقنن محاولا ضبطها (كما صنع الرازي صاحب نهاية الإيجاز)، "فنبز بالمدرسية ومجافاة الذوق الأدبي "[3].

يقول السكاكي، عارضا مضمون مشروعه :" وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه وهي عدة أنواع متآخذة فأودعته علم الصرف بتمامه وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع على أنواعه الثلاثة وقد كشفت عنها

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:483.

[2] المرجع نفسه، ص: 473

[3] المرجع نفسه، ص:473.

القناع."[1]، هنا يتضح الأمر، بأن الرجل في مشروعه يبتغي تأسيس علم للأدب، يبدأه بعلم الصرف وما يستتبعه من اشتقاق، ثم يسير نحو علم النحو الذي يقود نحو علم المعني وضبط التركيب بمناسبته التداولية، ويتصل هذا بإيراد الصور على المقاصد المناسبة وهو علم البيان، ومادام هذا العلم تتعلق تراكيبه بالتحكم في صور الكلام، فلابد أن يربط بالاستدلال والمنطق، فإذا استخدم في الشعر كانت الحاجة إلى معرفة العروض والقوافي لازمة فكان ذكرها عند السكاكي للاستئناس، هكذا هيكل الرجل مشروعه، "الأدب يساوي عنده، في نظرنا، الخطاب السليم الناجع .منهذا المفهوم يتحدث السكاكي عن علم الأدب الذي نراه تصورا مبكرا لما يسمى حاليا علم النص "[2]، ويرى العمري بأن أصحاب هذا الاتجاه البلاغي يلتقون مع السكاكي في دراسة النص في أبعاده النحوية / التركيبية والأدبية والاجتماعية .[3]

كشف العمري عن مفارقة بين مشروع السكاكي كتصور ممكن التحقق، وبين المنجز في الواقع ؛فالسكاكي ينطق ظاهر مشروعه بأن المعاني والبيان تتمة لعلم النحو وعلم الحد والاستدلال تتمة لعلمي البيان والمعاني، لكن الواقع هو أن كلا من النحو والمنطق يلتقيان في منطقة مشتركة، تجمع بينهما بعد أن كان النزاع واقعا حول نجاعة أحدهما أمام الآخر .[4]

---

[1] أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص:37.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:496.

[3] ينظر :محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص:50.

[4] ينظر : محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:472.

وفي ضوء الدراسات التداولية والمنطقية التي تهتم بالسكاكي ووجهة نظره، تمكن العمري من كشف مركز مشروعه ؛إذ "كان السكاكي يبحث عن مكونات:علم الأدب .العلم الذي يصون المتحدث من الخطأ في : مطابقة الكلام لقواعد اللغة أولا، ثم لأحوال ومقامات المتخاطبين ثانيا، ثم يعطيه حسنا وقبولا ثالثا."[1]ويجعل البديع قسما ثالثا يمكن الاستغناء عنه لأنه غير نابع من سؤال المناسبة للمقاصد أو المناسبة التداولية، فهو داخل ضمن نظرية الشعر، ولا يهتم بظواهر التقديم والتأخير والفروق بينهما، أي لا نجد حضور مقولة النظم بقوة في نسق مؤلفاته .

إن خطة مشروع السكاكي مفتاح للعلوم اللغوية أو لتفاعل الإنسان مع لغته ؛صوتا، وصرفا، وتركيبا، ودلالة عبر مختلف وجوهها، وتنظيما لاستراتيجيات التخاطب ومقاماته وأحواله.

ب/ سؤال البلاغة وحوار الاختصاصات :

يعرف السكاكي البلاغة بأنها :"بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ."[2]حيث نجد أثر الجرجاني، وابن سنان في اعتماده على مفهوم المعاني في البلاغة، ويتكلم عن خواص التراكيب بما يساوي علم المعاني، ويتكلم عن إيراد الصور وهذا يتفق مع علم البيان، "هكذا تحل البلاغة (أي علم المعاني والبيان مدمجين)محل الصدارة، وتصير العلوم الأخرى مساعدة لها "[3]، ولم يستطع السكاكي ألا يمر على

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص:46.

[2] أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ص:526.

[3] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:472.

مفهوم البلاغة ؛لأنه مفهوم مركزي ومحوري، ومنه سيستفيد أهم شارح له وهو القزويني، ويأتي بمطابقة الكلام لمقتضى الحال بعد فصاحته .

ويعتبر العمري مفهوم البلاغة عند السكاكي مرتبطا بميادين الشعر والمنطق والنحو ؛إذ تقع عند تقاطع ثلاثة مباحث متداخلة ومتنافرة في الوقت نفسه، هي النحو والمنطق والشعر [...] وبذلك يمكن تمثيل بلاغة السكاكي بالتقاطعات التالية :

	الشعر	
النحو	البلاغة (المعاني والبيان)	المنطق (الاستدلال)

[1]

وقد تبين للعمري وجود اتصال بين علم البيان والاستدلال من خلال كلام السكاكي عن إيراد الدليل بأوجه متعددة، فالبيان يوجد في منطقة يتفاعل فيها الشعر والمنطق، مما يتيح المجال للحديث عن استخدام الشعري في الإقناع، والتأثير على المتلقي، وعلم المعاني يقع في المنطقة التي يتفاعل على مستواها النحو والمنطق، ويلجأ العمري إلى القراءة النسقية الداخلية بين السكاكي وابن أبي الإصبع (ت654هـ)، ويرى العمري بأن هذا الأخير لم يهتم بقضايا المقام ومناسبة الكلام للمقاصد التداولية في كتابه :"

---

[1] المرجع نفسه، ص:476.

تحرير التحبير "[1]، أما السكاكي فقد جعل البديع يتفاعل مع المنطق ممثلا مجال البيان كموقع مميز له، ومن جهة ثانية يقيم علاقة بين البيان عند الجاحظ وما ورد عند السكاكي ؛ إذ "يلتقي علم المعاني عند السكاكي مع البيان عند الجاحظ، ويتكامل معه في كون كل واحد منهما يبحث في علاقة الخطاب بالأحوال والمقاصد، أي في البعد التداولي للخطاب "[2]، إن فهم علم المعاني باعتباره صورة تعكس اهتمام الجاحظ بالظروف والأحوال كان كفيلا بإعادة الحياة لهذا العلم في الفترة التي تناوله فيها الشراح وزادوه تقنينا عبر صور الحذف والتقديم والتأخير والقصر ...وغيرها من المباحث التي أصبحت مفرغة من محيطها ومقاماتها، وظل البيان ضمن كتب الأدب يستأنس به، إن قراءة التراث حسب رؤية العمري تستتبع معرفة بأنساقه وأصوله، والإمساك بالروابط التي تصنع شبكة بين الاتجاهات المختلفة لأي ميدان علمي، خاصة البلاغة ؛لأن اللاحق ينطلق من نتائج السابق؛رفضا ونقدا، أو توسيعا، أو تقديم البديل .

ليصل العمري إلى أن "أهمية عمله تكمن في اكتشاف منطقة تقاطع النحو والمنطق والشعر، أي في وصوله شخصيا إلى عاصمة البلاغة . وبذلك خرج من خطاب التنافي بين النحو والمنطق والشعر الذي تاه فيه متى بن يونس والسيرافي وغيرهما، وكان من حقه أن يقول وجدتها !"[3]، لكن تغليب النحو والمنطق جعل

---

[1] ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبين إعجاز القرآن، تح :حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2012م.

[2] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص: 45.

[3] المرجع نفسه، ص:46.

السكاكي يغيب السؤال البلاغي، خاصة في مباحث المعاني ؛عندما لم يطرح سؤال لماذا يكون الحذف ولماذا يكون التقديم ؟ مما أوقعه في عدم مناسبة منهاجية يسجلها عليه العمري [1]، كذلك أثرت المعالجة النحوية على فصل المشروع عن الحركية الأدبية / الشعرية التي استفادت منها مشاريع الجرجاني وابن المعتز قبله، وغلبة المعالجة النحوية هو ما جعل العمري (في صيغة أخرى من الكتابة أقرب لبداية المجتهد ونهاية المقتصد) يحكم على بلاغة السكاكي بأنها بلاغة مأسورة لدى النحو والمنطق[2]، وأن من جاء بعد السكاكي حول البلاغة إلى خادمة فاتنة مريبة، ويعمل الجميع على اختزالها وعدم توسيع الكلام عليها .

2- قراءة مشروع حازم القرطاجني :

أ/ المسار التاريخي للمشروع :

لقد كانت قراءة الفلاسفة لفن الشعر لأرسطو مثمرة من جهتين :

- الجهة الأولى :معرفة مبادئ الصناعة الشعرية عند الآخر، ومن خلالها إعادة النظر في صناعة الشعر العربي، ولو على وجه المقارنة، كما نجد عند الفارابي عندما تنبه إلى أن "الأقاويل الشعرية :إما أن تتنوع بأوزانها، وإما أن تتنوع بمعانيها "[3]، ثم يلاحظ بأن التقسيم القائم على المعنى وجد عند العرب حسب تقسيمهم للأغراض الشعرية في تقاليدهم الأدبية بين فخر ومدح

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:483.

[2] ينظر :محمد العمري، أسئلة البلاغة، ص:147.

[3] أبو نصر الفارابي، رسالة في قوانين صناعة الشعراء، تح عبد الرحمن بدوي (ضمن فن الشعر)، مكتبة النهضة المصرية، 1953، ص:151.

وهجاء، وغيرها من الأغراض التي تتخذ من المعنى عمدة لتقسيمها وتنوع تصنيفاتها، ولا حظ بأن اليونانيين "جعلوا لكل نوع من أنواع الشعر نوعا من أنواع الأوزان، مثل أن أوزان المدائح غير أوزان الأهاجي، وأوزان الأهاجي غير أوزان المضحكات، وكذلك سائرها "[1]، فالفارابي قارن بين صناعتي الشعر عند العرب وعند اليونان وتفهم الأسس التي يبنى عليها القول الشعري ومن ثم حكم على طرق التقسيم والتصنيف .

- الجهة الثانية : العمل على فهم المتن الأرسطي، ومحاولة تطبيقه على النص العربي، بتغيير مركزياته، وتعديل مقولاته بما يتوافق مع النص العربي، وإمكانات اللغة العربية وبلاغتها، وفي هذا الإطار نجد أبا الوليد بن رشد في تلخيصه لفن الشعر لأرسطو ؛حيث فهم المحاكاة باعتبارها تغييرا يجري على مستوى بناء اللغة وعبارتها، وليس بالفعل التمثيلي، ونجد ذلك واضحا في الفصول التي يتكلم فيها عن المحاكاة والتشبيه[2]، وقد حاول الرجل أان يستعين بالمادة الشعرية العربية ؛من للأعشى أو الاشار للقصص القرآني[3] في الحديث عن أثر المحاكاة .

في هذا الإطار يتموقع عمل حازم القرطاجني، إذ أعلن رغبته في تدارك النقص الذي رآه الفارابي وابن رشد، للبلوغ إلى معرفة القوانين البلاغية الكلية التي تنتظم

---

[1] المرجع نفسه، ص: 152.

[2] أبو الوليد بن رشد، تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، تح عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، 1953م، ص:222.

[3] المرجع نفسه، ص:220.

الصناعة الشعرية تحتها، "ويَعتبر حازم عمله تكميلا لعمل الحكماء الذين تنولوا موضوع الشعرية، وذلك من حيث نظره في الكليات على ضوء متن إضافي غني، وتخصيصا له من حيث توجيه القوانين البلاغية نحو ضبط الخصوصية الشعرية لشعر أمة معينة، أي الشعر العربي "[1]

فالنظرية البلاغية التي تحوي الكليات الشعرية يمكن أن توسع لتشمل الشعر العربي مع احترام خصوصياته التي لو رآها أرسطو لزاد على ما جاء به، يقول حازم القرطاجني عن أشعار اليونان وطرقهم في المحاكاة والبناء الشعري :"فأما غير هذه الطرق، فلم يكن لهم فيها كبير تصرف، كتشبيه الأشياء بالأشياء، فإن شعر اليونانيين ليس فيه شيء منه ؛وإنما وقع في كلامهم التشبيه في الأفعال لا في ذوات الأفعال "[2]، ومادامت هناك أساليب وطرق لا توجد عند اليونانيين وبالتالي لم يتكلم عنها أرسطو، فلابد من الزيادة والتكميل، ولم لا قراءة المتن الأرسطي بعيون النص العربي بلاغة وإنجازا، وهذا ما يقرره بقوله :" ولو وجد الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال، والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني وحسن تصرفهم في وضعها ووضع الألفاظ بإزائها، وفي إحكام مبانيها واقتراناتها ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطراداتهم، وحسن مآخذهم ومنازعهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزاد على ما وضع من القوانين الشعرية ."[3]

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:486.

[2] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص:69.

[3] المرجع نفسه، ص:69.

إذا لاحظنا مرتكزات النقد الذي قدمه حازم، ضمنيا للشعرية الأرسطية، ندرك بأنها ذات أسس بلاغية لغوية، تجمع التخييلي مع التداولي الإقناعي، ولذلك فإن الزيادات التي سيقدمها حازم ضمن منهاجه سيتشارك فيها الشعري والخطابي مع غلبة الأول على الثاني .

ب/ أسئلة البلاغة بين المشروع والمنجز عند حازم :

يفرق العمري كما سبق وأن رأينا مع السكاكي بين المشروع، باعتباره الهدف المنشود والممكن التحقيق والتصور الذي تبنى عليه المقاصد، وبين المنجز وهو ما وقع تحقيقه فعليا، وبالنسبة للمنهاج، فإن العمري يبدأ قراءة المشروع من موقف حازم الذي يترجمه قوله :"لما كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشعر والخطابة وكان الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع "[1]، فموضوع البلاغة يتقاسمه الشعر والخطابة ؛من خلال آليتي التخييل والإقناع، مع إمكانية تداخلها واستفادة الشعر من الإقناع والخطابة من التخييل، إن ما يعرضه حازم هو البلاغة الكلية هذا عن المشروع والتصور الذي وضعه في حير الإمكان أما المنجز فقد حدده العمري قائلا :" إن موضوع كتاب منهاج البلغاء هو بلاغة الشعر أو الشعرية حسب تعبيره."[2]

ثم يكشف العمري عن خطة الكتاب وعن العلاقات الموجودة بينها، فحازم يقسم عمله إلى أربعة أقسام :

---

[1] المرجع نفسه، ص:19.

[2] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:487.

- اللفظ :(جزء مفقود)، عمل العمري على استكمال تصوره حسب ما رآه، وقد أصر على أن مواده مستقاة من سر الفصاحة، مع أن بنية الكتاب لا تعكس رؤية ابن سنان ولا توجهه .
- المعنى : ومن خلاله رصد حازم مصدر المعاني وعلاقاتها وأنواعها ودخولها إلى المحاكاة .
- المباني :وهو القسم المخصص للأوزان وعلاقاتها بالأغراض الشعرية وتأثيراتها .
- الأسلوب :وخصصه لمذاهب الشعراء وجهات القول الشعري وتنوع المعاني والأغراض .

ومن خلال هذه العناصر الأربعة يمكن الحديث عن المحاكاة في الشعر، فالتخييل يقع في هذه الأنحاء وبتضافرها ينجز القول الشعري .[1]

ثم يلاحظ العمري وجود علاقة نسقية بين المعاني والأسلوب، وقسم اللفظ المفقود، الذي حاول بناءه وبين المباني، من خلال تعريف حازم للأسلوب والنظم؛حيث يقول :"فالأسلوب هيأة تحصل من التأليفات المعنوية، والنظم هيأة تحصل عن التـأليفات اللفظية "[2]، فالمعاني تتخذ سبلا لها من خلال مقاصد المتكلمين، وهذه الطرق المتفننة تتصل بالأسلوب، أما الألفاظ فتتحد مع المباني الشعرية وتكون النظم من خلالها، وهكذا "تكون علاقة الأسلوب بالمعاني كعلاقة النظم بالألفاظ"[3]

---

[1] ينظر، المرجع السابق، ص:488.

[2] حازم القرطاجني، ص:364.

[3] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:489.

ويتمكن العمري من نقد خطة حازم، من خلال النظر إلى الانتقال من الجملة إلى النص، فتفريقه بين اللفظ والمعنى، وبين النظم والأسلوب، والتفريق بين مستوى الجملة ومستوى النص مما أدى كذلك إلى تداخل أجزاء المنهاج، ومسألة التفريق بين اللفظ والمعنى أوقعت حازم في الإحراج الذي وقع فيه الجرجاني ؛إلاأن هذا الأخير وجد المخرج من خلال معنى المعنى أو صورة المعنى، أما القرطاجني فقد انعكس تفريقه على معالجة عديد الظواهر مثل الغموض، ويحاول العمري تضييق الخناق على حازم ؛من خلال محاسبته منهاجيا على عناوينه التي لا حظ عليها الإطالة وعدم الضبط وإلزامه بخطة معاصرة لا يحاسب –منطقيا –عليها.[1]

وضمن قراءة المنجز المتحقق فعليا عند حازم القرطاجني، يشير العمري إلى قضية الصدق والكذب التي حاول حازم معالجتها، وهي القضية التي أقضت مضجع النقاد وأثارت النقع بينهم، والجرجاني وابن قتيبة من هؤلاء، إلا أن حازم لا يرى وجود الكذب بالضرورة في الشعر فالتخييل لا علاقة له بالكذب، وهو موقف نجده عند ابن قتيبة عندما يفصل الكذب عن المجاز[2]، وأن الشعر موجود بين التقصير والاستحالة أو ما سماه حازم بالاختلاق الإمكاني[3]، بالإضافة إلى قضية تداخل الشعري والخطابي في حدود ما يسمح به الغرض المقصود، وأن كلا من الشعر والخطابة يلتقيان في التأثير والتوجيه .[4]

---

[1] محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص:494.

[2] ينظر، ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص:145.

[3] حازم القرطاجني، ص:80.

[4] محمد العمري، المرجع السابق، ص:498.

ويشير العمري إلى مسألة هامة في قراءته لحازم، وهي أن مشروعه لم يلاقي قراءة توسعه أو تشرح مقاصده وتؤازره بالتطبيق، و"لقد وصلت البلاغة مع حازم قمة الوعي بذاتها "[1]، لأن الرجل حدد ما هية البلاغة التي يريد الوصول إليها، وما يريد إنجازه وفي أي إطار يتم ذلك، "غير أن المهمة التي حاول حازم إنجازها في المنهاج مما تنوء به العصبة أولو القوة .ولذلك لم يجرؤ أحد على إعادة قراءة عمله [...] فبقي مشروعه بعيدا عن الوصفة البلاغية التي اقترحها علماء العربية في بداية هذا القرن للمدارس ثم للجامعات العربية "[2]، إذ نجد بأن شروح تلخيص المفتاح تكتسح ساحة الدرس البلاغي، ويتم تناسي المشاريع البلاغية الكبرى، مما مهد لعصر جمود البلاغة وأسرها، إلى أن تم نفض الغبار عنها مع الدراسات المعاصرة.

---

[1] محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص:58.

[2] المرجع نفسه، ص:58.

خاتمة :

على مشارف النهاية تتحدد معالم النتائج المتوصل إليها، بعد أن خضنا غمار البلاغة العربية، وقراءة العمري لها ضمن مشروعه، وكانت أسئلته موجها لدراسة وإعادة التحقيق في عديد القضايا البلاغية والنقدية، وقد عمل العمري على رصد اتجاهات الدرس البلاغي والتنقيب عن مشاربه، متحققا من منجزات البلاغة العربية، عبر مراحل تطورها، كما أدى بحثه عن المركزيات ضمن امتدادات البلاغة إلى بيان الخطاطات العامة التي تنبني عليها الأعمال البلاغية التي غالبا ما تنتزع من سياقها وتقرأ لحساب مشاريع أخرى بعيدة عنها .

لقد ثبت من خلال البحث عن روافد النشأة، وطبيعتها أن البلاغة العربية مبنية على أساس الازدواج بين التخييلي الشعري، والخطابي التداولي، وأن الحركية البلاغية النظرية والتطبيقية كانت تسير جنبا إلى جنب مع الحركة الأدبية وتطورها، وكانت تشارك البلاغة هموم العصر المعرفية وتوجهاته العلمية، لم تكن البلاغة ضيفا غير مرغوب فيه، بل كانت من أسياد البيت، لها فاعليتها وكلمتها، ومن خلال الدرس البلاغي الجديد تمكنت الدراسات العربية من كشف مكونات الحجاج والشعرية وبلاغة الأنواع، فالاحتكاك بالوافد الجديد أسدى خدمة للبلاغة العربية عند من أحسن فهمه وكان على صلة بالتراث وثيقة، كما حدث في قراءة الفلاسفة المسلمين للوافد اليوناني، كما انتهى عمل العمري إلى إلقاء نظرة على تصور مؤسس على معطيات منطقية وتوثيقية في بناء جزء ضاع من النسق البلاغي العربي الخاص بحازم

القرطاجني، والآليات المتبعة كفيلة بتصور عديد المنجزات التي من خلالها نتمكن من فهم امتداداتها وتأثيراتها على البلاغة العربية.

وتنكشف النتائج المتوصل إليها كالآتي :

1- كانت البلاغة العربية ملكة فطرية عند العرب، وتطورت بتفاعلها مع التخييل الشعري والإقناع الخطابي ضمن البيئة الجاهلية، فاكتسبت من خلال ذلك قابلية لتوسيع هذين المجالين والاشتغال ضمنهما .

2- كان الحدث القرآني منعطفا أخذ الوعي البلاغي العربي نحو أسئلة المفاضلة بين النص القديم وتلقي القرآن الكريم، وسؤال مؤهلات كل منهما ضمن مساءلات الإعجاز .

3- كان النقد القائم على الموازنات بين الشعراء عاملا مساعدا على إذكاء جذوة الوعي البلاغي بمعايير الإجادة، وانتقل هذا الأمر مع نوعين بلاغيين هما:بلاغة الاختيارات الشعرية، وبلاغة البديعيات .

4- بفضل بناء خلفية معتبرة في مجال نظرية التلقي تمكن المشروع من رصد بلاغة الاختيارات الشعرية، ومراكز اهتمامها وتحديد أنواعها، وطريقة بناء الاختيار داخلها، وما المعايير التي يتمكن من خلالها أصحابها من اختيار نص دون آخر .

5- تتبع الدرس البديعي في مشروع العمري، يؤشر إلى ضرورة مواصلة البحث ضمنه، لأن البديع يعكس وجهة بلاغية خارج الاعتبارات الكلامية والإيديولوجية، وتتلاءم قراءته مع تتبع تطور المذاهب الفنية في الشعر العربي ونثره .

6- كانت الامتدادات الكبرى اتجاهات عكست الخلفيات التي صدر عنها أصحابها، بين اتجاه نشأ في بيئة الجدل والإقناع والبحث عن المعرفة فأنتج بلاغة البيان والتبيين، واتجاه صارع من أجل إثبات مقولة عقائدية في البلاغة فكشف عن سر الفصاحة، وبين اتجاه حاور السابق وبنى مشروعه على مناقضته في مقولاته .

7- كان مشروع السكاكي والقرطاجني نموذجا يعكس ضرورة متابعة المشاريع بالقراءة التي تحترم أنساقها ومقاصدها وبنياتها التي تتأسس عليها علاقاتها .

8- أثمرت قراءة الفلاسفة المسلمين لشعرية أرسطو وخطابته عن نسق فريد من نوعه في فهم فعاليات البلاغة، وفهم النص العربي في ضوء الوافد الجديد مع احترام خصوصيات الأول وتعديل مقولات الثاني باستثمار المحاور التي تعكس الكلية والشمولية فيه .

9- أكبر مقاصد مشروع العمري هو الوصول بالبلاغة العربية لتتصل بالبلاغة العالمية ؛لأنها تعد حلقة من حلقاتها، ولا يتم ذلك إلا من خلال إعادة القراءة والفهم المؤسس علميا، وتفهم الجديد الوافد، وإجراء حوار بينهما، قائم على قاعدة التوافق .

10- البلاغة الجديدة لا يمكن حصرها في اتجاه واحد، فنصبح بذلك مع بلاغات معممة تدعي كل واحدة امتلاك الأحقية، بل نجد بلاغات نوعية ضمن البلاغة الجديدة والهدف الأسمى هو تأسيس البلاغة العامة التي تدرس شتى أنواع الخطاب ؛اللغوي والمرئي والسمعي، راصدة التخييلي والإقناعي، متتبعة العلاقات بينهما واعتماد أحدهما على الآخر دون تنافي .

11- اعتمد العمري على مقولات بنيوية في الكشف عن أنساق المشاريع البلاغية، هذا لم يتناقض مع اعتماده على نظرية التلقي لأن كل وصف للأنساق وتفحص لتركيبها ومكوناتها والعلاقات القائمة بينها يستدعي بعد ذلك لزاما تأويلها، واكتشاف الحوار الذي قام بينها وبين غيرها عبر تتابع التطور التاريخي .

12- يمتد مشروع العمري عبر ما يزيد عن ثلاثة عقود، وما درسة في البلاغة العربية يمتد عبر أربعة عشر قرنا، ولذلك خلصنا إلى نتيجة مفادها أن جزئيات عمل العمري قابلة للتوسع فيها، وأخذها كمواضيع للبحث مفردة، وأن العمل الذي يستهدف قراءة المشروع بأكمله قصادرى جهده إعطاء نظرة عامة عنه لأن التفصيل يؤدي إلى الولوج ضمن كل الإشكاليات التي طرحها العمري، وهذا يتعذر حتى على صاحب المشروع الذي أقر بأن مشروعه أكبر من عدته، وأن الرجل نحت من نفسه إلى حد التلاشي .

المصادر والمراجع :

- **القرآن الكريم .**

ب-المراجع القديمة (التراث):

1- الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 2006 م .

2- ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1999م .

3- الأشعري أبو الحسن :

-الإبانة عن أصول الديانة، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2003م.

-مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2005م.

4- ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 2012م.

5- الأنباري أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2009م .

- أسرار العربية، تحقيق محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.

6- الباجي أبو الوليد، المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 2002م.

7- البغدادي عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 2005م.
8- البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ط4، 1997م.
9- الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط5، 1998م.
10- ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، تحقيق رضوان بن شقرون، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ط1، 1985م.
11- التوحيدي أبو حيان، الإمتاع والمؤانسة، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005م.

-المقابسات، تحقيق حسن السندوبي، مصطفى بابي الحلبي، القاهرة، 1929م.
12- الثعالبي أبو منصور، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط3، دت .
13- الجاحظ أبو عثمان، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط1، 2010م.
14- الجرجاني ركن الدين، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تحقيق ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002م.
15- الجرجاني عبد القاهر :
- أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001 م.

- دلائل الإعجاز، تحقيق محمد شاكر، القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1992م.
- الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط6، 2012م.

16- الجرجاني علي بن محمد الشريف الحنفي، كتاب التعريفات، تحقيق نصر الدين التونسي، القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007م.

17- ابن جني أبو الفتح عثمان :

-الخصائص، تحقيق الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2007م.

-سر صناعة الإعراب، تحقيق محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007م.

18- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1989م.

19- ابن حزم الأندلسي، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية، تحقيق إحسان عباس، مكتبة الحياة، بيروت، دت.

20- الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، ، دار المعارف، القاهرة، ط6 2012 م.

21- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، 2003م.

22- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تحقيق مصطفى الشيخ، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، ط1، 2012م .

23- الرازي فخر الدين، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق نصر الله حاجي مفتي أوغلي، دار صادر، بيروت، ط1، 2004م.

24- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2009م.

25- الرماني علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، ، دار المعارف، القاهرة، ط6 2012 م.

26- الزمخشري جار الله :

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق خليل شيحا ، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2009م.

27- السجلماسي أبومحمد القاسم، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1980م.

28- السكاكي أبويعقوب، مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م.

29- ابن سنان الخفاجي، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1989م.

30- سيبويه أبوبشر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار التاريخ، بيروت، ط1، 2006م.

31- ابن سينا الشيخ الرئيس :

-الإشارات والتنبيهات، تحقيق سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1968م.

-عيون الحكمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ط2، 1980م
-الشفاء (الخطابة)، تحقيق محمد سليم سالم، المطبعة الأميرية، القاهرة، دت.
-الشفاء (الشعر)، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1966م.
32- السيوطي جلال الدين :
-أسرار ترتيب القرآن، تحقيق عبد القادر عطا ومرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة، القاهرة، 2002م.
-الإتقان في علوم القرآن، تحقيق خالد العطار، دار الفكر، بيروت، 2008م.
-المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار الفكر، بيروت، 2007م.
-معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988م.
33- الشاطبي أبو إسحاق، الموافقات أو عنوان التعريف بأسرار التكليف، تحقيق محمد مرابي، الرسالة ناشرون، دمشق، ط1، 2013م.
34- الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2012م.
35- الشيباني أبو اليسر، الرسالة العذراء في موازين البلاغة، تحقيق يوسف محمد عبد الوهاب، دار الطلائع، القاهرة، 2005م.
36- أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي القاهرة، د ت.
37- العسكري أبو هلال، كتاب الصناعتين، الخانجي، القاهرة، ط1، 1320هـ.

38- العلوي يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، تحقيق الشربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ط1، 2009م.
39- ابن فارس أحمد بن زكرياء، الصاحبي في فقه اللغة العربية، تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2007م.
40- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 2009م.
41- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.
42- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عماد زكي البارودي وخيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط10، 2012م.
43- القرشي أبو زيد، جمهرة أشعار العرب، دار صادر، بيروت، ط2، 2008م.
44- المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 2003م.
45- ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق مازن مبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، 2007م.

ج/ المراجع الحديثة والمعاصرة:

1- أدونيس علي أحمد سعيد، الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ط2، 1989م
2- أوكان عمر، اللغة والخطاب، رؤيا للنشر، القاهرة، ط1، 2011م.
3- بارة عبد الغني:
- إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م.

- الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الإختلاف، الجزائر، ط1، 2008م.

4- بلمليح إدريس، استعارة الباث واستعارة المتلقي، ضمن كتاب نظرية التلقي: إشكالات وتطبيقات، طبعة كلية الآداب المغرب، ط1، 1997م.

5- بنعبد العالي عبد السلام، الكتابة بيدين، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2009م.

6- بنكراد سعيد، السميائيات والتأويل، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2005م

7- الدريدي سامية، دراسات في الحجاج، عالم الكتب الحديث إربد، ط1، 2009م

8- الراضي رشيد، الحجاج والمغالطة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 2010م

9- الزين محمد شوقي، تأويلات وتفكيكات، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 2002م.

10- شرفي عبد الكريم، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، منشورات الاختلاف، ط1. 2007.

11- صمود حمادي، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط3، 2010م.

12- صولة عبد الله:

- الحجاج أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، كلية الآداب منوبة، د ت.

- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، ط1. 2007م

13- ضيف شوقي، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط13، 2011م.
14- الطلبة محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة العربية المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2008م.
15- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، دار المعارف، د ت.
16- العزاوي أبوبكر، الحجاج في اللغة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2010م.
17- الغذامي عبد الله، الخطيئة والتكفير، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط6، 2006م.
18- فضل صلاح:
- أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت، ط1، 1995م
- بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992م.
19- المبخوت شكري، الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط2، 2010م.
20- المتوكل أحمد:
- الخطاب وخصائص اللغة العربية، دار الأمان، المغرب، ط1، 2010م.
- اللسانيات الوظيفية مدخل نظري، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط2، 2010م.
21- مرتاض عبد المالك، نظرية اللغة العربية، دار البصائر، الجزائر، 2014م
22- مشبال محمد:
- البلاغة والأدب من صور اللغة إلى صور الخطاب، دار العين، القاهرة، ط1، 2010م.

- البلاغة والأصول، إفريقيا الشرق، المغرب، 2007م.

- بلاغة النادرة، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب، 2006م.

23- مفتاح محمد:

- تحليل الخطاب الشعري(استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط4، 2005م.

- في سيمياء الشعر القديم، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1989م.

- مجهول البيان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1990م.

- التلقي والتأويل مقاربة نسقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2009م.

24- ناظم حسن، مفاهيم الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2008م.

25- يقطين سعيد، السرد العربي مفاهيم وتجليات، دار الأمان، الرباط، ط1، 2012م.

26- وغليسي يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008م.

27- اليملاحي محمد، أسئلة الفكر البلاغي في المغرب مقاربة لمشروع محمد العمري، ضمن البلاغة والخطاب، دار الأمان – الرباط / منشورات الاختلاف –الجزائر / منشورات ضفاف بيروت، ط1، 2014م.

د-المراجع الأجنبية المترجمة :

1- أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، 2008م.

- فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953م.

2- أفلاطون:

- الجمهورية، ترجمة حنا خباز، دار القلم بيروت د ت.

- الخطيب، ترجمة أديب نصور، دار صادر، بيروت، 1966م.

3- بارت رولان، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، دار رؤية، القاهرة، 2011م.

4- ريكور بول:نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2006م.

5- بليث هنريش: البلاغة والأسلوبية ترجمة محمد العمري، افريقيا الشرق، ط1، 1999م.

6- جاكبسون رومان وموريس هالة، أساسيات اللغة، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 2008م.

7- جون كوين، بناء لغة الشعر، ترجمة أحمد درويش، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1993م.

8- جيرار جينيت، خطاب الحكاية، ترجمة محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر الحلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط3، 2003م.

9- فولفغانغ إيزر، فعل القراءة ترجمة حميد لحميداني والجلالي الكدية، مكتبة المناهل دت.

10-مورو فرانسوا، البلاغة المدخل لدراسة الصور البيانية، ترجمة محمد الولي وعائشة جرير، افريقيا الشرق، 2003م.

11-هانز روبرت ياوس، نحو جمالية للتلقي، تر محمد مساعدي، مطبعة الأفق فاس، دت .

12-هايدغر مارتن، أصل العمل الفني، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات الجمل، ألمانيا، ط1، 2003م.

13-هولب روبرت، نظرية التلقي، ترجمة عز الدين اسماعيل المكتبة الآكاديمية، 2000م.

14-طودوروف تزفيطان، الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، توبقال للنشر، المغرب، ط2، 1990م.

1- باللغة الأجنبية:

1- Aron kibedi varga :Rhétorique et littérature. Etudes de structures classiques;Didier,paris,1970.
2- Chaim perelman et Lucie Olbrechts- tyteca : Traité de l'argumentation : La nouvelle rhétorique, université de bruxel ,5em ed ,2000.
3- Groupe Mu, Rhétorique générale ,édition du seuil ,1982.
4- Olivier Reboule, La Rhétorique ,puf paris ,2e édition 1986.

ثانيا :المعاجم

أ/ باللغة العربية:

1- جمال الدين أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، تح عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة مصر، 1981م.

2- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، د تح، دار الفكر، بيروت لبنان، 2010م.

ب/ باللغة الأجنبية :

1- Alain viala. Paule aron ,denis saint jack,dictionnaie du litteraire ,puf, 2eed: 2006.

ثالثا :المواقع الإلكترونية :

1-موقع محمد العمري : http://medelomari.perso.sfr.fr/entree.htm

الفهرس :

الإيداع القانوني: السداسي الأول، 2018.

HRAM978-9931-515-44-9